المقام في العربية في ضوء البراغماتية :

النظرية والتطبيق

إعداد

منال "محمد هشام" سعيد نجار

إشراف

جميع الحقوق محفوظة
الأستاذ الدكتور نهاد الموسى
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً للحصول على درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيلول ، 2004

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الأطروحة (المقام في العربية في ضوء البراغماتية: النظرية والتطبيق) وأجيزت بتاريخ: ..... .

أعضـــاء لجنـــة المناقشـــــة		**التوقيـــــــع**
الأستاذ الدكتور نهاد الموسى (المشرف) **(أستاذ علم العربية واللسانيات العربية)**	**(رئيساً)**	**.....**
الدكتور عبد الله عنبر **(أستاذ مشارك في اللغة والنحو)**	**(عضواً)**	**.....**
الدكتور عبد الكريم أحمد الحياري **(أستاذ مساعد في البلاغة العربية)**	**(عضواً)**	**.....**
الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس **(أستاذ البلاغة العربية)**	**(عضواً)**	**.....**

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإهداء

إلى ...

أبي وأمي الحبيبين ...

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

شكر وتقدير

أشكر الله تعالى أولاً وأخيراً...

ثم أتوجه بالشكر والعرفان والتقدير إلى أستاذي: الأستاذ الدكتور نهاد الموسى، على ملاحظاته المتبصرة، ونظراته الثاقبة وتوجيهاته الحكيمة التي لها أثر كبير في إخراج هذه الأطروحة على هذه الصورة.

كما أتقدم بالشكر للدكتور عبد الله عنبر والدكتور عبد الكريم أحمد الحياري، والأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس لتكرُّمهم بمناقشة هذه الرسالة.

منال،،

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	**ب**
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ، و
ملخص الرسالة	ز- ح
المقدمة	1-3
التمهيد	
مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية	4-26
- مفهوم البراغماتية وتغيراتها التاريخية	5-16
- المقام لدى علماء العربية	17-26
الفصل الأول	
المقولات البلاغية في ضوء نظرية المقام	27-74
- علم المعاني: مقام التلقي ، مقام العقل	33-41
- علم البيان: مقام المتكلم ، مقام التأثير ، مقام العاطفة	42-59
- علم البديع: مقام تحسين الكلام وتزيينه	60-74

الفصل الثاني

المقولات النحوية في ضوء نظرية المقام 75-99

الفصل الثالث

المقولات النقدية في ضوء نظرية المقام 100-132

- في الملحوظات النقدية الأولى: المقام كائناً ضمناً 100-102
- لكل مقام مقال : معيار نقدي 103
- في مقامات التلقي وأحوال أطراف الخطاب 104-126

في الرسائل 104-111

في الشعر 111-114

في مطالع القصائد الشعرية 114-120

في الأغراض الشعرية الأدبية 120-122

في الخطبة والخطاب العادي 122-126

- قضايا نقدية قديمة في ضوء المقام 127-130

عمود الشعر 127

السرقات الشعرية 128-129

اللفظ والمعنى 129-130

- الملحوظات النقدية الحديثة والمقام.....130-132

الفصل الرابع

لكل مقام مقال: من لطائف الأحاديث والأمثال والنكت

تجليات نظرية المقام في الخطاب بين المثل والنكتة وكتب التأديب ...133-185

- المثل : ثبات المقال وتحول المقام 135-147
- النكتة : مقام المفاجأة أو مقام المفارقة 148-167

حال المرسل أو مقام المرسل 148-149

مقام النكتة وموضعها 149-156

النكتة مقام المفارقة 156-160

المتلقي والمقام الثقافي 160-165

مقال النكتة 166-167

- كتب التأديب : مقام العبارة التأديبية 168-185

خطاب الرسول ρ وأصحابه 168-175
خطاب الأب وأبنائه 175-178
خطاب المعلم والتلميذ 179-183

الفصل الخامس

تعليم اللغة مقامياً 186-195
- ماذا يمكن للبراغماتية المقامية أن تهب خطابنا ؟ 196-198
هل تستطيع البراغماتية المقامية أن تقود عمليات التغيير والتحديث في خطابنا المعاصر؟

الخاتمة 199-205
المصادر والمراجع 206-220
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية 221

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المقدمة

ولما كان كل قائل/ سامع قادراً على أن يسند من خلال لغته معنى ما إلى قول من الأقوال، فإن الموضـــوع الأساسي الذي تتناوله البراغماتية هو الطريقة التي تؤول بها هذه الأقوال في المقامات المخصوصـــة التـــي تستعمل فيها. إذ يمكن لأي قائل / سامع أن يسند معنى ما إلى قول معين كأن يفترض أنّ معنى "أنا صائم" هو السخرية أو الإثبات أو الاعتراض.

فمـــثل هذه العبارة "أنا صائم" رهينة مستوى قراءتنا لها، وعندما يعم الالتباس وتتعدد إمكانات فهم العبارة لا يمكن فك هذا الالتباس إلا عن طريق المقام الذي قيلت فيه. فإن لم تلتزم بهذا الشرط فـــإن الأفكـــار تلتبس وتختلط. وفكرة المقام هذه هي المركز الذي يدور حوله علم البراغماتية في الوقـــت الحاضـــر الذي لم يُعد بوسعنا تجنب البحث في قضاياه. فكان لا بد من إدخال اللغة العربية وقضـــاياها إلـــى ميدان النقاش اللغوي العالمي. وكل حداثة لا تقيم محاورة مع القديم فلا فائدة منها حتى نملك صفة استشراف المستقبل.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

فالبراغماتـــية ستساعدنا في الانتقال من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام. حيث لم يعد الأمر متعلقاً البتة بفهم اللغة بصفتها موضوعاً مستقلاً عن الممارسة بل لتمييزها وفقاً لتحديدات الاستعمال اللســـاني. ولعـــل من أهم التصورات التي قدمتها البراغماتية: التأكيد على ضرورة استعمال اللغة بطـــريقة مؤثرة ومن ثم اختيار الأطر القولية والسمعية إلى الفعل والتغيير، وأن ليس العبرة بما قيل ولكـــن بالطريقة التي قيل بها، وأنّ الكلمات في الجملة ما هي إلا بطاقات لأفكار في حالة شعورية معينة.

فالتكلم يتم لتحقيق غاية ما أو هدف محدد، أو إشباع حاجة معينة، أو الحصول على فائدة، فلذا تستعمل اللغة لأغراض ومقاصد في سياقات متباينة ومقامات مختلفة.

وإذن تتوجه هذه الدراسة إلى بيان الدلالة البراغماتية في أبنية اللغة العربية؛ إذ ترى الباحثة أنّ مفهـــوم البراغماتـــية جـــاء ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة (مقتضى الحال)، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة (لكل مقام مقال).

وحقـــاً أن فكـــرة المقـــام ترتـــبط تلقائياً بفكرة (مقتضى الحال) عند البلاغيين وخاصة علماء المعانـــي، لكـــنّ هذه الدراسة تطمح إلى استجلائها لدى النحاة والنقاد، ذلك أنّ النحاة قد عوّلوا على المقـــام عنصرا لازماً لتمام الوصف وتفسير الظاهرة النحوية. كما امتد النقاد في مقاربة النص إلى مقامـــه الزماني المكاني المباشر ومرجعه من صيرورة المقام الثقافي للنص وصاحبه. بل إن كتب

التأديب تنطوي على عناصر جوهرية في تكييف الخطاب على مقتضى أحوال المخاطبين فيما يشبه نموذجاً لأنماط السلوك اللغوي وفاقاً لأعراف السلوك الاجتماعي. ويطمح البحث إلى تأطير اجتهادات علماء العرب وأنظارهم في أطروحة (المقام) محاولين إقامة ما يمكن أن نسميه (نظرية المقام) وعلى إمكانية الإفادة من البراغماتية في تطوير نظرية مقامية عربية حديثة يمكن أن تكون استمراراً للتراث البلاغي العربي. كما يتغيا أن يُطوّر نموذجاً لاستثمار هذه النظرية في تعليم العربية والتواصل بها، ولإنتاج خطاب معاصر مؤثر ومقنع.

وتستضيء الدراسة بالبراغماتية، دليلاً إلى قراءة المعطيات المتوافرة في أعمال علماء العربية على وجه الاستئناس دون تكلف أو إقحام، ذلك أنّ الباحثة تعي ما يحف مثل هذه المزاوجة من محاذير منهجية ولذلك تجهد في قراءة (مقتضى الحال)، (المقام) في سياقها الذي وردت فيه أولاً، وقبل الدخول في مقارنة مع أفكار نقدية ولسانية معاصرة، وباختصار تتمثل أطروحة هذا المشروع في هذه الأسئلة:

- هل اقتصر فحص العلاقة النظامية بين المقال والمقام على البلاغيين؟
- ما دور المقام في التقعيد لدى النحاة؟
- ما مدى ما عوّل شراح الشعر والنقاد على المقام؟
- ما الذي أسهمت به كتب التأديب والأمثال والنكت في جلاء العلاقة بين الخطاب اللغوي وشروط المقام؟

وتتألف هذه الدراسة من مقدمة وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة جاءت على النحو الآتي:

يعرض التمهيد لمفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية.

ويعالج الفصل الأول: المقولات البلاغية في نظرية المقام، فكان لا بدّ من إعادة قراءتها وعرضها من جديد من منظور (مقامي، براغماتي) إذ يتحدث هذا الفصل عن البلاغة بوصفها خصائص القول الجيد، وبوصفها موضوعاً مَعْنِيّا بمشكلات الفهم وسوء الفهم من جهة والتأثير والإمتاع من جهة أخرى.

ويتناول الفصل الثاني: المقولات النحوية في نظرية المقام، فيبلور منهجاً جديداً في الدرس النحوي، إذ يفرق بين مفهومين للنحو: "نحو اللغة" و "نحو المقام" ويرى أن الخبرة بهذين العلمين خبرة بالأغراض والمعاني التي تعبر عنها اللغة في مقام معين.

ويـــتكفل الفصـــل الثالـــث بالمقولات النقدية في ضوء (نظرية المقام)، فكان لا بُدّ من قراءة الشعر العربـــي القديـــم والرسالة والخطبة في إطار (مقامي/ براغماتي)، وإعطاء هذه القراءة مناخاً جديداً يتنفس داخله.

ويكشف الفصل الرابع: تجليات النظرية في الخطاب:

- في المثل
- في النكت
- في كتب التأديب

حيـــث تتبدل لغة الخطاب تبعاً لمن يخاطب، قال القدماء: "كلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات".

ويسعى الفصل الخامس إلى وضع أسس الاستعمال الجيد للغة، فيطور نموذجاً في تعليم العربية مقامياً لإقامة حوار ثقافي ناجح بيننا وبين الآخر.

وقد ذيّل هذا الفصل بسؤال نصه: ماذا يمكن (للمقامية/ البراغماتية) أن تهب خطابنا المعاصر؟ ذلك كلـــه هو الذي تحاول الدراسة أن تحتضنه وتنشغل به وتوظفه في نسق متكامل، مرماه فهم مختلف أشكال "اللعبة" (الكلامية/ المقامية) من جهة والإحاطة والشمول من جهة أخرى. والخروج بخطاب معاصر مقنع.

وانتهى البحث بخاتمة تظهر النتائج التي توصلت إليها الباحثة.

الباحثة

منال نجار

M

سَبْق العرب (براغماتياً)؛ إننا في توقفنا عند هذه النقطة –وإن صحّت على نحو ما– سنبقى في إطار الدفاع عن تراثنا العربي. لهذا أقترح هنا النظر إلى البراغماتية عند علمائنا العرب من زاوية تاريخـــية المعـــرفة، لافتة إلى أنهم لم يكونوا يقصدون إلى وضع علم البراغماتية، ومعتبرة أنه لا يمكـــن مثلاً التحدث عن البلاغة العربية ونظرية المقام بالطريقة نفسها التي يمكننا بها التحدث عن البراغماتية.

فالـــتاريخ الحقيقـــي للعلوم العربية هو تاريخ قراءتها، أما البراغماتية فهي لم تُنتج قارئها في تاريخ التراث العربي القديم. والدليل على ذلك أن مصطلح المقام قُرئ بلاغياً ونحوياً وأدبياً ونقدياً، وســـاعد في تطوير هذا التراث، ولم يُقرأ براغماتياً، لأنه لا علماء العرب القدامى ولا القارئ كانوا يمـــتلكون هـــذا البعد البراغماتي ومقصديته. فإذا ما قرأناه براغماتياً فإننا سنرى أن علماء العربية أدركـــوا بعـــض قوانين وأسس البراغماتية. ومع هذا إنه لمطلب عزيز المنال حشد كل ما ينطوي تحت عنوان البراغماتية ضمن حدود هذه الدراسة، وبناء تاريخ لها في أدبنا وثقافتنا لوعورة مجال البراغماتـــية اللغويـــة. وبالتالـــي فإن هذه الدراسة معتدلة في المدى والطريقة وتعالج الموضوعات الرئيسية في موضوع محدد، حيث ستعطي توضيحاً لبعض المسائل وليس شرحاً وافياً لها.

فموضـــوع البراغماتية أصبح مألوفاً في علم اللغة بعد أن كان قليلاً ما يُذكر من قِبَل اللغويين قـــبل خمســـين عامـــاً، لقـــد عوملت البراغماتية في تلك الأيام البعيدة ككيس من الفضلات محشو بمعلومـــات[1]. وتشومسكي كان قد أوضح أن تشكيل وتأسيس البراغماتية وتنظيمها مسألة مبكرة جداً وذلـــك لنقص "الغنى" الكافي في هذا المجال[2]. والبراغماتية من حيث هو بحث في قمة ازدهاره لم يـــتحدد بعـــد فـــي الحقـــيقة، ولـــم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين، فيما يخص تحديد افتراضاتها أو اصطلاحاتها[3].

---

[1] . Principles of Pragmatics by Geoffrey N. Leech, P (1)

[2]. Contextualism by Marcelo Dascal, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P (154).

[3] . المقاربة التداولية – فرانسواز أرمينكو، ص (**11**).

أمـــا الـــتاريخ الحديث لعلوم اللغة فيتفق الجميع أنّ "السياق"[1] لا يمكن تجاهله في دراسة اللغة. ولا يســـتطيع أحد أن ينكر أنّ البراغماتية هي ذلك الفرع من اللغة الذي يجب أن يتناول مساهمة السياق في إنتاج وبناء وتفسير التعبير اللغوي[2] حتى أصبح دور "السياق" واضحاً وشائعاً في النقاشات حول اللغـــة كما عبّر عنه "ماكس بلاك" عام **1970**م عندما اقترح خلْق علم مستقل وخاص به. ودعا إلى إعـــادة تسمية البراغماتية: إذ عليها أن تسمى "بالسياقية". وأخيراً أصبحت البراغماتية على خارطة اللغويـــات من الآن فصاعداً. وأصبحت مستعمرات البراغماتية آخر مرحلة في موجات التوسع في أشـــكال علم اللغة[3]. إلا أن الأفكار الأساسية الموظفة حالياً في البراغماتية هي غامضة جداً وبدون إطـــار واضح، ومن ضمن تلك الأفكار مفهوم "السياق" ومفهوم البراغماتية. ولكن قبل الخوض في هذه المسألة سيتم الحديث بإيجاز عن الأصل التاريخي لكلمة "براغماتية"[4] بهدف الإشارة إلى بعض الاستخدامات الأخرى لهذه الكلمة وللنظر في بعض تعريفاتها.

مفهوم البراغماتية وتغيراتها التاريخية

البراغماتـــية قـــبل عام **1957** – وهذه مسألة قابلة للجدل – كانت تمارس دون أن تُدرس. فقد ظهرت إشارات متفرقة عند كل من دوسوسير في كتابه المترجم تحت عنوانات مختلفة وريتشاردز فـــي كتابه النقد التطبيقي (**1929**م)، حيث كانت تلك الفكرة ماثلة في ذهنيهما. نرى ذلك من خلال تقســـيم دوسوسير للغويات إلى لغويات داخلية ولغويات خارجية، على اعتبار أن الأولى هي بمثابة دراســـة محايثة (immanent) للغة في حين أن اللغويات الخارجية هي عبارة عن دراسة للعلاقات القائمـــة بيـــن اللغـــة من جهة وبين الدوائر المؤثرة عليها كحال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام... الخ من جهة أخرى[5].

أمـــا ريتشـــاردز فقـــد اتضح له جانب من تلك الفكرة، فأدرك بعض جوانب سياق الحال، عند تحديده للدلالات الانفعالية للغة بثلاث جهات[6]:

---

[1] . "السياق" هنا بمعنى "المقام".

[2] . Contextualism by Marcelo Dascal, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P (13).

[3] . Principles of Pragmatics by Geoffrey N. Leech, P (2).

[4] . Contextualism by Marcelo Dascal, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P (154).

[5] . نظرية النحو العربي- فهاد الموسى، ص (**88**).

[6] . اللغة والإبداع- شكري عياد، ص (**45**).

1. الوجدان (Feeling) ويفسره بأنه: موقف القائل مما يتحدث عنه.
2. النبرة (Tone) وتعني: موقف القائل من سامعه.
3. القصد (Intention) ويعني : الأثر الذي يحاول القائل إحداثه لدى مستمعه.

واستخدم مالينوفسكي العالم الانثروبولوجي مصطلح (سياق الحال) أو ما يسمى(بالسياق المقامي) (Context of Situation)[1] ليدل على نظريته، حيث وجد صعوبة في ترجمة بعض آداب الشعوب البدائية[2] وذلك خلال قيامه بأبحاث ميدانية في جزر التروبرياند جنوبي الباسيفيك، وتوصل إلى ضرورة وضع الكلمات في سياقها الذي استخدمت أو نطقت فيه[3].

لأن السياق كفيل ببيان معناها بلا لبس ولا غموض.

ثم تبنى "فيرث" هذا المصطلح وطوره تطويراً ملحوظاً، حيث رأى أنّ الوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم[4]:

1. أن يحال النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.
2. أن يعتمد كل تحليل لغوي على المقام (سياق الحال).
3. وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس.
4. أن يتبين نوع الوظيفة الكلامية.

جميع الحقوق محفوظة
مركز إيداع الرسائل الجامعية

واهتمت المدرسة السلوكية بزعامة بلومفيلد ببعض العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام، فوجهت عناية اللغويين نحو ربط المعنى بمجالات غير مجالات الكلام، مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة مثل التجارب الشخصية[5]. فعرّف "بلومفيلد" معنى الصيغة اللغوية –كما يقول "بالمر" بأنه "الموقف الذي ينطق فيه المتكلم بالمعنى، والاستجابة التي يُحدثها المعنى في السامع"

---

[1] . سوف نتطرق لهذين المفهومين (سياق الحال) و (السياق المقامي) لاحقاً عندما نتعرض لمفهوم المقام.

[2] . "وما دونه مالينوفسكي في هذا المجال (خبر عودة صيادين بعد رحلة صيد موفقة" الذي نقله إلى الانجليزية (we - run front- wood ourselves. We turn we- see companion- ours he- runs rear wood).

وترجمته على النحو التالي: (نحنْ –نجري أمام– خشب أنفسنا، نحن نتحول نحن –نرى زملاء– نا هو– يجري ينصب–خشب). فهذا التعبير لا يمكن أن يُفهم إلا حين يوضع في السياق الذي يستعمل فيه، لأن هذا السياق وحده هو الذي يبين أن كلمة wood– تشير إلى مجداف الزورق، وهذا بدوره يعني أن اللغات الحية على خلاف الميتة تستعمل في مواقف خاصة كصيد السمك والفلاحة، ولا تنفصل عن سياقها المقامي". ينظر: علم الدلالة إطار جديد – بالمر، ص (**74**).

[3] . علم الدلالة إطار جديد، بالمر، ص ص(**74**-**75**) .

[4] . Papers in Linguistics by John Firth, P P (194 -192).

[5] . علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران، ص (**309**)، بتصرف.

وهذه الفكرة تمتد إلى أبعد مما ذهب إليه كل من مالينوفسكي وفيرث، فهما قد حددا صياغات المعنى بالنظر إلى الموقف، وبلومفيلد يعرّف المعنى –أساساً– باعتباره الموقف[1].

لكــن الاســتخدام الحديــث لكلمة "براغماتية" يعود إلى الفيلسوف "تشارلز موريس" **(1938م)** الذي انشــغل بعد "لوك وبيرس" بتجديد الشكل العام لعلم الرموز (Semiotics). ففي علم الرموز نفسه، صــنّف موريس ثلاثة فروع مختلفة: علم النحو (Syntax) وعرّفه على أنه "دراسة علاقة الرموز الشــكلية بعضــها بــبعض"، وعلــم الدلالة (Semantics) وعرّفه على أنه دراسة "علاقة الرموز بالأشــياء التــي تدل عليها" والبراغماتية (Pragmatics) وعرّفها على أنها دراسة "علاقة الرموز بترجمتها الشفوية"[2].

فلاحــظ (Morris) موريــس أنّ كلمــات التعجــب مثل (أوه ! OH)، والأوامر مثل أنْ يقال (Come here)، وتعابير مثل (صباح الخير Good morning)، وأساليب بلاغية وشعرية متعددة تصــدر عــن مســتخدِم اللغة تحت ظروف خاصة محددة. أمور كهذه تُطرح حتى اليوم في مجَال البراغماتية اللغوية[3].

جميع الحقوق محفوظة

لكــن موريس مضى يوسّع مدى البراغماتية وفقاً لنظرية علم الرموز السلوكي التي خرج بها: "إنــه لمــن الدقة بمحل وصف البراغماتية على أنها تتعامل مع المجالات الحيوية للرموز، أي مع الظواهر النفسية والبيولوجية والاجتماعية التي يتضمنها إصدار الرموز"[4].

ومدى كهذا أوسع بكثير مما يندرج حالياً تحت عنوان البراغماتية اللغوية لأنه يشمل ما يعرف الآن بعلــم اللغــة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة العصبي إلى جانب مجالات أخرى... وهكذا نرى براغماتية موريس تبتعد عن أن تكون براغماتية لسانية محضة.

ثــم خضــعت عــبارة "براغماتية" إلى تضييق المدى (المجال) مرات متتالية. فرأى الفيلسوف وعــالم المنطق (Carnap) كارناب؛ أنه إن ذُكِر مستخدم اللغة أو أشير إليه صراحة، تُدرَج المادة حينئذ تحت حقل البراغماتية... وإن استبعدنا مستخدم اللغة، واقتصرنا على تحليل التعابير ومعانيها، نكــون حينئذ ضمن مجال علم الدلالة (Semantic). وأخيراً إذا ابتعدنا عن المعنى وحللنا العلاقات

---

[1] . علم الدلالة إطار جديد – بالمر ، ص (**81**).

[2] . Pragmatics by Stephen C. Levinson, P (1).

[3] . Ibid , P (2).

[4] . Ibid, P (2).

بيــن التعابــير، فنحــن عــندئذ في مجال النحو[1](Syntax) ويقول: "إن البراغماتية هي قاعدة كل اللسانيات...؛ إذ يتأسس النحو الوصفي والدلالة على معارف براغماتية"[2].

ثــم نظــر (Bar- Hillel) "بارهيــيل" إلــى البراغماتــية علــى أنها دراسة اللغة؛ الطبيعية والاصــطناعية (Natural And Artificial) التي تحتوي على أسماء إشارة[3]، وقد تبين(Kalish) "كالــيش" هــذا الاستخدام، وتبناه بصورة أعمق (Montague) "مونتاك"[4]. واستخدام كهذا لا يُقدم الكثــير إلــى علــم اللغويــات فهــذه القائمة تقدم عرضاً معقولاً لبعض الموضوعات الرئيسية في البراغماتــية، لكــنّ الــتعريف لا يفيد أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن هذه المواضيع، كما أنّ هذا الــتعريف لا يعطيــنا معايير لتضمين أو استبعاد ظواهر أخرى ربما تخطر لنا. بالإضافة إلى أنه ســينتج عــن ذلــك كمــا يشــير(Gazdar) "كــازدار" أن تخلو اللغات الطبيعية من علم الدلالة (Semantics) وتحــتوي علــى علم النحو وعلم البراغماتية. إن كانت الفروع الثلاثة ستقوم بعمل فاعل في نطاق علم اللغة، فينبغي أن نجد مجالاً أوسع (أقل تحديداً) للبراغماتية.

وهكذا نرى أنّ علماء البراغماتية يواجهون تحدّياً كبيراً إذ إن عليهم أن يُظهروا أنّ للمصطلح تطبــيقاً واضــحاً علــى الأقل في الجانب اللغوي. فمنهم يرى أنها 'دراسة المبادئ التي تفسر سبب اعتــبار مجموعــة معيــنة من الجمل شاذة (مخالفة للقياس، أو اعتبارها ألفاظاً غير ممكنة)، وهذه المجموعة قد تشمل[5]:

1. تعال إلى هناك من فضلك !
2. كان أرسطو يونانياً، لكني لا أصدّق ذلك.
3. أبناء فرويد هيبيون، ولا أطفال لديه.
4. أبناء فرويد هيبيون، ولديه أطفال.
5. آمرك بألا تطيع هذا الأمر.
6. أنا بموجب هذا أغني.
7. كما يعلم الجميع، الأرض أرجوكم تدور حول الشمس.

---

[1] . Pragmatics by Stephen C. Levinson , P (3).

[2] . المقاربة التداولية- فرانسواز أرمينكو، ص (**34**)، ولا يقصد بالطبع النحو والدلالة المحضة.

[3] . تعد أسماء الإشارة "هذا، هذه ، ذاك ...الخ" تعابير تختلف إحالتها بالضرورة، بحسب ظروف استعمالها، أو وفقاً لملفوظها في السياق.

[4]. Pragmatics by Stephen C. Levinson , P (4) P (27).

[5] . Ibid, P (7).

جميع هذه الجمل شاذة من ناحية براغماتية، وتفسير الشذوذ الذي تعرضه هذه الجمل يمكن إيضاحه بالإشارة إلى أنه لا توجد سياقات (عادية على الأقل) يمكن استخدام هذه الجمل فيها[1]. ورغم أن طريقة كهذه قد تكون جيدة لإيضاح طبيعة المبادئ التي تبحث فيها البراغماتية، إلا أنها لا يمكن أن تكون تعريفاً صريحاً لحقل البراغماتية. وذلك لأن الشذوذ البراغماتي يعكس الشذوذ الدلالي والنحوي، والشذوذ في علم اللغة الاجتماعي مُفترض وليس مفسراً، ناهيك عن أنه يمكن في الغالب تخيل "سياقات" يمكن أن تستخدم فيها الجمل التي يُزعم أنها شاذة.

وفريق آخر رأى أن البراغماتية "دراسة اللغة من منظور وظيفي، أي أنها تحاول تفسير مظاهر التركيب اللغوي بالإشارة إلى مؤثرات وأسباب غير لغوية. وتعريف كهذا يفشل في تمييز البراغماتية اللغوية عن مجالات كثيرة أخرى مهتمة بالنواحي الوظيفية في اللغة بما فيها علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي[2]. بالإضافة إلى أن الدراسات الوظيفية لا تهتم بجمال التركيب مع أن أساليب التركيب ترتكز على هذا الجمال. فالجرجاني لا يمل من ترديد أنّ التركيب النحوي يحمل المعنى الجميل[3]، وأنّ التصرف في القرائن يتخطى في وظيفته مجال الوضوح إلى مجال الجمال. و"الوظيفية" تعتبر الوظيفة الجمالية للغة هامشية، لهذا تخلت عن جمال العبارة ومستوى القول البليغ. أما البراغماتية فقد عُنِيَت بالفروق الدقيقة التي يتفجر منها الجمال وفنية الأداء الإبداعي.

ويتمثلها آخرون جزءاً في الأداء اللغوي فقط، فلا يكون لها أية صلة بوصف التركيب اللغوي[4]. ومع أنّ هذا المعنى له مناصرون كثير إلا أن هناك مشكلة تظهر؛ في أنّ مجالات من التركيب اللغوي تعبّر أحياناً وبصورة مباشرة عن عناصر في السياق، يصبح حينئذ مستحيلاً رسم حد فاصل بين القواعد المستقلة عن السياق (المقدرة اللغوية Competence) وبين التفسير المتصل بالسياق (الأداء اللغوي Performance). حيث يشير(Katz) "كاتز" إلى أنّ المجموعتين "أرنب" و "أرنوب" و "كلب" و "كلّوب" مختلفتان في أن الكلمة الثانية من كل مجموعة يستخدمها الأطفال أو تستخدم في مخاطبة الأطفال. فبما أن الفرق متصل بمستخدمي الكلمات في سياق محدّد، فإن

---

[1] . يعتمد الجدل على الفرق بين "الاستخدام" و "الذكر"، أو بين الاستخدام العادي والاستخدام ما وراء اللغوي. حسب هذا الفرق الجمل من (**1**-**7**) يمكن أن تُذكر لكن لا يمكن أن تستخدم بسهولة.

[2] . Pragmatics by Stephen C. Levinson, P (8).

[3]. دلائل الإعجاز- الجرجاني، ص (15)، (**38**) ، (**63**)، (**72**)، (**273**).

[4] . Pragmatics by Stephen C. Levinson , P (8).

الفــرق لــيس جــزءاً من الوصف اللغوي للانجليزية الذي يشير إلى أنّ الكلمتين في كل مجموعة كلمتان مترادفتان.

والبراغماتــية عند بعضهم هي دراسة الأفعال اللسانية والسياقات التي تتم فيها[1] ويتمثل مشكل تحلــيل أفعال اللغة في العثور على الشروط الضرورية والكافية في الإنجاز العادي لفعل اللغة مثل غياب بعض الخطوط في السياق الذي يتم فيه فعل اللغة "كمقاصد المتكلم" و "الاعتقادات" ... لنأخذ مــثلاً ملفــوظ: "جــون قادم"، فلو فهمنا العبارة لا يمكننا أن نتكلم على حقيقة الملفوظ، إلا إذا كنا نعــرف، بالإضــافة إلى هذا ، متى تلفظ بذلك، وحول أي فاعل. فالسامع عند سماعه هذا الملفوظ يفــترض أنّ "جــون قادم". ونستطيع أن نلفظ هذه العبارة في سياقات ومناسبات أخرى مثل "تفسير صــوت غريب للسامع" إن لاحظ المتكلم مثلاً تعبير دهشة أو خوف على وجه السامع. وفي سياق آخر أن يستعد السامع لوصول "جون" كما إن كانت حالة تحذير[2].

لهذا نرى فريقاً آخر يعد البراغماتية دراسة اللغة من وجهة نظر الأهداف المنشودة[3] أو المعنى الذي يقصــده المــتكلم، فالملفوظ "انظر هنا" الهدف الأعلى – المعنى المقصود – "جَعْل السامع يصرف نظره عن شيء" وفي حالة كهذه، إنْ كان السامع يعرف أن المتكلم يريده ألا يرى شيئاً، فلن يصرف بصــره وبالتالــي لــن يــتحقق الهدف الأعلى ولهذا السبب لا يريد المتكلم أن يعرف السامع هدفه الأعلــى. أمــا الهدف المباشر: المعنى الظاهري منها في جميع المقامات فهو أن "ينظر السامع إلى المكــان الذي يشير إليه المتحدث"[4]. ورغم وجود محاسن كثيرة لهذا التعريف إلا أنه فاشل في لفت الانتباه إلى الطبيعة اللغوية الملفوظة – الأسلوب– المستخدم في سياق معين.

بيــنما البراغماتــية عــند البعض الآخر عليها أن تربط الجمل بالسياقات التي ستكون ملائمة فــيها[5]. وهذا التعريف يجعل من مفهوم الملائمة أو اللباقة أساس البراغماتية. والمشكلة بشكل عام هــنا، هــي أنك وأنت تقول كلاماً غير ملائم يمكن أن يكون كلامك ملائماً في الوقت ذاته، فهناك ظاهــرة منتشــرة ســماها (Grice) كرايس "الاستغلال" تقول: إن كان هناك (اصطلاح اتصالي) (عُــرف اتصــالي؛ ما اتفق على استخدامه) على سبيل المثال: إن كنت في العادة أرفع قبعتي أمام

---

[1]. المقاربة التداولية – فرانسواز أرمينكو، ص (**36**).

[2] . A Goal Analysis of Some Pragmatic. Aspects Of Language by Domenico Parisi and Cristiano Castelfranchi in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P P (557-556).

[3] .Ibid , P (565).

[4]. Ibid , P (558).

[5] . Pragmatics, Stephen C. Levinson , P (8).

رؤســـائي في العمل احتراماً لهم، لكن في مناسبة ما رفعتها أمام ندّ لي (صنو لي) فأنا حينئذ أعبر عن احترام ساخر، إما بنيّة عدائية أو بنيّة المزاح، فالسخرية مثال ممتاز على هذا الاستغلال وعلى الصعوبات التي تشكلها استخدامات كهذه على نظرية براغماتية معتمدة على الملائمة[1].

وإن وافقنا على وجهة النظر التي تقول إن البراغماتية هي دراسة العلاقات بين اللغة والسياق، تلك العلاقات القائمة على فهم اللغة[2]، فلن تنشأ حينئذ أي من هذه الصعوبات، ويمكننا عندها التفريق بين معالجة كل من البراغماتية وعلم اللغة الاجتماعي.

فالبراغماتـــية مهـــتمة بصيغ لغوية ملفوظة في سياق، وهناك معانٍ اجتماعية ليست مرتبطة بالصيغ اللغوية[3]، وأبسط مثال يوضح هذا عند قول أحدهم: "إنه من صقلية" أو "إنه إيرلندي" أو إنه "إنجلـــيزي" في حين يترك المتكلم السامع يستنتج دون أن يذكر له كلمة "لكن"، الدلالات السلبية لكل شعب: هو من صقلية فلا بُدّ أنه عضو في المافيا، هو إيرلندي إذن هو سكّير غبي، أو إنه إنجليزي وبالتالي فهو ساخر غريب الأطوار[4].

ومـــن هنا يظهر التفريق بين البراغماتية وعلم اللغة الاجتماعي، فتفسير البراغماتية لفهم اللغة يتطلـــب حاجة إلى معلومات متصلة بعلم اللغة الاجتماعي"السياق الاجتماعي" لكن مدى البراغماتية ممثلاً بالتعريف الذي يربط السياق بفهم اللغة أوسع من ذلك[5]. وأمّا علم اللغة الاجتماعي فليس جزءاً أو مكوناً من مكونات القواعد مثل علم النحو أو علم الدلالة أو علم أصوات اللغة أو البراغماتية إلى حد ما.

ونخلـــص إلـــى أن السياق هو الذي يحدد فيما إذا تم التلفظ الجاد، أو الدعابة، أو فيما إذا سقنا مثالاً يشكل تنبيهاً أو إعطاء أمر أو تلميحاً.. [6] فلا بد من معرفته حتى نفهم المقصود.

ومـــن هنا نصل إلى تعريف البراغماتية الذي سنتبناه في هذه الأطروحة: دراسة العلاقات بين اللغـــة والسياق تلك العلاقات القائمة على فهم اللغة. وعبارة فهم اللغة تستخدم هنا للفت الانتباه إلى حقيقة أنّ فهم لفظة يتطلب أكثر من مجرد معرفة معاني الكلمات الملفوظة في تركيب فقبل كل شيء

---

[1]. Ibid , P (26).

[2]. وهو التعريف الذي سنتبناه في هذه الدراسة.

[3]. عندها لا بد من معرفة السياق الاجتماعيّ لمجتمع ما لأنه لا يظهر في الصيغ اللغوية.

[4] . On The Art of Deception: How To Lie while Saying The Truth by Jocelyne M.Vincent and Cristiano Castelfranchi in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P P (761-760) .

[5]. فالسياق غير اللغوي يضم إلى جانب السياق الاجتماعي: السياق العاطفي والسياق الثقافي وسياق الموقف..

[6]. المقاربة التداولية- فرانسواز أرمينكو، ص ص (**38**-**39**).

فَهْــمُ لفظة يتطلب الاستنتاج الذي يربط ما يقال بما يفترض أن يعني أو بما قيل من قبل[1]؛ فدراسة تلك العلاقات تمكننا من تمييز العلاقة المتبادلة بين الشكل اللغوي والسياق عند دمج المعنى السياقي بالشــكل اللغــوي المقــترن بشروط الصحة في النحو. وذلك لأن التعريفات السابقة على تمايزها ينتظمها قدر جامع مشترك هو طبيعة السياق، ولأن التعريف الذي يركز على طبيعة السياق هو أحد أهداف النظرية البراغماتية التي لا يجادل فيها واحد من علمائها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

بالإضافة إلى أن هناك صعوبات في رسم خط فاصل بين علم الدلالة والبراغماتية ويبدو أن أفضل استراتيجية للفصل بينهما هي حصر علم البراغماتية بالسياق[2] .

[1]. Pragmatics by Stephen C. Levinson, P (21).

1. لم تكــن الدراسات اللغوية إلى عهد قريب تفرق بين علم الدلالة وعلم البراغماتية، فكلاهما يهتم بالمعنى ولكن الاختلاف بينهما يمكن رده إلى اســتخدامين مختلفين للفعل. ينظر : Principles of Pragmatics by Geoffrey N.Leech, P(4) إن علم الدلالــة يهتم بالمعنى كعلاقة زوجية أو ثنائية، ولكن البراغماتية تهتم بالمعنى كعلاقة ثلاثية، وهكذا فإن المعنى بالبراغماتية له صلة بالمتحدث أو مســتخدم اللغــة في مقام معين، بينما المعنى في دلالات الألفاظ يعرف على أنه صفة مميزة للتعبيرات في لغة معينة بشكل تجريدي ومنفصل عن

لكــنّ صـــعوبة أخـــرى تواجه تعريف البراغماتية هذا وهو أنه يتطلب وصفاً صريحاً لمفهوم "الســياق". فمن الانتقادات التي وجهت لنظرية السياق أنها تتسم بالغموض وينقصها الوضوح، وبلا شـــك فإن بوناً شاسعاً يقف بيننا وبين القدرة على الحصر الشامل المنظم لسياقات الحال، لكن تحليل المواقف بصورة منهجية، يمكن تطويره ودفعه إلى الأمام من قبل اللغويين، وحتى يتم هذا لن نكون فـــي موقـــع يمكنـــنا تقدير الكفاية الكاملة لتوضيح الدلالة وشرحها من خلال العلاقات المتبادلة في المواقـــف. ويقول بالمر: إن عالم الخبرة يشمل بالضرورة حصيلة المعرفة الإنسانية، وإن عرفنا علم الدلالة بموجب السياق، سيكون الحقل الدلالي لا متناهياً..[1] .

فمـــن الصـــعب الوصول إلى نظرية كاملة للسياق لأن الوصول إليها يمثل كل المعلومات المتوافرة عن المتكلم والمستمع والظروف المحيطة بهما.

ومـــع هذا فإن نظرية السياق كما يقول أولمان "تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة، في هذا الشأن"[2] .

جميع الحقوق محفوظة
الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وننتقل الآن إلى المعنى الخاص لكلمة "سياق":

المقـــام أو عن المتحدث أو السامع. فالبراغماتية دراسة للمعنى من حيث علاقته بمواقف التحدث ومقاماته، وعلم الدلالة هو العلم الذي لا يهتم بالفرد المتكلم، ولكنه يركز بحثه على دراسة خصائص اللغة من ناحية الدلالة والمعنى.

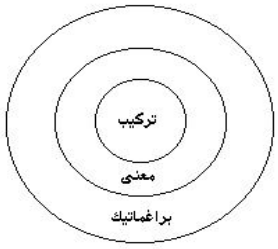

وتختلف البراغماتية عن علم التركيب في أنها تتعامل مع اللغة في مستوى واقعي أكثر من النحو. حيث أن النحو يتعامل مع كينونة جامدة مجردة مثل الجملة، والكلمات، وحروف الجر، بينما البراغماتية تتعامل مع العمل اللفظي الذي يأخذ مكاناً في مواقف معينة. إن الدراسات التي قام بها علماء اللغة أثبتت جميعها من خلال النظرية والتطبيق أن البراغماتية لا تتعارض مع التركيب والمعنى بل تضمهما. "فدراسة بعض المعطيات اللغوية كالملفوظات الإنشائية وغيرها من التراكيب المميزة لوضعيات تلفظ خاصة، تضع ضرورة ربط البراغماتية بعلم التراكيب باعتبار أن هذه المعطيات هي ظواهر تركيبية وشكلية يولدها التلفظ بواسطة استراتيجيات خطابية خاصة، للتعبير عن قيمة دلالية في شكل معادلة بين القول والعمل". ينظر: البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية – عثمان بن طالب ضمن أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، ع**6**، **1986**م، ص ص (**125**-**126**). فيستحيل انفصال المكون البراغماتي عن المكونين النحوي والدلالي في التحليل النصي أو الخطابي، بل إن ذلك المكون البراغماتي صار موجهاً فعلياً للمكونين الآخرين.

[1]. علم الدلالة إطار جديد- بالمر، ص (**57**).

[2]. دور الكلمة في اللغة – أولمان، ص ص (**66**-**67**).

لقــد اســتعملت كلمة "السياق" حديثاً في معان مختلفة، فقسمت إلى : سياق لغوي، وسياق عاطفي، وســياق موقفــي، وســياق ثقافي... ويشرح أولمان "السياق" حيث يرى أن السياق يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة بل والقطعة كلها والكتاب كله، ويشمل أيضاً كل ما يتصل بالكلمة مــن ظــروف وملابســات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخــرى أهميــتها فــي هذا الشأن[1]. والذي نراه هنا أن أولمان قد قسّم السياق إلى نوعين بارزين: سياق لغوي وسياق غير لغوي. والسياق الذي نقصده في هذه الدراسة هو "السياق غير اللغوي" وهو المقــام فــي علــم العربــية، وهــو الذي يندرج تحته: السياق الثقافي، والسياق العاطفي، والسياق الاجتماعــي...، أما السياق اللغوي فيتمثل في العلاقات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية وهو النظم في علم العربية.

وهكذا فالسياق غير اللغوي هو مجموع الظروف الاجتماعية أو العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تؤخــذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي[2]، وهو المــناخ أو الجو العام الذي يتم فيه الحدث الكلامي، فهو يشمل الزمان والمكان، والمتكلم والسامع، والأفعــال التــي يقومــون بها، ومختلف الأشياء والحوادث التي لها صلة بالحدث الكلامي، ويتسع الســياق ليشــمل المعرفة المشتركة بين المتكلم والسامع لكل ما له علاقة بفهم المنطوق، كما يتسع ليشــمل القــبول الضــمني مــن قــبل المــتكلم والسامع لكل الأعراف التي لها علاقة بالموضوع والاعــتقادات، والمســلمات الســابقة المعــتد بها من قبل الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم والسامع.

الآن يتضــح لنا أنّ السياق يحتوي على كل عامل يؤثر في تفسير التعبير[3] أو يمكننا القول إنّ السياق هو الأجزاء المحذوفة من السياق اللغوي.

وباختصار إن السياق على أعم الأقوال يجب أن تتوافر فيه المظاهر الآتية:

1. متكلم ومستمع واحد على الأقل.
2. كلمة واحدة أو قول واحد على الأقل.

---

[1]. المرجع السابق، ص (**62**).

[2]. علم الدلالة إطار جديد- بالمر، ص ص (**60**-**61**).

[3] . Contextualism by Marcelo Dascal, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, P (155).

3. تظهر الكلمات أو الأقوال في زمان ومكان معينين.

4. تشير هذه الكلمات أو الأقوال إلى معان، تتعين ضمن السياق.

وهكذا فغاية البراغماتية هي النظر إلى شكل لغوي أو أسلوب لغوي ملفوظ في سياق معين أي مقام معين. ومنها نخرج بالمبادئ العامة للبراغماتية:

المبدأ الأول: الكلمات هي الوحدات الأساسية للبراغماتية .

المبدأ الثاني: إذا ظهرت كلمة في نص أو خطاب، فيجب أن تكون علاقات الكلمات صحيحة من الوجهة النحوية.

المبدأ الثالث: لا يتم تعيين معنى الكلمة أو الكلام إلا في مقام معين.

فهذه المبادئ تبين لنا كيف يتحدد معاني الكلم، وأن البراغماتية تستمد وجودها من المستوى التركيبي، وأن السياق هو محور النظرية كلها.

وتكشف لنا هذه المبادئ عن أسئلة مهمة تحاول البراغماتية الإجابة عنها مثل:

من يتكلم ؟ وإلى من يتكلم ؟

ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟

ما مصدر التشويش والإيضاح ؟

كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وأخيراً نرى أن التعريف الذي تبنّته هذه الدراسة للبراغماتية إنما المراد منه إعادة قراءة حلقات الدرس اللغوي والبلاغي والنحوي والنقدي وعرضها في ضوئه، وأنّ هذا المفهوم صالح لتوضيح نظرية في المعنى هي النظرية المقامية الدالة على محورية المتلقي، ومن هذا المحور نستأنف طرح مسألة الإيصال والتلقي، لعلنا ننتهي إلى مشروع صالح لتوجيه صياغة خطابنا المعاصر.

وللحصول على تحليلٍ وافٍ لغوياً وتفاعلياً يجب تقسيم مصطلح السياق إلى شكلين مختلفين يتم تجربة السياق فيهما واستخدامه من قبل المتحدث والمستمع:

أ. السياق المستقل الحاضر في أذهان أطراف المحادثة والذي يمكن افتراضه مسبقاً في التعبير اللفظي – للتركيب اللغوي– فينقل لنا هذا التركيب: سروره أو كرهه وينقل لنا أحاسيسه

وانفعالاته بأساليب مختلفة. وعلم المعاني ومقاماته وأسلوب المدح أو الذم أو التعجب يمكن أن يقع تحت هذه الفئة. لكن في الوقت نفسه لا بد أن نسلّم أنّ ما يعنيه المتكلم بأية لفظة أو عبارة لا يعالجه الشكل اللغوي الملفوظ فقط.

. ب نواحي وجوانب السياق –التي لا تظهر في التعبير اللفظي– والتي تصبح ذات صلة وتؤخذ بعين الاعتبار بسبب مؤشرات ضمنية غير لغوية أو أساليب بيانية في التعبير تُنبئ عن شعور المتكلم كفرحه، وسروره، وغضبه، وكرهه، وعلامات وجهه، وحركاته، وإشاراته، حيث توحي إلى مقصوده من كلامه، وهذا يعني أن مدى ارتباطها يتحدد فقط بعد أن ينتج هذا التعبير الكلامي. والتعابير المصوغة بأسلوب ضمني أو بياني تكون أكثر اعتماداً على السياق من اعتمادها على الجمل "التامة" لغوياً. ويقع تحت هذه الفئة علم البيان، فأجزاء كبيرة من هذه الدراسة مهتمة بإيضاح هذه الآليات التي شأنها شأن مجالات أخرى من مجالات المعرفة اللغوية نستخدمها يومياً دون أن نعي ذلك وعياً صريحاً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المقام لدى علماء العربية

والآن بعد أن تعرفنا على مفهوم البراغماتية والسّياق، يحق لنا إيجاد مصطلح عربي لهما[1]، ومع أنّ هناك بعض اللغويين المعاصرين من أهم أسسهم الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن[1] إلا

[1]. البراغماتية مصطلح ترجمه بعض الباحثين إلى التداولية، ينظر مبادئ في علم الأدلة، رولان بارت، ترجمة محمد البكري، ، دار الحوار، اللاذقية، **1986**م ،ص (**14**) وينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص- صلاح فضل، ص ص (**23**-**24**)، وينظر: المقاربة التداولية – فرانسواز أرمينكو، ترجمة سعيد علوش وينظر الدلاليات والتداوليات "أشكال الحدود" عبد الرحمن طه، ضمن كتاب البحث اللساني والسيميائي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (**1401**هـ/**1981**م)، ص (**299**)، وترجمه عبد القادر الفهري في بحثه "المصطلح اللساني" بالذرائعية أو بالذريعيات يقول "ونلحظ كذلك عدم اهتمام عام بمصطلحات الدلالة والصرف والذريعيات- Pragmatics وكثير من ألفاظ التركيب Syntax...الخ.ينظر المصطلح اللساني- عبد القادر الفاسي الفهري، أشغال المتلقى الدولي الثالث في اللسانيات، تونس **1985**، سلسلة اللسانيات ع**6**، **1986**م ، ص (**552**)، ويرى قاسم المقداد أنه لا تجوز ترجمة Pragmatics بالذرائعية وإلا اعتقدها القارئ مقابلة للمدرسة الفلسفية المعروفة بهذا الاسم Pragmatisme غير أنه لم يطرح مصطلحات عربياً لهذا المفهوم. ينظر: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، هربيرت بركلي، قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، **1990**م، ص (**108**). ومن أمثلة المصطلحات التي لم توحد "سياق الموقف" و "مقتضى الحال" في مقابل (Context of Situation) فقد اقتصرت اللجنة على هذين المقابلين العربيين من اثني عشر مقابلاً عربياً هي"سياق الحال، سياق الموقف، المسرح اللغوي، الماجريات، الظروف الكلامية، ومقتضى الحال،

أنني وجدت أن هذين المصطلحين نستطيع أن نبني لهما تاريخاً في معرفتنا وأدبنا وثقافتنا، فأرى أن البلاغة العربية إلى حد ما هي البراغماتية، والسياق هو المقام[2].

فصحيح أنّ تعريفات البلاغة لدينا تنطلق من حقول مختلفة، لكن أصحاب هذه الرؤى تلتقي في أنّ البلاغة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"، وهذا القول هو صفوة ما أشار إليه القدماء ولم يكن هذا المعنى بعيداً عن المعاصرين. فكل ما تقتضيه الأحوال ويدعو إليه المقام في الأساليب والعبارات فإنه من صميم البلاغة. فعلى نظرية البلاغة تنهض البراغماتية أو أن البلاغة أصبحت مرادفة للبراغماتية. فالبلاغة حسب تعبير "ليتش" تداولية في صميمها. فهي ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير والتأثر المتبادلين بينهما، والبلاغة والتداولية –البراغماتية– تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي[3] .

ولو اطّلع الغرب على النظرية البلاغية العربية لكانت البراغماتية على غير ما هي عليه اليوم، ولاحتاجت إلى سنوات أقل حتى تصل إلى ما وصلت إليه الآن.

أما مصطلح "السياق" فكان حضوره قوياً في النص العربي القديم تحت مسمى "المقام" وكما أن السياق هو المحور الذي تدور حوله البراغماتية، فالمقام هو المحور الذي تدور حوله البلاغة العربية[4]. وتدفع أهمية السياق "بماكس بليك" إلى إعادة تسمية البراغماتية بالسياقية[5]، فلا غرو أن نسمي البراغماتية بـ"المقامية". وهكذا نرى أنّ للبراغماتية جذوراً ممتدة في تراثنا البلاغي

الأصل التاريخي، والحدث التاريخي، والدلالة التاريخية، والتفسير التاريخي، وشاهد الحال، والمقام". ينظر: فريد عوض حيدر – توحيد ترجمة المصطلح في الوطن العربي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية (**22**) الرسالة (**180**) (**1423** هـ-**2002**م) ص (**37**).

[1] . فنرى عبد السلام المسدي يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصوّر مستحدث، قاموس اللسانيات، ص ص (**55-56**). ويشاطره الرأي عبد القادر الفهري حيث أنه يحذر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث، المصطلح اللساني، ص (**144**)؛ لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والمحلي على السواء، ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفاً، لأن هذا يؤدي إلى مشترك لفظي غير مرغوب فيه، بالإضافة إلى سوء الفهم، قاموس اللسانيات، ص (**145**)، ولكننا نفضل استخدام مقابل واحد هو "المقام" لأنه أكثر استيعاباً لدلالة المفهوم الأجنبي "السياق"، ولأنه من المفاهيم التي تعاور أغلب البلاغيين والنقاد وأعادوا القول فيه ذلك أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة. المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية – أحمد مختار عمر، عالم الفكر، م**20**، ع**3**، **1989**م، ص (**22**).

[2] . سيتضح هذا التقريب الذي نحن بصدده بين البراغماتية، والسياق والمقام في الفصول اللاحقة.

[3] . بلاغة الخطاب وعلم النص- صلاح فضل ، ص (**124**).

[4] . لا يعني قولنا هذا أن المقال والمقام كان لهما من الحظوة عند العرب القدماء كما كان لألوان البلاغة والبديع، فهذه الألوان لها أبواب خاصة بها في كتبهم أما المقال والمقام فلا. ومع هذا أدركوا أهميته وأعملوا فيه أذهانهم، فكانت لهم آراء شاملة وصائبة وسابقة.

[5] . Contextualism by Marcelo Dascal in Possibilities And Limitations Of Pragmatics by Herman Parret, PP (177-154) P (13).

والـــنحوي والنقدي ...، فقد أدرك بلغاء العربية القدامى ظاهرة السياق من خلال عبارتهم (مقتضى الحـــال) التـــي أنتجت مقولتهم (لكل مقام مقال) ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة المقام وربطها بالتركيب والصياغة، فربطوا الشكل اللغوي أو الأسلوب اللغوي بالمقام أو ألحـــوا علـــى قيمة دراسة كيفية عمل الكلمات دراسة مفصلة، فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق (بمقتضى الحال) و (المقام).

ويجـــد الباحـــث نفسه أمام مصطلحي "الحال" و "المقام" المرتبطين بالمقال الذي هو النص أو العبارة أو الخطاب- فما مرجعيتهما؟[1]، وما الأرضية التي نشآ فيها؟ هل هما ذوا مرجعية بلاغية أم نحوية أم نقدية...؟

فـــي الأصل يتردد هذان المصطلحان في النصوص البلاغية، ثم انتقلا في حقلي النحو والنقد. وقـــد يكون مفيداً الوقوف على دلالتهما في المقام الذي وردا فيه وترتيب النصوص التي تضمنتهما، بحســـب تسلســـلها الزمنـــي، قبل أن يتخذا مصطلحاً محدد الدلالة، ومن ثم الوقوف على تطورهما الدلالي فهذا من شأنه أن يضعنا أمام منبتهما والغرض الذي استُعملا فيه.

فمـــن أقـــدم النصوص البلاغية التي ورد فيها هذان المصطلحان رسالة بشر بن المعتمر، وقد جاءت الإشارة إليهما فيها وجيزة ولكنها مكثفة الدلالة، يقول بشر: "والمعنى ليس يشرُف بأن يكون مـــن معانـــي الخاصَّـــة، وكذلـــك ليس يتَّضع بأن يكونَ من معاني العامّة وإنما مدارُ الشرّف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مَقامٍ من المقال"[2].

يـــرى بشر أن المعاني لا تشرف كلاماً إلا بقدرتها على تحقيق الصواب وتحقيق المنفعة وذلك من خلال موافقة الحال ومناسبة المقام للمقال[3].

ويُفهـــم مـــن كلامـــه أن المقام الواجب مراعاته هو مقام (السامع) من حيث طبقته (الخاصة، العامـــة) وهـــذه المـــراعاة تكون في المعاني، ولكل من الخاصة والعامة معانٍ يخاطَبون بها. يقول الجـــاحظ: "ينبغي للمتكلِّم أن يعرفَ أقدارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعينَ، وبين أقدار الحـــالات، فيجعلَ لكلّ طبقةٍ من ذلك كلاماً، ولكلّ حالةٍ من ذلك مقاماً، حتى يَقسمَ أقدارَ الكلام على

---

[1]. نقصد بالمرجعية: الحقل المعرفي الذي يعبر المصطلح عن بعض جوانبه ويدور في فلكه.

[2]. البيان والتبيين- الجاحظ، ج**1**، ص (**136**).

[3]. يرتبط الصواب بقواعد اللغة ومراعاة الألفاظ بحيث لا تستخدم ألفاظ غريبة أو غير مفهومة "فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السوقي رِطانة السوقي" البيان والتبيين- الجاحظ، ج**1**، ص (**144**). (الرطانة: بفتح الراء وكسرها الكلام بالأعجمية) والمنفعة: بالقصد الذي يراد من الكلام وهنا منفعة "السامع" والغاية من مراعاة الحال والمقام هي إحراز المنفعة من السامع وتجنب غضبه.

أقــدار المعانـــي، ويقســـم أقـــدارَ المعانـــي على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات[1]".

ومـــن هـــنا يتضح لنا أنّ الجاحظ قابل بين الحال والمقام، وطبيعة المقابلة تقتضي طرفين مختلفين فالحال غير المقام.

ومـــن جهـــة أخـــرى ربط النصان السابقان بين "الطبقة" و"الكلام" عند معالجة هاتين الفكرتين (الحـــال والمقام)، ومجمل القول أن الكلام يرتبط بطبقات السّامع أي مقامه الاجتماعي "وكلام الناس في طبقاتٍ كما أنّ الناسَ أنفسهم في طبقات"[2]، كما يرتبط بحاله وقت تلقيه الكلام، فلا بد أن يراعي المتكلم هذا المقام الاجتماعي بالإضافة إلى مراعاة حال سامعه؛ فيأتي بالمعنى فيما يليق بهما وإيراد مـــا يقبل عليه، وتجنيبه ما يكرهه وينكره، وما لا يحتمله قلبه، ولا يسعه صدره، ولا يليق به قبوله. فهذا ما قصده الجاحظ بأقدار المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات وأقدار المقامات. لهذا طلب ابن طباطبا (**322**هـــ) من الشاعر أن "يخاطب الملوكَ بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطهـــا عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعدُّ لكل معنى ما يليق به ولكل طبقة ما يشاكلها"[3].

ويتابع العسكري (**395**هـــ) قائلاً "لا يُكلّمُ سيدَ الأمةِ بكلام الأمة، ولا الملوكَ بكلام السُّوقةِ. لأنَّ ذلـــك جهـــلٌ بالمقامـــات، ومَـــا يصلحُ في كلٍّ واحدٍ منهما من الكلام. وأحسَنَ الذي قال: لكل مقامٍ مقال"[4].

فطـــبقة السامعين تحدد المعاني والألفاظ التي يستخدمها المتكلم "فيخاطب السُّوقي بكلام السُّوقة، والـــبدويُّ بكلام البَدْو، ولا يتجاوَز به عما يعرفُه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهبَ فائدةُ الكلام وتعدم منفعةُ الخطاب"[5].

ويقول في موضع آخر " وربما غَلبَ سوءُ الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية؛ فيخاطبون السُّوقيَّ والمملوك والأعجميَّ بألفاظِ أهل نجدٍ، ومعاني أهل السراة"[6].

---

[1]. البيان والتبيين- الجاحظ، ج**1**، ص ص (**138**-**139**).

[2]. المصدر السابق ، ص (**144**).

[3]. عيار الشعر – ابن طباطبا، ص (**12**).

[4]. الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (**27**).

[5]. المصدر السابق، ص (**29**).

[6]. المصدر السابق، ص (**27**).

تكشف لنا هذه المقولات أن بلغاء العربية في هذه المرحلة جعلوا المقام مقامين: مقام الخاصة، ومقام العامـــة أو مقـــام الملوك والسادة والبدو، ومقام السوقة والعامة والأعاجم. وتكشف لنا أن مقام البدو يناسبه وحشي الكلام ومقام السوقة يناسبه، الكلام السهل.

ويـــتأكد هذا في قول آخر" فاجعل هذا الأصل ميزاناً تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك، ولا تخاطبـــن خاصـــاً بكلام عام، ولا عاماً بكلام خاص. فمتى خاطبت أحداً بغير ما يشاكله فقد أجريت الكلام غير مجراه وكشفته"[1].

وإذا وقفنا عند السكاكي وهو الذي شكّل المرحلة التالية، مرحلة الضبط والتقعيد نشاهد فيها تطور مفهوم المقام حيث تجاوز "دائرة الطبقية" إلى تفاصيل جزئيات المقام.

ففـــي إطار علم المعاني يرى السكاكي أنّ للكلام مقامات إذ يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقـــام الـــذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجِد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقـــام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقـــام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[2].

ويشبه القزويني (**739**هـــ) أن يكرر ما جاء به إلا قليلاً إذ صنّف المقامات على وفق:

1. الأغـــراض والمقاصد: وتنتظم مقام التشكر والشكاية، ومقام التهنئة والتعزية، ومقام المدح والذم، ومقام الترغيب والترهيب ومقام الجد والهزل... .
2. بـــناء العـــبارة وتركيبها: وذلك مقام الكلام المبني على الاستخبار والإنكار، ومقام السؤال ومقام الكلام ابتداءً.
3. مقام (السامع): وينتظم ثنائية الغبي والذكي.

ومـــن هـــنا يتضـــح أن المقامات متغيرة ما عدا مقام الكلام مع الذكي ومقام الكلام مع الغبي. والـــذي نقصـــده بقولـــنا متغيرة؛ أن مقام المدح أو الذم –مثلاً– يرتبط بظرف خارجي (وقتي) يجد

---

[1]. الرسالة العذراء– إبراهيم بن المدبر، ص (**35**)

[2] . مفتاح العلوم – السكاكي ، ص (**256**).

السامع نفسه فيه ولا بُد للمتكلم أن يأخذه بالاعتبار. أما الحالة الأخيرة مقام الكلام مع (الذكي، الغبي) فيرتبط بوضع ثابت متعلق بالسامع لا يفارقه.

وبمعنى آخر يكون المقام ثابتاً إذا أريد منه المقام العقلي للسامع (الذكي أو الغبي..) أو المقام الاجتماعي (السوقي والمملوك..) ويكون متغيراً إذا أريد منه غرض السامع ومقصده – من الأحوال المتصلة بالمتكلم– كالشكر، والمدح والذم ...الخ .

أما الحال عند الجاحظ فهي حال المتكلم أو حال السامع، حال متغيرة ومتبدلة من جهة ومصاحبة للحدث الكلامي في عملية الاتصال من جهة أخرى. يقول الجاحظ: "وجميعُ أصنافِ الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقصُ ولا تزيد: أولهما اللفظ، ثم الإشارة[1]، ثم العَقْد[2] ثم الخَطّ، ثم الحالُ التي تسمى (نِصبْة). والنّصبَة هي الحالُ الدّالةُ، التي تقوم مقامَ تلك الأصنافِ، ولا تُقصِّر عن تلك الدلالات"[3] ثم يقول في موضع آخر: "وأما النّصبَة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد"[4] ثم يوضح "الحال" بقوله ولو كان الناسْ يعرفون جُملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين، لأعربَوا عن كلِّ ما تَخَلَّجَ في صدورهم، ولوَجَدوا من بَرْدِ اليقين ما يُغنيهم عن المنازعة إلى كل حالٍ سوى حالهم،...، ولكنهم من بين مغمورٍ بالجَهْل ومفتونٍ بالعُجْب، ومعدولٍ بالهوى عن باب التثبُّت، ومصروفٍ بسوء العادة عن فضْل التعلُّم"[5].

أما الحال عند الشريف الجرجاني فهي "الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته"[6]، وهي "ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به"[7] أي مقتضى الحال.

وأما السكاكي فيؤكد أن مجيء كل مقتضى على ما يمليه حال السامع هو مدار حسن الكلام. ثم يعقب على قوله هذا بأن إخراج الكلام على ما يقتضيه حال السامع وعلى الوجوه المذكورة هو ما

---

[1]. تكون الإشارة باليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب، والمنْكِب، إذا تباعد الشخصان، وبالثّوب والسَّيف. وقد يتهدد رافعُ السّيف والسَّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً. والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، ينظر: البيان والتبيين– الجاحظ، ج**1**، ص ص (**77**، **78**).

[2] . العَقْد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، يقال له حساب اليد.

[3]. البيان والتبيين– الجاحظ، ج**1**، ص (**76**).

[4] . المصدر السابق، ص (**81**).

[5] . البيان والتبيين– الجاحظ، ج**1**، ص (**84**).

[6]. التعريفات – الشريف الجرجاني، ص (**40**) . أي فصاحة الكلام: وهذا معناه خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات والتعقيد، مع فصاحة الكلمات، بمعنى صحة القواعد النحوية واللغوية.

[7]. مفتاح العلوم – السكاكي، ص (**256**).

يسمى (إخراج مقتضى الحال)، ثم يذكر هذه الوجوه: وهي إطلاق الكلام أو تقييده، طي ذكر المسند أو المسند إليه أو إثباته، الفصل والوصل، الإطناب والإيجاز...الخ .

"فــإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحــال بخــلاف ذلــك فحسن الكلام تحليِّه بشيء من ذلك بحسب المتقضى ضعفاً وقوة، وإن كان مقتضى الحال طيَّ ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه... الخ "[1] .

وواضــح أن دلالــة الحال عندهم كانت جلية الملامح ترتبط بمتغيرات أطراف الخطاب ومكونات التركيب فتوقف ابن خلدون عند ذلك فقال: إن الكلام هو "التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة"[2].

ثــم ارتبطــت من بعد بالحالات النفسية أو الوجدانية أو الذهنية للإنسان وتقلباتها. يقول القيرواني: "لكل مقام مقال: وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده، وأمور ذاته–من مدح، وغزل، ومكاتبة، ومجون، وخمــرية، ومــا أشــبه ذلك– غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين"[3]. وحازم القرطاجــي لا يــنفك يؤكد صلة الشعر المكينة بالإنسان وأحواله النفسية وبأن أحوال الناس لا تخلو من أن تكون مفرحة، أو شاجية، أو مفجعة أو سارة وشاجية أو سارة ومفجعة أو شاجية ومفجعة أو مؤتلفــة مــن الــثلاث. وعندها وجب أن تكون الأقاويل منقسمة بهذا الاعتبار... إلى أقسام: أقوال مفرحة، وأقوال شاجية، وأقوال مفجعة[4]... يقول القرطاجني: "وكانت النفوس تختلف فيما تميل إليه مــن هــذه الأقســام بحســب ما عليه حالها، فإنها ليست تميل إلا إلى الأشبه بما هي فيه"[5]. ويقول الغزالــي: "أمــا الأحــوال فهي شعور نفساني وأمزجة لا سيطرة للإنسان إلا أنّ القلب يصل إليها بــالذوق من غير أن يكون له القدرة على جلبها أو دفعها وتكون هذه الأحوال عادة متقابلة، فهنالك حــال الفرح والحزن، وحال الرجاء والخوف..الخ"[6] ، والملمح اللافت هنا أنّ هذه المرحلة أوجبت على المتكلم مراعاة المقام النفسي.

وأخــيراً نقول: إن الحال هو المقام أيضاً، فهما متحدان في الذات، وكل منهما هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفاً بكيفية مخصوصة ولا يتغايران إلا أن الحال محددة بزمان ومكان والمقام بمعزل

---

[1]. المصدر السابق، ، ص **(256)**.

[2] . المقدمة – ابن خلدون، ص **(519)**.

[3]. العمدة في محاسن الشعر وآدابه– ابن رشيق القيرواني ، ج**1**، ص **(208)**.

[4]. منهاج البلغاء وسراج الأدباء– حازم القرطاجي، ص ص (**356**-**357**).

[5] . المصدر السابق، ص (**357**).

[6] . أيها الولد – الغزالي، المقدمة، ص (يز).

عــن الزمان والمكان، والفرق بينهما هو "فرق ما بين السكون والحركة أو بين المعيار والتطبيق أو بيــن الــنمط السلوكي والسلوك نفسه"[1]. أو بعبارة أخرى المقامات ثابتة والأحوال متغيرة فالإنسان يكــون دائمــاً في مقام واحد منها في حياته. أما "الأحوال فإنها عارضة تأتي وتذهب تاركة السالك متشــوقاً أبــداً إلى حال أعلى من تلك التي هو فيها".[2] ونخلص من معالجة فكرتي (مقتضى الحال/ والمقام) في المقولات المعرفية بعد الذي قلناه، إلى أن هذا المفهوم بدأ ضيقاً فاقتصر على المستوى الاجتماعــي للمتلقــي (السّامع) ومستواه العقلي ثم توسع ليشمل مقاصد المتكلم وانتهى إلى الاهتمام بحالــته النفسية والوجدانية. وغير خاف أن هذه الأقوال كانت قد أوضحت مفهومي (المقام والحال) وإن لم تعن بصياغة حد جامع مانع لهما.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المقام لدى المحدثين

ودخــل المصــطلحان –بهــذه الدلالة كذلك– في كتب البلاغة واللغة العربية الحديثة واقتفى المحدثــون أثر القدماء في إبراز دورهما؛ يقول تمام حسان أنّ البلاغيين عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمون "ألف سنة تقريباً على زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي"المقام" و "المقال" باعتبارهما أساسين متميزيــن من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[3].

ويــتابع قائلاً: "إذا قال البلاغيون(مقتضى الحال): فالمعنى هو ما يتطلبه أحد الأنماط النوعية للمواقــف مــن رعايــة في الكلام، وهكذا يمكن للمرء أن يفكر في (أنواع)، من المواقف لكل منها

---

[1]. المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة – تمام حسان، فصول، م**7**، ع**3**–**4**،ابريل– سبتمبر، **1987**م، ص (**29**).

[2]. أيها الولد – الغزالي ، المقدمة ، ص (يح).

[3]. اللغة العربية معناها ومبناها– تمام حسان، ص (**337**).

مطالـــب أســـلوبية معيـــنة[1]". ويتساءل نهاد الموسى إلى أي مدى جعل النحاة العرب محيط "الحدث الكلامـــي" و "ســـياقه" والمتغـــيرات الخارجية، التي تكتنف مادة الكلام "أصلا" في وصف الظاهرة الـــنحوية وتفســـيرها؟ فهو قصد في دراسته أن يستطلع في تراث الدرس النحوي هذا الأصل". فهو يـــراه مستأنســـاً لديهـــم باطراد مستشعراً في تحليلاتهم على نحو يُمثل استخراجه إحياءً لأصل من أصـــولهم صدوراً عنه وإن لم يصرحوا به تصريح اللسانيات الاجتماعية والحقول الملابسة لها في هذه الأزمنة[2]. ونبّه محمد العمري إلى أهمية فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية بوصفها "عـــنواناً للعلاقـــة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب وإن لم يهتموا كثيراً بالدراسة النفسية والأخلاقـــية للمرسل والمتلقي حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال، ملاحظات كثيرة فيما ينبغـــي للخطيـــب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين"[3]. ورأى سعد مصلوح في فكرة (مقتضـــى الحال) عند السكاكي"مشروعاً طيباً يمكن الانطلاق منه وإعادة النظر فيه لصياغة طراز يتسم بالدقة والشمول، في ضوء نظرية الإبلاغ الأدبي، واللسانيات النفسانية والاجتماعية[4]" كما أنه في معرض دعوته إلى الانتقال بالعربية من نحو الجملة إلى نحو النص، رأى في علم المعاني نوعاً من النحو المقامي، ومن ثم دعا إلى إعادة النظر في "صيغ النحو المقامي في البلاغة العربية، فهي أوثـــق صور النحو القديم عروة بنحو النص[5]". وأما محمد صلاح الدين الشريف ففي سياق تقديمه للاتجـــاه البراغماتـــي، ذكر مجموعة من المدارس النحوية التي تلتقي مع أوستن في دراسة التعامل داخل المؤسسة اللغوية في إطار اجتماعي عام، ومنها البلاغة العربية وبدراستها للإنشاء والخبر في بـــاب علـــم المعانـــي[6]" و"لا تواصل ممكن إذا كان الخطاب مجرد تراكم لعبارات لغوية لا ينتظمها جـــامع مقامـــي"[7] فبنـــية العـــبارات اللغوية تعكس إلى حد بعيد المضامين التي تحملها والأغراض

---

[1]. المصطلح البلاغي في ضوء البلاغة الحديثة –تمام حسان، مجلة فصول، م**7**، ع**3**،**4**، إبريل، سبتمبر **1987**م، ص (**29**).

[2]. منزلة السياق في نظرية النحو العربي – نهاد الموسى، ضمن كتاب الصورة والصيرورة : بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، ص ص (**121**) ، (**125**).

[3]. في بلاغة الخطاب الإقناعي- محمد العمري، ص (**18**).

[4]. مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية- سعد مصلوح، ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ع**59**، المجلد، الآخر، النادي الأدبي الثقافي بجدة، **1990**م، ص (**865**).

[5]. العربية من نحو الجملة إلى نحو النص- سعد مصلوح، ضمن الكتاب التذكاري لجامعة الكويت (دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون إعداد وديعة طه النجم، عبده بدوي، **1990**م، ص (**427**).

[6]. تقديم عام للاتجاه البراغماتي- محمد صلاح الدين الشريف، ضمن كتاب (أهم المدارس اللسانية) المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، **1986**م، ص ص (**97**-**98**).

[7]. مبدأ الوظيفية وصياغة الأنحاء- أحمد المتوكل، مجلة المناظرة ، س**2**، ع**3**، (**1410**هـــ- **1990**م)، ص (**39**).

التواصـــلية التـــي تحققهـــا فـــي طبقات مقامية معينة[1]، ولا يعرف مستعمل اللغة الطبيعية ما يقوله فحســـب، بـــل يعـــرف كذلك كيف يقول ذلك لمخاطب معين في موقف تواصلي معين قصد تحقيق أهـــداف تواصـــلية معينة[2]، كما يقول أحمد المتوكل. وأول مبدأ من مبادئ انسجام النص عند محمد خطابـــي هو "السياق" / "المقام" الذي يشكل من تشابك فضاءات عديدة تؤدي دوراً فعالاً في تأويل الـــنص كالمـــتكلم والسامع والزمان والمكان[3]. وما المقامات عند حمادي صمود إلا "جملة الظروف الحافة بالنص بما في ذلك السامع"[4] وأخيراً يقول محمد مفتاح: "كلما راعى المنتج للخطاب مقامات الخطاب كان أقرب إلى الإقناع وإلى الإمتاع[5].

في النهاية علينا بعد كل هذه الأقوال والتعريفات أن لا نغلق أعيننا بعد الآن أمام نظرية المقام، فهـــي تأشـــيرة المرور إلى الإمتاع والإقناع ومن ثم الفعل والتغيير، فقد طبقها الغرب في مناهجهم اللغويـــة وتحلـــيلاتهم الأدبـــية فحصلوا على نتائج في هذا المجال؛ أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبـــي، ووضـــعت مقاييس جديدة لشرح الكلمات وفهمها وقدّمت وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمـــات. وبالتالي فنحن نستطيع تطبيق هذه النظرية في مناهجنا اللغوية والأدبية والبلاغية.. فهي ســـتوفر لنا معايير ومقاييس تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكماً صحيحاً[6] وستساهم في بناء تلق جديد ومثمر للخطاب العربي وللثقافة العربية بمختلف تفرعاتها، وعندها سنصنع لأنفسنا محطة هامـــة علـــى صعيد القول البلاغي، علاوة على أنّ الوعي بهذه النظرية سيضعنا على الطريق من جديد، ومنها على مشارف أفق علوم الاتصال الجديدة وعندها سنكتشف أن عدم تواصلنا في عالمنا الحاضر هو بسبب غياب محددات مقامية كان لا بد من مراعاتها.

---

[1]. المرجع السابق، ص (**37**).

[2]. التمثيل الدلالي التداولي في النحو الوظيفي من بنية خطية إلى بنية متعددة الطبقات- أحمد المتوكل، مجلة المناظرة، س **3**، ع**5**، **1992**م، ص (**8**) .

[3]. لسانيات النص- محمد خطابي، ص ص (**52-56**).

[4]. التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس – حمادي صمود، ص (**302**).

[5]. بعض خصائص الخطاب- محمد مفتاح، علامات، ج**35**، مج **9**، (**1420**هـــ -**2000**م)، ص (**30**).

[6]. دور الكلمة في اللغة – أولمان، ص (**67**).

!+

المقولات البلاغية في ضوء نظرية المقام

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

* علم المعاني:

مقام التلقي – مقام العقل

* علم البيان:

مقام المتكلم – مقام التأثير – مقام العاطفة

* علم البديع:

مقام تحسين الكلام وتزيينه

أولاً: علم المعاني:

- مقام التلقي
- مقام العقل

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانياً: علم البيان:

- مقام المتكلم
- مقام التأثير
- مقام العاطفة

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثاً: علم البديع:

- مقام تحسين الكلام وتزيينه

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المقولات النحوية في ضوء نظرية المقام

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

#+

المقولات النقدية في ضوء نظرية المقام

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

لكل مقام مقال

من لطائف الأحاديث والأمثال والنكت

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تجليات نظرية المقام في الخطاب
بين

المثل والنكتة وكتب التأديب

المثل: ثبات المقال وتحوّل المقام

النكتة: مقام المفاجأة أو مقام المفارقة

كتب التأديب: مقام العبارة التأديبية

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

%+

تعليم اللغة مقامياً

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

M

مفهوم البراغماتية **ونظرية المقام**
في
المقولات المعرفية ولدى علماء العربية

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المثل

ثبات المقال وتحوّل المقام

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

النكتة

مقام المفاجأة أو مقام المفارقة

كتب التأديب

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

مقام العبارة التأديبية

ماذا يمكن للبراغماتية المقامية أن تهب خطابنا ؟

هل تستطيع البراغماتية المقامية أنْ تقود عمليات التغيير والتحديث في خطابنا المعاصر ؟

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إذا سارت في الناس مقولة : الأسلوب هو الرجل ، فقد تمثل الأوائل أن الإنسان هو الحديث، حديثــه الناطق عنه: "إنما الناسُ أحاديث، فإذا استطعتَ أن تكون أحسنَهم حديثا فافعل"[1]، كما قال الجاحظ. ويتجاوز الحديث عندهم دلالة العادي إلى مراقي الجمالي : لدى بشار ..

فكأن رجع حديثهـــــــــا قِطع الرياض كُسين زهرا

ثم إن الكلام عندهم هو "السلطة" كلما دق وجل دقوا معه وجلوا. بل هو الآلة التي يخرج الإنسان بها من حد الاستبهام إلى حد الإنسانية[2]. وكان الناس لا يزالون يؤمنون بسحر[3] الكلام ، وعظيم تأثيره ، وما يحدثه في نفس متلقيه، وربما غيرت كلمة أ وعبارة أو بيت شعر مجرى الأحداث وحولته من النقيض إلى النقيض فقد روي عن معاوية بن أبي سفيان قوله : كدت أفر من المعركة يوم صفين لولا تذكري لأبيات عمرو بن الإطنابة :

أبَتْ لي همّتي وأبى بلائـــي وكسبي الحمد بالثمن الربيــح
وإجشامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيــح
وقولي كلما جشأت وجاشـــت مكانك تُحمدَي أو تستريحـــي
لأدفع عن مكارم صالحـــات وأحمي بعد عن عرض صحيح

وكان البدوي يأتي بالسحر الحلال ، إن قال شعراً أو تكلم نثراً.

وقد قال النبي ﷺ في شعرائه الذين كانوا ينتصرون له "هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل". وقال لحسان بن ثابت : "اهجهم –يعني قريشاً– فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام"[4]. وقال للنابغة الجعدي : "لا يفضض الله فاك". وقال لكعب بن مالك :

---

1. البيان والتبيين – الجاحظ ، ج٢ ، ص (٧٥).
2. الرسالة العذراء – إبراهيم بن المدبر ، ص (٤٠).
3. لفظ "السحر" كان يقصد به إغراء الكلام أو القدرة غير العادية على أن يصرفك إليه دون أن يكون لذلك سبب واضح أو حجة مقنعة. ومن هنا يطلق لفظ السحر على كل ما يخلبك إليه دون أن تعرف سبباً للخلابة. ومن هنا .. كان لفظ السحر وثيق الصلة بالكلام .
   اللغة بين البلاغة والأسلوبية ، مصطفى ناصف ، ص (١١).
4. العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ص (٣٣).

"ما نسي الله لك مقالك". وقال لهيذان بن شيخ : "رب خطيب من عبس ". كما روي عنه قوله : "إن امرأ القيس بيده لواء الشعر"[1]. ولقد حير القرآن بكلامه وأسلوبه وصياغة ألفاظـــه رجالات قريش وساداتها ، قال الوليد بن المغيرة : والله "إنّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر"[2].

وألحّ أحد الخلفاء في طلب جليس يحدثه ، قائلا : "ابغني محدثا" وأن خليفة آخر قـــال : ".. فما أنا اليوم إلى شيء أحوجَ مني إلى جليسٍ يضَعُ عني مَؤونة التحفُّظ"[3]. وأن خليفة آخر سئل "أي الأمور أمتع : فقال "مذاكرة العلماء".

والأمر هكذا منذ تذوق العرب حلاوة الكلام الطلي وأساليبه المختلفة. فكانت هذه الأساليب ذات أثر عظيم في كلام العرب وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، فإذا بهم يأخذون بها وإذا بها تظهر في كلامهم. وإذ بهم يقفون أمام هذه الظاهرة يحاولون الكشف عن أسرارها، فيفسرون ظواهرها حيناً ويضبطون قواعدها حيناً آخر وهم في عملهم هذا يفتشون عن سر بلاغتها.

وابن خلدون يرى أن اهتداء الإنسان إلى تركيب طبقات الكلام على المقاصد والأغراض هو الذي يحرره من القيود الطبيعية التي تحوطه ، وكان قد نبه على اختلاف الأساليب باختلاف الزمـــــان ودعا إلى مطابقتها لمقتضى الحال، "فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه"[4].

فبغياب المقام وبدون معرفة المقاصد لا يمكن الاستدلال بكلام المتكلم على ما يريده، وإذا كان سر الكلام وروحه في إفادة المعنى، فإن كمال هذه الإفادة في البلاغة.

ونحن هنا إذ نشير إلى البلاغة العربية فإنما ذلك بقصد الإلماع إلى أن تراثنا البلاغي قد أشار بدقة إلى المقامية البراغماتية ، ونحن مطالبون هنا بتمثل عميق لهذه البلاغات ودراسة الأشكال البلاغية وما لها من أثر على المتلقي بالاستناد إلى المقام على اعتبار أنه الذي قد يمكننا من فهمها فهماً لغويا جمالياً تواصلياً وذلك عند محاولة تحديد موقعها لحظة الإلقاء أو الكتابة. فلا

---

1. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير ، م١ ، ص (٨).
2. دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني، ص (٢٤٩).
3. البيان والتبيين – الجاحظ ، ج٢ ، ص (٨٩).
4. المقدمة – ابن خلدون ، ص (٥٣٣).

بد من السعي إلى تمثل المقام الذي أنجبها وإبراز أبعاده وروافده ، هذا إذا أردنا أن تكون قراءتنا صحيحة وتفتح المجال على آفاق قرائية أخرى.

إن وعينا بالمقامات المنجبة لهذه البلاغات كفيل بأن يكشف لنا أسرارها. وسيكون محور تقريبنا للدلالات اللغوية المقامية بالتطرق إلى التراكيب اللغوية والأساليب البلاغية.

ولا مندوحة لنا عن لزوم ما قد يراه غيرنا غير لازم ، وهو اختيارنا الخاص لتعريف البلاغة ولعل الأقوال في تحديد معنى البلاغة لم تبلغ من الكثرة عند أمة من الأمم ما بلغت في الأمة العربية[1] لكن أكثر التعاريف دوراناً وأدناها إلينا اختياراً هو أنها "مطابقة الكلام لمقتضى

جميع الحقوق محفوظة

1. قيل في البلاغة أقوال وأقوال على تعاقب الأزمان والأجيال ، حتى استوت علومها ، واستقرت مصطلحاتها عند متأخري البلاغة وقد مدحها كل قوم بأوضح عباراتهم وأحسن بيانهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغة "تخير اللفظ في حُسن إفهام إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب. الرسالة العذراء ، إبراهيم بن المدبر ، ص (٤٧-٤٨). وقال علي بن أبي طالب : "البلاغة إيضاح الملتبسات ، وكشف عوّار الجهالات ، بأسهل ما يكون من العبارات". كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص ص (٥١ ، ٥٢).

وسئل صُحار بن عياش العبدي (٤٠هـ) ما هذه البلاغة التي فيكم؟؟ قال : "شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا". البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج١ ، ص (٩٦).

ويقول أبو هلال العسكري : "البلاغة قول مُفقه في لطف" وفسره قائلاً : "فالمفقه : المُفهم ، واللطيف من الكلام : ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوبَ المستوحشة ، وتلين به العريكة الأبية المستصعبة ويُبلغ به الحاجة ، وتقام به الحجة ، فتخلص نفسك من العيب ، ويلزم صاحبك الذنب ، من غير أن تهيجه وتقلقه ، وتستدعي غضبه ، وتستثير حفيظته". الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص٥١.

وسئل ابن المقفع ما البلاغة ؟؟ قال : "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخُطباً ومنها ما يكون رسائل ..". البيان والتبيين ، ج١ : ص ص (١١٥ ، ١١٦).

وقال عبد الحميد الكاتب عن البلاغة "هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة" وقال : "لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب".

وجاء بصحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) قوله : ".. أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة ، إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة ، إن كنت للعامة ، أردت. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك و بلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة ، التي لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام". البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج١ ، ص(١٣٦).

ولقد سئل الكندي (٢٥٨هـ) ، عن البلاغة فقال : ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفة العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدهما.. العمدة (٢٤٧/١).

وعقب ابن قتيبة (٢٧٦هـ) على ما نقله من قول ابرويز لكاتبه : "واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" بقوله : "يريد الإيجاز. وهذا ليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب. بل لكل مقام مقال. ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن. ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام". أدب الكاتب ،ابن قتيبة ، ص(١٩).

وقال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير ، يشتمل على معنى خطير. وقول الآخر : البلاغة علم كثير في قول يسير. الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص (٣٧).

ولقد خصص ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ) بابا للبلاغة ، جاء فيه بكثير مما قيل فيها فقال : البلاغة إصابة المعنى وحسن الإيجاز. وقال آخر : معان كثيرة ، في ألفاظ قليلة. وقال : "وقيل لبعضهم : ما البلاغة : فقال : إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة". وقيل : البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة. العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ص ص(٢٤٤-٢٥٢).

فإذا وقفنا على هذه الأقوال في البلاغة رأينا أن كل هذه الأقوال تنصب في قالب واحد أن "البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" وأكثر البلاغيين كلوا قد اتخذوا من هذا التعريف للبلاغة مصطلحا لها ودخل في كتب التعريفات والمصطلحات ، يقول الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) "البلاغة في الكلام : مطابقته لمقتضى الحال – المراد بالحال الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص- مع فصاحته ، أي : فصاحة الكلام". التعريفات ، الجرجاني ، ص٤٠.

ودخل المصطلح بهذه الدلالة في كتب البلاغة العربية الحديثة.

ونلاحظ في الأقوال السابقة في البلاغة أن المتلقي كان حاضرا والاهتمام به متزايدا ومطردا وكانت العناية بالمتلقي وبطبقته ومستواه فائقة وكبيرة وعلى أساس من هذه العناية تنهض نظريات كثيرة مثل نظرية المقام. وهذا مما سنتبينه في هذا الفصل بوضوح أكثر.

الحال مع فصاحته"[1].

وهنا تلتقي في –تأويلنا – علوم البلاغة الثلاثة (المعاني ، البيان ، البديع) فإن كثيراً من الناس يرون هذا التعريف يختص بعلم المعاني ، فالكلام لا يتضح المراد منه ما لم نعرف المقام الذي يلقى فيه المقال ومعرفة حال المتكلم وحال المتلقي.

وتبدو براعة بلاغيي العربية القدامى في دراساتهم حول تفسير هذه العبارة وفهمها كي تشمل علمي المعاني والبيان بل علم البديع أيضاً. ففي ضوء هذه العبارة عولجت جل موضوعات البلاغة وفنونها وترسخت أهم المقاييس والمعايير البلاغية والنقدية.

فالمطابقة لمقتضى الحال تقتضي أسلوباً يؤديها ، فإذا كانت دلالات الألفاظ في هذا الأسلوب وضعية على حسب عُرف اللغة فقط اختصت هذه العبارة –مطابقة الكلام لمقتضى الحال– بعلم المعاني. وأما إذا كانت تلك الأساليب التي تؤدي تلك المطابقة مما تتدخل فيها الصنعة العقلية بحيث تختلف وضوحاً وخفاءً فإن العبارة تشمل علم البيان ، إذ تختلف فيه مستويات الأساليب بين الارتفاع والهبوط حسب حظها من الوضوح والخفاء من حقيقة أو مجاز ومن تشبيه أو استعارة أو كناية –ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بمعونة المقام–. إذ تتفاوت رتب الأساليب البيانية ، وما كل إلا له مقام يخصه يعرفه أهل البلاغة.

بل إن الأمر يشمل ما هو أكثر من ذلك وهو دراسة علم البديع. وهو علم باحث عن التراكيب العربية من حيث وجوه تحسين الكلام وتزيينه بالحسن العرضي بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على المرام بعد كمال الإفادة.

فموضوعه : اللفظ العربي من حيث التحسين والتزيين العرضيّان.

وغرضه : تحصيل ملكة تحلية الكلام بالمحسنات العرضية.

وهو مقام مطلوب ليحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع ، وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفـــادة.

والذي نراه هنا أن ما يميز خطابنا البلاغي هو بالضبط ربط المقال بالمقام. ومنه تأتي أهمية الدراسة المقامية لعلم البلاغة ؛ فهو أخص علم يدرس جدلية الكلام بمقامه على مستوياته

---

1. الإيضاح في علوم البلاغة – القزويني ، ج١ ، ص (٨٦).

الثلاثة. وبأن كل ما تقتضيه الأحوال وتدعو إليه المقامات من الأساليب والعبارات هو من صميمه. وهذا ما سنتبينه في الصفحات القادمة.

والسبب الحقيقي وراء اعتناء البلاغة بالمقام في تعبيرهم الفني هو أن علوم البلاغة الثلاثة –من وجوه فن التواصل– تهتم بكيفية بناء الكلام ودخوله محراب العملية الإيصالية. فدور البلاغة ينصب في هذا الاتجاه حيث يركز علم المعاني على الجانب الإيصالي منها ، فيقدّر أبو هلال العسكري أن : "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[1]. ويرى الرماني أنها "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ" [2]. ويركز علم البيان على الجانب الكشفي من البلاغة ، ويرى عبد القاهر الجرجاني في البلاغة "أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له" ويركز علم البديع على جانب تحسين الكلام وزخرفته وإيقاعه لتجذب الأسماع والقلوب.

والدرس البلاغي العربي يتفق من هذه الزاوية وفيها مع الدرس البلاغي الغربي ، فلقد بات من المعروف أن مخطط التواصل الذي وضعه "جاكوبسون" يقوم على ستة عناصر أساسية هي : المرسل ، والمتلقي ، والرسالة ، والسياق ، وقناة الاتصال ، والشفرة.

ويمثل "جاكوبسون" هذه العناصر بالمخطط التالي :

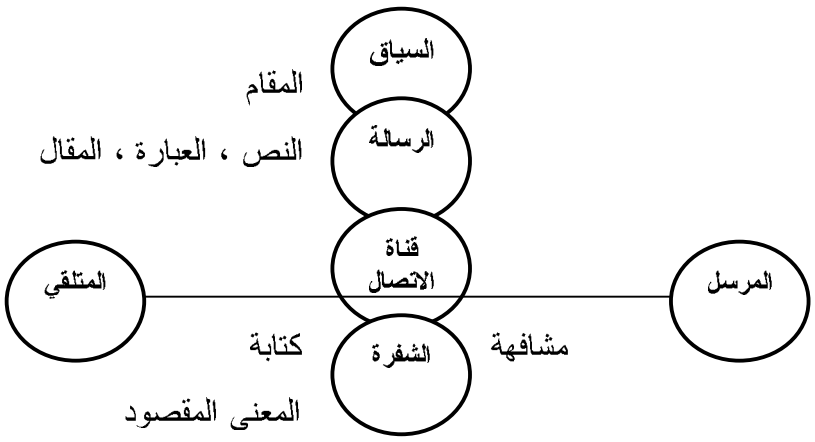

1. الصناعتين – أبو هلال العسكري ، ص (١٠) .
2. النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز – الرماني، ص (٦٩).

فالسياق هنا هو المقام، والرسالة هي المقال أو النص أو العبارة ، وقناة الاتصال هي المشافهة أو الكتابة ، والشفرة هي المعنى المقصود. ومن هنا يمكننا تحديد البلاغة بأنها "عمل المتكلم على إيصال الشفرة إلى السامع بواسطة رسالة منطوقة خلال قناة اتصال مسموعة في مقام معين"[1].

وهكذا فالبلاغة نظرية في الكشف والإيصال والتأثير تعبر عن محصلة كبيرة من استراتيجيات ومبادئ في الإيصال وأنماط رسمية لاستخدامها يطبقها كل من المتحدثين والمستمعين ، حتى يتم التفاعل بينهما بنجاح، وتتحقق أهداف الاتصال في مقامات متعددة وظروف مختلفة بشكل فاعل بكفاية[1] ، وهذا هو أساس البراغماتية.

وهذا يقودنا في النهاية إلى قراءة البلاغة مقامياً لتصبح علماً عاما للخطابات كافة ، من أجل تحقيق التواصل الاجتماعي. ويصبح خطابنا براغماتياً بلا خطايا!

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

علم المعاني :

1. المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة – تمام حسان ، مجلة فصول ، م٧ ، ع ٣، ٤، إبريل ، سبتمبر ، ١٩٨٧م، ص (٢٧).

يقول السكاكي : "اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[2].

فعلم المعاني قائم على مراعاة المقام فهو يعتمد بكل جزئياته على دراسة هذه المراعاة وكيفية توفيرها في الأسلوب ليصل إلى درجة الجودة والإتقان. والمعاني التي اهتم بها البلاغيون هي الظروف والملابسات التي تحيط بالسامع ، حيث تستدعي هذه الظروف طريقة خاصة في التعبير وتأليف الجملة.

فالحالة التي يكون عليها السامع تقتضي أسلوباً معيناً دون غيره. وهذا يوضح أن كل أسلوب أو كل شكل لغوي يناسب مقاماً خاصاً وذلك تطبيقاً لمبدأ : "لكل مقام مقال". فلمقام التوكيد مقال ، أي نوع خاص من الأسلوب ، ولمقام مجرد الإخبار مقال وهكذا. ومقامات الكلام كثيرة ومتفاوتـــة : فإلى جانب مقام الحذف ومقام الذكر ، ومقام التقديم ومقام التأخير ، ومقام التعريف ومقام التنكير ، هناك مقام التشكر ، ومقام الشكاية ، ومقام التهنئة ، ومقام المدح ، ومقام الذم ومقام الترغيب ومقام الترهيب ، ومقام الجد ، ومقام الهزل ... ثم هناك مقام الكلام مع الذكي وهو غير مقام الكلام مع الغبي؛ إذ قد يكفي الإيجاز مع الأول في حين يحتاج الثاني إلى الإطناب. وهناك من مقامات الكلام ما يقتضي الوصل بين الجمل والعبارات بحرف العطف وما أشبهه ، وهناك ما يقتضي الفصل بينهما بوسائل الفصل. فكل أسلوب من هذه الأساليب المتعددة حالة تتطلبه وتستدعيه يكون أعلق بها وأليق بالمعنى من غيرها وأقدر على التعبير عنها. وأخيراً "فلكل كلمة مع صاحبتها مقام"[٣] "ولكل ذلك مقدار من الشُّغل".[٤]

أولا : مقام تأكيد الكلام :

فحين يقتضي المقام –على سبيل المثال– تأكيد الكلام، يؤكده بما يناسبه ، فقد يؤكده بمؤكد واحد ، أو بمؤكدين أو ثلاثة. فالتأكيد فيه لا يأتي سدى.

1.Seven Sins of Pragmatics, by Dorothea Franck, in Possibilities And Limitations Of Pragmtics, by Herman Parret, P. (233).

2. مفتاح العلوم – السكاكي، ص (٢٤٧).

[3] . الإيضاح في علوم البلاغة– القزويني، ج١، ص (٨٦).

[4] . البيان والتبيين – الجاحظ، ج١، ص (٩٣).

فمن كان خالي الذهن من كلام معين غير متردد ، ولا شاك ولا جاحد ولا منكر يخاطب بأسلوب خال من المؤكدات ، فيقال مثلا "الصيام مفيد".

ومن كان متردداً أو يتلقى الكلام بشيء من عدم الرضا أو الاقتناع يساق إليه الكلام بأسلوب التأكيد ، فيقال : "إن الصيام مفيد".

ومن كان منكراً للأمر ، رافضاً له ، غير معترف به يخاطب بأسلوب يحمل أكثر من علامة تأكيد فيقال له : "إن الصيام لمفيد" ، أو "والله إن الصيام لمفيد".

وقد ورد في الإتقان أنه إذا اجتمعت "إن" و"اللام" كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات لأن "إن" أفادت التكرير مرتين ، فإذا دخلت اللام صار ثلاثا. وورد فيه أيضا أن ابن جني قال : كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى[1]. والقرآن الكريم يراعي هذا المقام حق رعاية. ففي مقام الفزع والخوف والاضطراب يقول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ **قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى**﴾ [2] يؤكد الكلام له "بإن" و "الضمير" تأكيداً يبعث الاطمئنان والثقة بمعية الله سبحانه وتعالى. وتقرير غلبة موسى عليه السلام إذ هو في حاجة إلى ذلك فجاء الكلام موافقاً لحاله.

ومن ذلك ما نجد في قول إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ **قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ** ﴾ [3] استعظاماً وتعجباً من حالهم لعدم معرفته مع ترددهم عليه ، ولذلك ساغ أن يأتي تعبيرهم مؤكداً مراعاة لحالهم في تلك اللحظة.

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)** ﴾[4].

فيتفاوت التأكيد في الكلام بحسب حال الداعي ، فبعد أن كذب أصحاب القرية الرسولين خاطبهم الثلاثة فقالوا : ﴿ **إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ** ﴾ فأكدوا لهم الكلام "بإن" و"اسمية الجملة"، ولما اشتد

---

1. الإتقان في علوم القرآن – السيوطي ، ج٢ ، ص ص (٨) ،(٨٥).
2. سورة طه : (٦٨).
3. سورة يوسف : (٩٠).
4. سورة يس : (١٣ – ١٦).

الإنكار قالوا لهم : ﴿ **رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾، أكدوا الكلام "بإن" و"اللام" و"اسمية الجملة"، فكثرت التأكيدات لمبالغة المخاطبين في الإنكار.

فمن الواضح هنا أن المقال أو الخطاب على قدر السامع لا المتكلم أي على وفق حال المتلقي ، و "هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ويستكشف فيه المقام من خلال المقال"[1]. وبناء على هذا نرى أن التركيب اللغوي يساعد كثيرا في معرفة المقام الذي أنجبه وفي معرفة حالة المتلقي عندها.

فلو أخذنا التركيب السابق ذكره : ﴿ **إِنَّا إِلَيْكُم مرْسَلُونَ** ﴾ أدركنا أن المتلقي متردد لأنه خوطب بأسلوب التأكيد. أما التركيب ﴿ **إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ** ﴾ فإننا نخرج منه بإنكار المتلقي للأمر ورفضه له ، لأننا خاطبناه بأسلوب يحمل علامتي تأكيد. ولعرفنا أن المقام في مثل هذه التراكيب مقام تأكيد الكلام.

فالشكل اللغوي أو الأسلوب اللغوي أداة الحالة إلى الظهور ، وأحسن الأشكال وأوفقها هو الشكل الذي تتخطاه إلى حالته، فما عمل الأشكال إلا أن تساعد الحالة على الظهور وترسمها بريشة دقيقة.

لكننا ندرك في الوقت نفسه أن بعض التراكيب يعجز المتلقي أن يحدد مقامها ، مثال ذلك عبارة : "أنا خائف".

فالســؤال الذي نطرحه هنا : هل يستطيع تركيب هذه العبارة أن يدلنا على مقامها ؟ نقول : يتعذر علينا أن نعرف مقامها من خلال تركيبها. فمعنى هذه العبارة فضاء مفتوح على كل القراءات لأن مقامها غير معلوم ، فممكن أن يكون مقام خوف: فتكون صرخة تعبر عن خوف أو مقام سخرية أو مقام شك ... فلا توجد حدود فعلية وعملية لقدرة المتلقي على تخيل مقامات هذه العبارة، فالقراءة مفتوحة لمثل هذه العبارة غير أن السؤال الصحيح هنا: ما هو المقام الذي ترد فيه مثل هذه العبارة ؟ لأن معنى هذه العبارة إنما يتحدد بالمقام الذي قيلت فيه.

ونظيرها عبارة "الحمد لله" فما المقامات التي يمكن أن ترد فيها هذه العبارة ؟

---

1. الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة ، سعد مصلوح ، عالم الفكر، م٢٠ ، ع٣ ، ١٩٨٩م، ص (١١٩).

- مقام المرض ؛ فأنت تسأل إنساناً –كان مريضا– فتزوره بعد شفائه ، فتقول : كيف حالك؟ فيقول : "الحمد لله". وهذا يعني أنه شفي من مرضه ، وشعر بالعافية ، وأحس بحلاوتها بعد المرض.
- مقام الحزن أو مقام الظلم ؛ فتسأل هذا الإنسان –وهو مظلوم أو محزون لسبب من الأسباب– كيف حالك؟ فيجيب : "الحمد لله". وهذه العبارة تعني : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.
- مقام الصلاة ؛ يقف هذا الإنسان أمام الله خمس مرات في اليوم والليلة ، فيقرأ سورة الفاتحة في الصلوات الخمس سبع عشرة مرة (إن اكتفى بالفرائض) ، وفي كل مرة يفتتح القراءة قائلا : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ، وكيف لا يحمده وقد هداه إلى أقوم السُّبل ، وأكرمه بالنبي الكريم وبالقرآن الكريم.

ولقد توصل الغزالي إلى أثر المقام في تحديد المعنى : فإذا قال المتكلم (السلام عليكم) ، فإن المعنى المفهوم من هذا الكلام يكون حسب المقام الذي يستخدم فيه ، فقد يكون المقصود التحية وقد يكون الاستهزاء أو اللهو[1].

وقد تعني الوداع إذا قيلت من زائر لضيفه يهم بالخروج قائلا إياها. وقد تعني الغضب إذا قيلت لمجموعة من الأصدقاء يتحدثون معا لم يعجب أحدهم الحديث ، فيطلب منهم تغييره فلا يعيرونه انتباهاً ، عندئذ يقول هذه العبارة مغاضبا إياهم.

وقد تعني الاستنكار عندما تقال من قبل صديق لصديق عُرف عنه الخلق السويّ ورفضه الجلوس في بعض الأماكن كالسينما والمقاهي. فيمر يوما ما بباب المقهى فيلمح صديقه فيطرح عليه هذه التحية مستنكرا عمله.

وقد تفيد الممازحة والإضحاك كأن تناغي الأم ابنتها بعبارة التحية ترمي إلى الإضحاك.

أما سؤالهم: كم الساعة الآن؟ فيقال عادة للاستفهام عن الوقت، وقد يُفهم منها في مقام آخر معنى غير ذلك، فحين يقولها رئيس لموظف عنده قد تأخر عن موعد الحضور، فإنها تدل على تأنيبه،

1. المستصفى من علم الأصول – الغزالي ، ص (٣٩).

ولفت انتباهه إلى وجوب التقيد بموعد الحضور المحدد. وقد تدل في مقام آخر على السخرية والتهكم.

ثانياً : مقام التنكير :

قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً** ﴾ [1] في هذه الآية جاء التنكير في مفردة "يوما" ، بما يناسب حالة المبالغة والتهويل في شأن ذلك اليوم الذي يأخذ تصوره في النفس كل مأخذ لجسامة أحداثه ، وشدة أهواله. وهذه الصورة من الفزع النفسي لم تكن لتكون على هذا النحو من الجسامة لو جاءت المفردة على صورة التعريف (واتقوا اليوم) لأن المعروف لا تُخشى عواقبه ، ومن ثم لا يجري التحذير منه لاجتناب عواقبه!

ومن التنكير الذي يلائم حال التعظيم تنكير "هدى" في قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِم**﴾ [2] فإنه يفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره فيما لو قلنا (على الهدى) كأنه قيل : على أي هدى كما تقول : "لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً"[3].

ومنه ما يناسب حال التكثير ، كما في قولهم : "إن له لإبلا ، وإن له لغنما" أي إن له كثيراً من الإبل والغنم ، وإن كثرة إبله وغنمه مما لا تمكن الإحاطة به. فلو عرفنا "إبل" "غنم" (الإبل ، الغنم) لما أفادتا معنى التكثير ، فجاءت الكلمتان نكرتين على وفق ما يقتضيه المقام.

---

1. سورة البقرة : (١٢٣).
2. سورة البقرة :(٥).
3. الكشاف– الزمخشري ، ج١ ، ص (١٦٠).

ثالثاً : مقام التعريف :

ومن أمثلته :

١. تعريف المسند إليه بالموصولية ما يناسب حال الغرض المسوق له الكلام نحو قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾[1] فالغرض المسوق له الكلام هو بيان نزاهة يوسف عليه السلام وبُعده عن خطيئة الفحشاء. وما ذكر من اسم الموصول وصلته أشد تحقيقاً وتقريراً لتلك النزاهة مما لو قيل "امرأة العزيز" أو "زليخا". وذلك لأنه إذا امتنع عن الفحشاء مع كونه في بيتها مما يجعل لها المقدرة والسيطرة عليه –كان في غاية النزاهة والطهارة باطناً وظاهراً.

ومنها ما يكون لمناسبة حال التفخيم والتهويل ، نحو : ﴿ **فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** ﴾[2] فإن الإبهام في "ما غشيهم" فيه من التفخيم والتهويل ما لا يخفى ، وذلك لما فيه من الإشارة إلى أن تفضيل الذي غشيهم تقصُرُ عنه العبارة. ومثله قوله تعالـــــى : ﴿ **وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى** ﴾[3]

٢. تعريف المسند إليه بالإشارة ما يلائم حال التعظيم ، نحو قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً**﴾[4] يقول الزمخشري : تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها ، يعني التي سمعت بذكرها وبَلَغَكَ وَصفُها[5]. وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** ﴾[6] . يقول الزمخشري : "ذلكم إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو ربكم. وهو الذي يستحق منكم العبادة"[7].

---

1. سورة يوسف : (٢٣).
2. سورة طه : (٧٨).
3. سورة النجم :(٥٣).
4. سورة القصص : (٨٣).
5. الكشاف – الزمخشري ، ج٤ ، ص (٥٢٨).
6. سورة يونس :(٣).
7. الكشاف – الزمخشري ، ج٣ ، ص (١١٤).

٣. ومن تعريف المسند إليه "بأل" ما يتفق وحال إفادة كمال الوصف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ**﴾ [1]. يقول الزمخشري : "أي فأولئك الكاملون في العدوان المتناهون فيه"[2]. ومن هذا الغرض في تعريف المسند إليه قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**﴾ [3] يقول الزمخشري : "أي قل إن الكاملين في الخســران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها ، وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم"[4].

٤. ومن تعريف المسند إليه بالإضافة ما يلائم حال تعظيم المضاف أو المضاف إليه. فتعظم شأن المضاف نحو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [5] . ففيه تعظيم لشأن العباد بأنهم عباد الله عز وجل. ومن تعظيم شأن المضاف إليه قولك : قصري بين المزارع – ففيه تعظيم لشأن المضاف إليه بأنه صاحب قصر.

رابعاً : مقام التقديم والتأخير :

ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ**﴾ [6]. فصورت هذه الآية حالة الحب الإلهي ، الحب الصادق المنزه عن المنافع وذلك من خلال تقديم "عندك" على "بيتاً". وهذا التقديم قد جسد حالة امرأة فرعون وشعورها فقد آثرت جوار الله على نعيم الجنان ، إذ لم تأت صياغة الآية على هذا النحو : (رب ابن لي بيتا في الجنة) . وهذا دليل على عظم المحبة وسموها. فهي في شوق للمنعم لا للنعم ، وللمعطي لا للعطاء.

---

1. سورة المؤمنون :(٧).
2. الكشاف – الزمخشري ، ج٤ ، ص (٢٢٠).
3. سورة الزمر :(١٥).
4. الكشاف – الزمخشري ، ج٥ ، ص (٢٩٦).
5 . سورة الإسراء : (٦٥).
6. سورة التحريم : (١١).

ويظهر ذلك أيضاً عند التأصيل لمقام الألوهية والعبودية ، قال الله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [1] حيث قدمت مفردة "إياك" على الفعل "نعبد". وهذا التقديم قد احتوى كثافة دلالية يناسب مقام الألوهية لا يمكن تحقيقها فيما لو جاءت الآية على مقتضى التركيب المألوف بتقديم الفعل على المفعول "نعبدك ونستعينك" فقد أفاد هذا التقديم للضمير "إياك" معنى الحصر ، أو القصر ، كما يقول البلاغيون ، بمعنى أن هذا التقديم قد قصر تحقيق العبودية والاستعانة على الله وحده دون سواه ، ولو لم يتم هذا التقديم لاحتملت الآية العطف عليها ، ومن ثم فإن العبادة والاستعانة قد تصرف لله سبحانه ولسواه !! وعلى هذا فصيغة الحصر ، أو ما كان حقه التأخير قد جلّت مفهوم الألوهية ومقامها ، وأن الله وحده هو المعبود والمستعان.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

خامساً : مقام الحذف والذكر :

يقول حازم القرطاجني : "إنما يحسن الحذف ما لم يشكل به المعنى ، لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون في تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفي بدلالة الحال عليه ، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها على الحال"[2]. وبهذا القول يكون الحذف في المقامات التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس ، ومنه قوله تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ فحذف الجواب "إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وتركت النفوس تقدّر ما شأنه ، ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك"[3]. ومنه في حذف المفعول به ما يناسب مقام التعميم مع الاختصار ، كقولك : "فلان يعطي ويمنع أو يضر وينفع" تريد إثبات الأفعال في عمومها له. ولو قلت : يعطي المساكين أو يعطي الذهب لكان في قولك قصر للعطاء على حالة مخصوصة. وكأنك ترد بذلك على من ينكر أنه يعطي المساكين، أو أنه يعطي الذهب، لا أنك تريد إثبات الإعطاء في عمومه وشموله ، وهو ما أردته بمدحك.

---

1. سورة الفاتحة :(٥).
2. منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني ، ص (٣٩١).
3. المصدر السابق، ص (٣٩١).

ومن ذلك حذف المفعول به ليناسب مقام البيان بعد الإبهام ويكثر ذلك في فعل المشيئة والإرادة. قال تعالى : ﴿ **فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [1] أي فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين. فإنه لما قيل "لو شاء" علم السامع أن هناك شيئا تعلقت به المشيئة ، لكنه مبهم. فإذا جيء بجواب الشرط صار واضحاً ، وهذا أوقع في النفس ويكثر حذف جواب الشرط للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف. ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ [2] أي لرأيت أمراً فظيعاً. وهكذا يأتي الحذف بما ويناسب مقام الشيء.

وتستعمل العرب الحذف للإيجاز والاختصار بيسير القول إذا كان المخاطب عالماً بمرادها فيه. وذلك كقوله –عز وجل–: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾[٣] حذف ما بعده لعلم المخاطب به، وإنْ كان تقديره: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته، لعذبكم بما فعلتم)

وفي الختام بقي أن نقول : إن علم المعاني والعناصر التي تتكون منها بنيته الداخلية كانت مدمجة مع موضوعات علم النحو حيث كانت تدرس على مستوى التركيب والإعراب ، كما على مستوى المعاني وخواص التركيب[٤].

وأن علم المعاني ليس المقصود به جلب القلوب بلطائف التعبير بل قبول العقول للأفكار الصحيحة. أما العلم الذي مهمته جلب القلوب بلطائف التعبير فهو علم البيان.

---

1. سورة الأنعام : (١٤٩).
2. سورة السجدة : (١٢).
3. سورة النور: (١٠).
4. سنأتي على ذِكر هذا الأمر بالتفصيل في الفصل الثاني.

علم البيان

يفترض علم البيان[1] أن بالإمكان التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة "وأما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[2]. ومحاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن.[3]

فما يعنيه البلاغيون هنا أن على المتكلم أن يختار من أساليب البيان ما يناسب الوفاء بمقصده ، وضوحاً أو خفاءً حسب ما يقتضيه المقام ، بسبب قصور الحقيقة عن إفهام المراد إفهاماً يناسب المقام فتمس الحاجة إلى استعمال الألفاظ في غير معانيها الوضعية ، لكون المطابقة لمقتضى الحال لا تتحقق إلا بهذه الأساليب.

فتتبع ورود المعنى الواحد في طرق مختلفة يكون في الدلالات العقلية ، مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث[4]. والدلالات العقلية تقوم على الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما. وعبد القاهر الجرجاني يتحدث عن هذه الدلالة وكيفية الوصول إليها ، ويبين لنا أن هناك ضرباً من الكلام لا نصل إلى الغرض منه بدلالة اللفظ وحده بل "يَدُلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض"[5]. فإذا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلاً، وقلت: خدٌ يشبه الورد، امتنع أن يكون كلامٌ مؤدٍ لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو أنقص، فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها؛ فالسامع، إن كان عالماً بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه منها كفهمه

---

1. علينا أن ننبه أن الأساليب البيانية والمجاز ليست محصورة في الشعر فقط وإنما في نسبة ضخمة من استخدام اللغة العادية.
2. مفتاح العلوم - السكاكي ، ص (٢٤٩).
3. المصدر السابق، ص (٤٣٧).
4. المصدر السابق، ص (٤٣٧).
5. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني، ص (١٧٣).

من تلك، من غير تفاوت في الوضوح، وإلا لم يفهم شيئاً أصلاً".[1]

وينتهـــي إلى القول : "... فها هنا عبارة مختصرة ، وهي أن تقول : "المعنى" و "معنى المعنى"[2]. تعني بالمعنى : المفهومَ من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة ، و"بمعنى المعنى" أن تعقـــل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[3].

ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل[4]. "أوَلا ترى أنك إذا قلت : هو كثير رماد القدر" أو قلت : "طويل النجاد" أو قلت في المرأة : "نؤوم الضحى"، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهرُه، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من "كثير رماد القدر" أنه مِضياف، ومن "طويل النجاد" أنه طويل القامة ، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها"[5]. والاستدلال على مقصد المتكلم وغرضه إنما يؤسس على مرجعية مشتركة بين المتكلم والمتلقي وليس استدلالاً حراً ، –فلا بد عندها من معرفة حال المتكلم وحال المتلقي ومقام المقال– فإذا لم يعرف المتلقي من قول المتكلم "فلان كثير رماد القدر" أنه مضياف ، أو يعرف من قوله عـــن امرأة إنها "نؤوم الضحى" إنها تعيش عيشة مترفة .. لم يتيسر له معرفة تلك المعاني الثواني ، وانتهى به الأمر عندئذ إلى الوقوف على المعاني الأوائل التي لا تتعلق بمطلب المتكلم ومراده.

فالجرجاني يطلب من المتلقي من أجل أن يفهم معنى المعنى أو المعنى الثاني لعبارة مثل "كثير رماد القدر" أن يكون محيطاً بالعلاقات غير اللغوية التي يتوقف عليها فهم المعنى الثاني. وهذه العلاقات ماثلة في أوضاع البيئة العربية البدوية ، حيث تقضي العادات عندهم بتقديم الطعام لضيفهم الوافد ، وحيث يكون طهو الطعام في قدور وذلك عندما تشب النار تحت القدور

---

1. مفتاح العلوم – السكاكي ، ص (٤٣٧).
2. يتأتى أداء المعنى والوصول إليه من طريقين : طريق نصل منها إلى الغرض من اللفظ مباشرة ، وطريق أخرى يستعمل فيها اللفظ في معناه مرادا بهذا المعنى معنى آخر ، ومتصرف هذه الطريق الأساليب البيانية المختلفة.
3. دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني ، ص (١٧٣).
4. المصدر السابق، ص (١٧٣).
5. المصدر السابق، ص (١٧٣).

في الحطب الذي ينتهي إلى رماد ، فيتكاثر الرماد نتيجة كثرة الطهو ، ويكثر الطهو لكثرة الضيوف[1] وهكذا.

فالمتلقي لا بد أن يلم ويحيط بكل هذه الأمور حتى يستطيع أن يدرك معنى الكرم في مثل تلك العبارة. وهذا هو المقام الحضاري الاجتماعي الذي لا يمكن أن تفضي العبارة إلى معناها الصحيح إلا في إطاره فقط.

والسؤال الذي يُطرح هنا أن مثل هذه العبارات "كثير رماد القدر" ، "تؤوم الضحى"، "طويل النجاد" التي قد تشتمل في أصلها على كنايات أو استعارات أو تمثيلات أو غير ذلك، ما هي إلا عبارات مبتذلة –من كثرة استخدامها– فهي قد ترددت على الألسن كثيراً فثبت لها معناها الثاني بالتواتر ، فلم تعد بالمتلقي حاجة إلى معرفة المقام الحضاري الاجتماعي لمعرفة معناها. وعندئذ لا تبرز أهمية الاتكاء على مثل هذا المقام في فهم المعنى الثاني لمثل هذه العبارات إلا عند الوقوف على عبارات بكْر. وهذا معناه أن مجرد معرفة المقام الحضاري والاجتماعي في مجتمع بعينه لا تكفي وحدها للوصول على المعنى المقصود خاصة عند مواجهة عبارات بكْر لم يبتذلها الاستخدام. عندها لا بد أن نأخذ في الاعتبار بعداً آخر هو المقام الذي قيلت فيه العبارة، أهو مقام مدح أو مقام ذم أو مقام سخرية ... وهذا البعد هو الضابط وصمام الأمان للوصول إلى المعنى المقصود من بين المعاني الممكنة.

فلو رجعنا إلى عبارة "كثير رماد القدر" وسألنا أنفسنا : كيف نستدل على المعنى الصحيح لمغزى كثرة الرماد؟؟

نجد الإجابة في قول الجرجاني حيث يقول : "أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم "هو كثير رماد القدر" ، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة ، لم تعرف ذلك من اللفظ ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت : إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد ، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تُنْصَب له القدور الكثيرة ، ويُطْبَخ فيها للقرى والضيافة. وذلك لأنه

1. دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجاني ، ص ص (٢٧٣–٢٧٤).

إذا كثر الطبخُ في القدور كثر إحراقُ الحطب تحتها ، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا مَحالة"[1].

ففي هذا النص إشارة واضحة إلى الكيفية التي يمكن أن نستدل بها على معنى الكرم في مثل تلك العبارة هو : مقامها الذي قيلت فيه وهو هنا مقام المدح.

فالمقام هو الذي سيقود المتلقي إلى أن يقفز عن المعنى الأول المباشر للعبارة –لأنه في مقام المدح لن يكون لكثرة رماد القدر في حد ذاتها أي معنى– إلى إدراك المعنى الثاني أو معنى المعنى– الكرم الذي يتفق ومقام المدح–.

إلا أننا نرى أن معرفتنا بالمقام الذي قيلت فيه تلك العبارة –مقام المدح– لا يعني أن معناها الثاني هو الكرم ، فقد تعني أن الشخص يعيش في حياة رفاهية –بالقياس إلى البيئة البدوية– فهو شخص غني ، وستعني كثرة رماد القدر عندئذ أن هذا الممدوح وأهله يأكلون الطعام المطبوخ دائماً فهم لا يأكلون القديد أو التمر أو يشربون اللبن. فتكون عمليات الطهو في القدور كل يوم حيث يحرق تحتها حطب كثير ينتج عنه رماد كثير.

ومثل هذه العبارة قد تدل على أن الشخص يعيش حياة معدمة إذا قيلت في مقام آخر –مقام السخرية– بل إن كثرة الرماد في حد ذاتها ربما كانت دليلا على القذارة وعدم النظافة في مقام الذم.

ومن جهة أخرى إن المعنى الثاني الذي يحكمه مقامه والظروف والملابسات التي كانت تحيط بالمتكلم والمتلقي ، معنى قابل للتعدد والتغير مع مضي الزمن لأن هذا المعنى في الأصل متولد من علاقة خاصة بين المتكلم والمتلقي وبين المدلولات (المعاني) وبين المقام الحضاري والاجتماعي والثقافي الذي تولدت فيه مثل هذه العبارات، فهذه العناصر جميعاً متضافرة وفي الوقت نفسه متغيرة مع مُضي الزمن. وقد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يَحْسُن في آخر ، ويُستَحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ويجد الشعراء تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله[2].

---

[1] . دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجاني ، ص (٢٧٤) ، وينظر: مفتاح العلوم – السكاكي، ص (٥١٥).
2. أدب الدنيا والدين – الماوردي، ص (٣٠٥).

فعبارة "كثير رماد القدر" في زماننا لن يكون المتلقي قادراً –في الغالب– على استنباط معناها الثاني –الكرم– في مقام المدح من خلال معاني ألفاظها لأن الكرم في زماننا لم يعد يجسّد فقط عن طريق تقديم الطعام للضيوف. بل إنّ لفظة "قدر" ولفظة "رماد" لا تُستخدمان في كلامنا اليوم لأن طرق وأدوات الطبخ عندنا متقدمة تقنيا".

فكـــل هذه الأقوال والأمور توصلنا إلى أن غاية الكناية، تحريك دوائر التفكير لدى المتلقي ، حيث لا ينبغي حصر هذه الدوائر في قوالب جامدة وإنما يتحرك فيها المتلقي ويتدرج من لحظة إلقاء القول إلى لحظة الوصول إلى المعنى المقصود، وهو معنى مفتوح غير مقيد وغير محدد لأن عملية التقييد تعني إلغاء دوائر التفكير وبالتالي الانتقال من اللفظ إلى معناه المباشر مما يفقد الكناية قيمة الغاية التي تتحقق من خلال الوصول إلى المعنى المراد والتي تثير لدى المتلقي عدداً من الصور والإيحاءات التي يتدرج معها بحسه وعقله. وما يقال في الكناية يقال في غيرها من تشبيه واستعارة وتمثيل وإلى غير ذلك من الأساليب البيانية.

وهكذا نواجه مشاكل أساسية في طرق معالجة الأساليب البيانية من ناحية دلالية، ولعلّ هذا مسوّغ كافٍ لإدراج هذه الأساليب ودراستها في ضوء "المقام".

فالمقام هو المدخل الرئيسي في دراستها بشتى أقسامها وعلاقتها بالأشخاص المعنيين بالخطاب. وهو المفتاح الصحيح للكشف عن خصائصها. وبالتالي فعلى المتكلمين العمل على توظيف هذه الأساليب إذا ما أرادوا بناء أول جسور التواصل بينهم وبين متلقيهم لكن لا بد من طرحها بالأسلوب المناسب وبما ينسجم والمقام.

والأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المقام :

- هل يسعى البيان حقيقة إلى الإفصاح ؟؟
- وهل تكون الصورة المجازية أكثر وضوحاً من التعبير الحقيقي ؟؟
- بل ما الذي يدفع المتكلم إلى الخروج من منطق اللغة والوضوح بصور تنزاح عن الاستعمال الطبيعي للغة ؟؟

- هل الأساليب البيانية مفصلة على حدود المعنى تماماً وعلى الحالة الشعورية التي يمر بها المتكلم؟؟
- وهل أتى بها الكاتب أو الشاعر نتيجة وعْي منه أو لا وعْي؟
- وهل تخاطب الأساليب العقل ليفهم أم لينفعل ويتأثر ؟؟
- وكيف تحدد هذه الأساليب الأحوال والمقامات الاجتماعية والثقافية والحضارية ..؟؟

إن كل ما يتوخاه مستعمل اللغة من ضروب الأساليب البيانية إنما سببه دقائق المعاني التي في النفس ولطائف المقاصد التي يريد بلوغها باللفظ ، فلا معتبر إلا هذا وإلا كان تكثير الألفاظ ضوضاء صوتية لا يعتد بها[1] "فإذا اتفق ... تشبيه لا تتلقاه بالقبول أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ، ونقّر عن معناه ، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرْتَهَا عرفت فضل القوم بها وعلمت أنهم أدق طبعا ، من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته"[2].

فالهدف من الأساليب البيانية أو الصورة البلاغية ليس مجرد إقامة علاقات عقلية بين مشبه ومشبه به ، أو افتراض أقيسة منطقية بين حقيقة ومجاز. إن الصورة البلاغية وسيلة الشاعر أو الأديب أو المتكلم ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها بدونها ، فهي الوحيدة القادرة على تقديم المعنى الذي يرومه أو الحالة التي يعيشها ، بل هي المخرج الوحيد لشيء لا يُنال بغيرها أو هي ترتبط بمستوى التجربة الفنية التي يعايشها فتحتضن هذه المشاعر وتعايشها وتقدمها في قالــب جميل تعجز اللغة العادية أن تصل إلى مستوى هذه الأساليب[3].

باختصار هي أفانين التعبير عن الأحاسيس الكامنة في الصدور بواسطة الكَلِم، أو وجه من وجوه معاني القول.

---

1. النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم – حمادي صمود، المجلة العربية للثقافة ، ع٢٤ ، ١٩٩٣م، ص (٨٣).
2. عيار الشعر – ابن طباطبا ، ص (١٧).
3. تحليل الخطاب الشعري – أحمد الطريسي من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب، ص (٨٠).

وبهذا المعنى لا تصبح الصورة شيئاً هامشيا ثانويا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه وإنما هي وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق، أو لتحديد دلالة سيكولوجية خاصة[1] .

بالإضافة إلى أنها تمنح اللغة خصوصية إقامة علاقات بين الألفاظ جديدة تتميز بالتفرد ، وتصوغ المعاني بطريقة خلابة تستلذها الأنفس وتطرب لها الآذان.

وتتفاوت هذه الأساليب بتفاوت علوقها بالمقام والأحوال ، فالتفاوت بين الأساليب ليس تفاوتاً في بناء اللغة –وإنما احتياج– هو تفاوت في درجة التفكير ، وعمق الرؤية ، لهذا يشبهها عبد القاهر بالأصباغ التي يصنع منها الفنان صورته والنساج نسيجه[2].

إذ نجده مرة يشبه ومرة يلجأ إلى الاستعارة وثالثة يرمز ورابعة يعبر بالصورة. وكل هذه الأساليب لا يمكن أن نسند إليها فضلاً في كل كلام على إطلاقه، فالفضل نابع من المقام الذي ترد فيه ، وهو ما يحدد نسبية فضل كلام من جهة ، واستحالة تكرار المعنى نفسه في صور مختلفة لما تنطوي عليه كل بنية لغوية من خصوصية ، فلو أخذنا ، مثلا ، صيغتي التشبيه :

"زيد كالأسد" "وكأن زيداً الأسد" لوجدناهما تشتركان في أصل المعنى وهو تشبيه الرجل بالأسد ، إلا أن الصيغة الثانية أقوى في الدلالة لأنها حولت علاقة الشبة إلى علاقة تطابق وأوهمتنا بأن الرجل أسد في صورة آدمي"[3]. يقول حازم القرطاجني في هذا الأمر : "اشترك الكاف وكأنّ في الدلالة على التشبيه وكأنّ أبلغ". وقال : "وهي إنما تستعمل حيث يقوى الشبه ، حتى يكاد الرائي يشك في أنّ المشبّه هو المشبّه به أو غيره ، ولذلك قالت بلقيس (كأنه هو)"[4].

فما علاقة أداة التشبيه (الكاف) وأداة التشبيه (كأن) بالحالة النفسية والشعورية التي يكون عليها المتكلم والمعنى الذي يتشكل في ذهنه؟ وما الدوافع الكامنة وراء استخدامه أداة تشبيه بعينها ؟ وبعبارة أخرى هل يوجد علاقة ما بين الحالة التي يعيشها المتكلم والمعنى الذي يرومه واختياره أداة بعينها؟. "الكاف" في عبارة "زيد كالأسد" تفيد قرب المشبه من المشبه به لكنها لا

---

1. الصورة الفنية – جابر عصفور ، ص ص (٢٩٨–٢٩٩).
2. دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني ، ص ص (٦٤ – ٦٥) ، (١٦٨–١٦٩)، (٢٦٣)، (٢٦٩).
3. المصدر السابق، ص ص (٢٧٥–٢٧٦)، وينظر: التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس – حمادي صمود، ص ص (٥٢٦ – ٥٢٧).
4. مناهج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني ، ص (٣٩٠).

تفيد المبالغة، فالمشبه ظل مستقلا بذاته عن المشبه به ووقفت "الكاف" حاجزا شكليا ونفسيا بين طرفي التشبيه تقرب بينهما ولا تبالغ في العلاقة بين الأطراف. وهي عقدت "مقارنة بين هذين الطرفين دون أن تظهر علاقة "المتكلم" بهما وجدانيا وعاطفيا"[1].

أما أداة التشبيه "كأن" في عبارة "كأن زيداً الأسد" ، فإن وجودها يمثل مرحلة أكثر عمقاً في عملية التشبيه لوجود المشبه إلى جانب المشبه به دون فاصل بينهما؛ "إذ أن الكاف تقترن "بأن" التي تؤكد قوة العلاقة وخصوصيتها بين المشبه والمشبه به وتجمع بينهما في تركيب جديد يعكس عمق إحساس المتكلم بهما" [2] فلا يقصد بها مجرد مقارنة أو تدرج في المعنى أو تقريب في الوصف كما لاحظنا في التشبيه الذي اعتمد "الكاف". فالكاف لا تؤدي الغرض الذي تؤديه "كأن" من حيث قوة المعنى والدلالة عليه. "فكأن" مع التشبيه السابق جعلت المشبه قريبا من المشبه به حتى أن السامع يتوهم أنه الأسد بعينه. أما "الكاف" فإنها تباعد بينهما.

ومن هنا نلاحظ أن أداتي التشبيه "كأن" و"الكاف" ليستا على مستوى واحد في الدلالة فهُما تــرتبطان "بدلالات مختلفة تتوافق وإحساس المتكلم بعناصر التشبيه التي يشكلها، ومدى تأثره بها ، وعلاقته معها ، وأنه لا يمكن الفصل بين وضع الأداة في التشبيه ونوعها وبين إحساس المتكلم الداخلي بالتشبيه الذي يشكله"[3].

ويأتي اختيار الأسلوب وفق هذه العلاقة مما يفسر سبب إلحاح المتكلم على أسلوب بعينه. فالأساليب المختلفة تعني معاني مختلفة وأحوالا مختلفة ، فالمعنى يتغير بحسب تغير الأسلوب ، وكل ما يطرأ على المعنى من دقة واتساع يكون للأسلوب نصيب منه. "لأن هناك عبارة أحق بالمعنى من أخرى غيرها ، وعبارة ألصق بالمعنى من غيرها ، وهناك عبارة تمثل المعنى أمام العين أكثر من أخرى"[4]. وتبعاً لهذه الحالة ولطبيعة الإحساس بالمعنى تتنوع وسائل تقريرهم والمبالغة في إثباته فنجدهم يعبرون عن معنى الكرم –على سبيل المثال– بطريق التشبيه

---

1. المستوى الدلالي للأداة في التشبيه – خليل عودة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، م٣ ، ع١٠ ، ١٩٩٦م، ص (٧٣).
2. المرجع السابق، ص (٧٦).
3. المرجع السابق، ص (٨٠).
4. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان– إبراهيم سلامة، ص (٢٦٥).

فيقولون: فلان كالبحر في العطاء ، وهو كالبحر ، وهو البحر ، وبحر ، وكأنه البحر. وتارة عن طريق المجاز. مثل رأيت بحراً في منزل فلان ، ولجته تتلاطم بالأمواج ، وغمر الأنام بفضله.

أو عن طريق الكناية مثل : هو "كثير الرماد" و"جبان الكلب" و"مهزول الفصيل". أو عن طريق المجاز المرسل مثل : "له عندي أياد كثيرة". فالمعنى الواحد لا يقع في النفوس على حد واحد. وإنما يثير في نفوس من يرونه صوراً مختلفة باختلاف أحوال هذه النفوس واهتماماتها وما تمارس وتعايش في تجاربها. والأساليب السابقة تختلف درجاتها في تأكيد المعنى وأبلغيته.

فالتشبيه مع تنوعه في الدلالة أقل أبلغية من الاستعارة لقيامها على الادعاء والتأويل في إثبات المعنى. والاستعارة أبلغ من الكناية والمجاز المرسل في إثبات المعنى وتأكيده ، بل إنها تشكل المرتبة العليا في الأبلغية[1]، فالمتكلم يطور أساليبه البلاغية بما ويتناسب الحالة التي يعيشها والمعنى الذي يريده، فكلما كانت الحالة التي يعيشها المتكلم ناضجة وأكثر عمقا احتاج إلى جهد مضاعف حتى يُوفق في التعبير عنها ، فالتشبيه مستوى في الإدراك ، والاستعارة مستوى آخر متقدم ، والصورة مستوى ثالث ، والرمز مستوى رابع ، والأسطورة مستوى خامس وهكذا ... وهذا يفترض لغة فنية خاصة تشكل معنى وتفترض تجديدا مستمرا في التعبير يتغير بتغير الحالة الخاصة والمعنى الخاص. والذي أقصده هنا أن الحالة الخاصة التي يعيشها المتكلم أو الشاعر والتي يقف فيها وجها لوجه أمام الأشياء في العالم هي اللحظة التي تجعله يتحيز إلى التشبيه مثلا ولا يتحيز إلى الاستعارة أو يعبر بواسطة الرمز ، ولا يعتمد غيره من الأساليب البيانية الأخرى ، ومعنى ذلك أن كل عنصر من هذه العناصر وحدة خطاب قائمة بذاتها، واستخدام أحد هذه الأساليب في خطاب لا يأتي على حساب الآخر وإنما يلجأ إليها المتكلم عندما

---

1. تختلف الاستعارة عن المجاز المرسل والكناية في ظهور الانتقال بين المعنيين الأصلي والمراد. لأن الانتقال فيهما ظاهر عنه في الاستعارة لقرب المعنيين فيهما عنهما في الاستعارة. وتختلف الاستعارة عن التشبيه ، في أن التشبيه يقام فيه قران مباشر بين طرفين (المشبه والمشبه به).

أما الأبلغية في الاستعارة فناشئة من دعوى الاتحاد بين طرفين متباعدين بعدا راجعا إلى معنييه السابقين. خلافا للمجاز المرسل والكناية والتشبيه ، فنحن عندما نستعير الأسد للرجل الشجاع –مثلا– فإنه لا ينتقل الذهن من الأسد إلى الرجل الشجاع مباشرة ، كما أنه ليس انتقالا للزوم عقلي. لأن الذهن ينتقل من المعنى الحقيقي للفظ (أسد) إلى مفهوم الشجاع ومنه إلى معنى الرجل الشجاع. ففيه انتقالان : انتقال من المعروض الذي هو الأسد إلى العارض المشهور إنصافه به وهو الشجاعة. وانتقال من العارض وهو الشجاعة إلى بعض معروضاته الذي هو الرجل الشجاع اعتماداً على القرائن ، فالبعد بين المعنيين متحقق لكثرة مراحل الانتقال وكذلك لكون إطلاق الأسد على الشجاع من إطلاق ملزوم الشيء وإرادة ملزوم آخر لنفس هذا الشيء. ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – السبكي ، م٣، ٤، ص ص (٢٣٦-٢٩٦).

يشعر بالحاجة إليها في نقل تجربته الخاصة إلينا لعلّه يجعلنا نعيش تلك اللحظة التي عاشها بالأسلوب الخاص بـــه ، والذي هو قطعة من نفسه بل هو صورة عنها واضح بوضوحها ، مرتبك بارتباكها ، متعاظم بجزالتها ، مرح بموسيقيتها ، راقص بطربها وباك بغمها.

ومن هنا إن قيل: كيف تكون دلالة لفظ المجاز أوضح من دلالة الحقيقة ؟ بل المجاز مخل بالفهم. قلنا : لما كان المقام معروفا ارتفع الإخلال بالفهم. وفصاحة الاستعمال المجازي لا تعتمد على كونه أقوى في القياس وإنما على كونه واضح الدلالة على المعنى المراد وأنه فاش في الاستعمال اعتمادا على هذا الوضوح.

وإنما كانت أساليب "البيان" أوضح من أسلوب الحقيقة لما فيها من الدلالة على المقصود بالشاهد والدليل، كإلحاق الناقص في المعنى بالكامل فيه والمعقول بالمحسوس بمعونة المقام.

وإن سئل : هل الأساليب البيانية مفصلة على حدود المعنى تماما وعلى الحالة الشعورية التي يعيشها المتكلم؟ رأى بعضهم أن هذه الأساليب "لا تصف حالاتنا النفسية وإنما حسبها أن تكون رموزاً أو وسائط تشير إلى تلك الحالات ، ذلك أننا لا نستطيع أن نعرف أي شيء عن هذه الحالات سوى أننا نشعر بها ، وأنها موجودة لدينا في هذه اللحظة"[1]. وقد لخص أعرابي هذا النوع من الكلام بقوله : "هو شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا".

وصفوة القول أن الأساليب البيانية أقدر من الحقيقة في التعبير عن إحساس المتكلم ومطلبه. هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يهتم علم المعاني بمطابقة الكلام لمقتضى حال المتلقي بينما يهتمّ علم البيان بمطابقة الكلام لمقتضى حال المتكلم.

لكننا في الوقت نفسه نرى أن المتكلم لا يلجأ إلى مثل هذه الأساليب لكي يحقق الوضوح والإفهام فقط- إذا أراد بهذا أن يكون دقيقا في وصف أحاسيسه- وإنما إلى جانب ذلك فإنه يستخدمها لمفاجأة المتلقي ، وهو يفاجئه بالإشراق الفجائي للعلاقة بين الفكرة والأسلوب البياني، فمثل هذه العبارات تفتح المجال أمام علاقات بين الأشياء، لم تكن مدركة من قبل فتشكل "صدمة"

1. فلسفة المعنى في التحليل اللغوي المعاصر، "فتجنشتين" نموذجاً- رشيد الحاج صالح، المعرفة، س٣٩، عدد ٤٤٢، ٢٠٠٠م ، ص (٢٩).

للقارئ أو "دغدغة نفسية". بل إن ".. قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا بحيث إنها كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المتلقي أعمق"[1].

لهذا لا يراد من الوضوح معنى التوصيل وبلوغ المعنى فحسب وإنما يشترط فيه التأثير في السامعين. يقول الجاحظ في تعريف البلاغة : "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظُه معناه ، فلا يكون لفظُه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك[2].

ويقول في موضع آخر : "إذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا عن الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة"[3].

ويتضح هذا التأثير من خلال تركيز الجاحظ على لفظة "قلبك" ولفظة "القلوب". ومما لا شك فيه أن دلالة القلب ترتبط بذوق المتلقي وتهتز له عاطفته بقدر ما يكون الكلام بليغا ومؤثرا. ويقول الجاحـــظ : "فمن زعم أنَّ البلاغة أن يكون السامعُ يفهمُ معنى القائل ، جعل الفصاحة واللُّكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحونَ والمعرب ، كله سواء ، وكلُّه بيانا. وكيف يكون ذلك كلُّه بيانا"[4].

ويرى الزمخشري أن الكلام "إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وتختص مواقعه بفوائد"[5]. فالبلاغة رتبة فوق إفهام المعنى ، رتبة شملها الامتياز في التعبير ومطابقته للمقام وافتنان المتكلم في التعبير والتصوير ، ليضفي من أسلوبه على مقاله حُلة من نور وبهاء تجتذب السامعين إلى أن يتملوا معه جمال رؤاه ، وبراعة خياله فيهدهد أو يرج مشاعرهم أو يثير عقولهم "والتأثير يعني تغيرا في الاتجاه وتحولا في السلوك"[6].

---

1. الأسلوبية والأسلوب – عبد السلام المسدي، ص (٨٦).
2. البيان والتبيين – الجاحظ ، ج١ ، ص (١١٥).
3. المصدر السابق، ص (٨٣).
4. المصدر السابق ، ص (١٦٢).
5. أساس البلاغة – الزمخشري ، ص (١١٩).
6. مفهوم الشعر – جابر عصفور ، ص (٧٣).

ثم إن الأساليب البيانية تخاطب النفس الإنسانية بما جبلت عليه من رغبة في الحصول على المعرفة بعد العناء في طلبها فمن "المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالمزية أولى ، فكان موقعه في النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف"[1].

فالبحث المتقصي الذي يقوم به المتلقي مصدر فرح وسعادة إذا كان المعنى الذي توصل إلى كشفه يُشبع رغبته. وهكذا يكون للأساليب سلطان على النفوس ووقع على الآذان يعرفه الإنسان أينما كان.

بقي أنْ أقول: إننا عندما نريد التعبير عن فكرة معينة، نجد على الفور أنّ مجموعة مِنْ الكلمات تدققت إلى الذهن دُفعة واحدة، بشكل عفوي، ودون جهد. وهكذا المبدع، فنحن لا نعلم هل كان أسلوب كاتب ما أو شاعر ما قد جاء نتيجة وعْي صريح به أو أنه صدر عنه كالفيض دون وعْي صريح عليه.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

1. أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني ص (١٢٦).

وخلاصة القول :

إن الأساليب البيانية تثير المتلقي وتحفزه على التفكير والتخيل وبالتالي إلى ملء الفراغات وخلق ردة الفعل عنده لأنها تنفرد بدلالات عميقة وشديدة الوقع عليه.

فالمتلقي هو العامل المباشر على ابتكار المتكلم للأساليب البيانية وذلك للاستجابة لأفق انتظاره أو لإدهاشه أو مفاجأته لدفعه إلى تغيير في أفعاله أو سلوكه أو وجهة نظره.

ومن هنا نرى حاجاتنا إلى دراسة مقامية براغماتية للأساليب البيانية ، و لأن الطرق الدلالية كما رأينا فشلت في إعطاء تفسير كاف لهذه الظاهرة ، فالأساليب البيانية دون مقام وجود مسطح فيكون على المقامية البراغماتية تقديم المعنى المقصود. ومن ثم تكتسب هذه الأساليب من استعارة وكناية وتشبيه براغماتيتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في مقام معين، وترقى هذه البراغماتية إلى أعلى مستوياتها كلما أثر المتكلم في المتلقي؛ فتحدث آثاراً بالغة فيه فتجعل تلقيه إيجابيا؛ لأنها تخلق إطارا تواصليا لم يكن متوقعاً. بل إن الأساليب البيانية هي الطرائق التي يتفاوض بها الملقي المتلقي لتحقيق أقصى إمكانات التبليغ فيؤدي إلى انتهاض المتلقي بالعمل والتغيير. وأي تغير فيها هو تغير في قوة الإنجاز والتأثير وهي أكثر قدرة من غيرها على أن تلهب عقل المرء حماسا للسمو به إلى الفضيلة. لهذا كانت كما اعتبرها الناس أداة لإقناع الجمهور وهذا هو هدف البراغماتية.

والأساليب البيانية في جوهرها بُنية خواطر وأفكار ومعان ، واللغة في الفؤاد ، وليس في اللسان ، والبلاغة بلاغة القلوب ، وأحوال اللغة وخصائص بلاغتها هي أحوال الإنسان الذي أضمر نفسه وقلبه وعقله وجوهره في هذه الأساليب في لحظة خاصة. ومع هذا تترك الانفعالات الإنسانية ولا ينتبه أحد إلى أنها كامنة في مثل هذه الأساليب.

ويكشف هذا أن الأساليب البيانية هي التي ينبغي أن تحظى بعنايتنا وأن تنال اهتمامنا ، فهي المفتاح الذي نستطيع أن نلج به إلى شخصية قائلها ، فتكشف عن جوانبها المتعددة ، وتعرف أبعادها ، وتسلط الضوء على أعماقها وتمضي مع نفس قائلها في تطورها ونموها وصعودها وجمودها وتوقفها وانحدارها إلى أسفل ، وتعرف منها "الباكي المتضاحك والباكي الحزين والضاحك المستبشر".

ويمكننا –على سبيل المثال– النظر في عدد من الأساليب البيانية للتعرف على المعنى المقصود ، وللغوص في أحاسيس الشاعر ومشاعره ، ولمعرفة جُمْلة حاله. وسنرى أنهم لا يطلقون أخيلتهم في فنون القول لمجرد العبث بقلب الأوضاع ونسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق.

يقول أوس بن حجر مشبها ارتفاع أصوات المقاتلين في الحرب تارة ، ثم انخفاضها أو انقطاعها تارة أخرى ، بصوت المرأة التي تجاهد أمر الولادة :

لنا صرخةٌ ثم إسكاتةٌ كما طرَّقتْ بنِفاس بِكرْ[1]

فالمتلقي يستطيع أن يتصور حال المقاتلين ومعاناتهم الشديدة في المعركة وأصواتهم من خلال صوت المرأة وحالتها عندما تجاهد أمر الولادة.

ونلاحظ هنا أن الشاعر يخاطب المتلقي بأسلوب بياني بسيط، لا يقتضيه أن يتكلف جهداً كبيراً ليصل إلى المعنى المقصود الذي يريده الشاعر. فالتشبيه أداة خطاب بلاغي تعتمد بساطة التركيب في دلالتها على المعنى.

أما الاستعارة فهي أداة خطاب بلاغي متقدمة مقارنة مع التشبيه –كما قلنا سابقا– يلجأ إليها الشاعر عندما يشعر بالحاجة إليها في تقديم المعنى الذي يريده ، والحالة التي يعيشها.

يقول امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهمـــوم ليبتلـي

فقلت له لما تمطـى بصُلبـــه وأردف أعجـازا وناء بكلكـل[2]

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالمتلقي يدرك من خلال الصورة إحساس الشاعر بوحشة الليل وطوله وثقله على نفسه وذلك عندما جعل لليل سدولا يرخيها ، وصلبا يتمطى به ، وأعجازاً يردفها ، وكلكلا ينوء به. كل ذلك من خلال الصورة الاستعارية التي اختارها الشاعر لتصف حالته.

---

1. نقد الشعر – جعفر بن قدامة ، ص (١٢٣).
2. ديوان امرئ القيس– دار صادر، بيروت، ص (٤٨).

ومن ذلك قول المتنبي في الغزل :

أراكِ ظننتِ السلكَ في جسمي فعُقْتِه عليكِ بدُرٍّ عن لقـــاء التّـــرائب[1]

فما العلاقة بين حال الشاعر والسلك ؟ هل هناك رابط بينهما ؟ ولماذا اختار الشاعر "السلك" بالتحديد ليصور حالته، و هل نستطيع من خلال هذا الأسلوب البياني أن نستدل على أحاسيس الشاعر و مشاعره ؟

بنظر ثاقب نرى أن سلك العقد –الخيط الذي ينظم فيه الدُّر– هو القريب الذي لا يصل أبداً مع قربه ، لأن حبات العقد تحجزه عن ملامسة الجسد الناعم ، و هذا أولاً هو السبب في نحول السلك وهو أيضاً السبب في نحول الشاعر الذي لا يصل إلى هذه المحبوبة مع قربه منها، فهناك تشابه مزدوج بين الشاعر و السلك ليس في النحول و حسب ، بل لكون سبب النحول في الحالتين هو الاحتجاز و عدم القدرة على الوصول مع شدة القرب .

هكذا نرى أن التمثيل –وسيلة الشاعر التعبيرية– للنحول بالسلك جاء في مقامه المناسب ليصور حالة الشاعر بدقة.

ومنه أيضا قول عشرقة[2] المحاربية :

جَريتُ مع العشاق في حَلْبة الهوى فَفُقْتُهُم جمْعاً **وجئتُ على رسلِي**

فما لبس العشاق من حُللِ الهـــوى ولا خلعوا إلا الثيابَ **التي أبْلِي**

وما شربوا كأسا من الحب مرة ولا حلوة إلا وشربهـــم **فضلـــي**

1. شرح ديوان المتنبي – ج١ ، ص (٤٧٤).
2 . شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام – بشير يموت، ص (١٠٢)

فمـــن خلال الصورة الفنية التي رسمتها الشاعرة نستطيع أن نتبين عظمة الهوى الذي تهواه ، وأنها ليست الأولى في التجربة ولكنها الأعمق. فكأنها تقول لنا : مهما بلغ الحبيب من حب حبيبته ومهما وصل هذا الحب من نفسه ، فأعظم الهوى ، الذي أهواه أنا.

فالمحاربية اخترقت الزمان والمكان ومثلت حبها بثلاث لوحات رائعة رسمتها ولونتها بالألفاظ والأفعال المتتابعة المفعمة بالحركة :

صورة الركض ← ركض ← فقتهم ← جئت على رسلي

صورة اللبس ← لبس(حلل الهوى) ← خلعوا الثياب ← التي أبلي

صورة الشرب ← شربوا (مرة وحلوة) ← شربهم ← فضلي

فجاءت هذه الصور مشبعة بالحركة –من خلال الأفعال التي ذكرتها– لتلائم حالة الشاعرة المفعمة بالحب الذي لا ولن ينطفأ.

وآخر كلمة في عجز كل بيت ، جاءت لتناسب "فرادة" حبّها الذي فاق كل حب موجود. فالمحاربية مثل العشاق تركض في حلبة الهوى لكنها تجتازهم جميعا حتى وإن سارت على مهل. وها هي تلبس ثوب الهوى شأنها شأن غيرها ولكنّ ثيابها الأصل. فهُم مهما لبسوا أو خلعوا من الثياب فلن تكون إلا ثيابا أبلتها. وكذلك في الشرب فقد ذاقت حلوه ومره فجربت كل نكهاته ومهما ذاق غيرها ، فما هو إلا ما تركته في قعر كأسها.

وإذا انتقلنا إلى محمود درويش نراه يقول :

إنا سنقلع بالرموش

الشوك والأحزان .. قلعا![1]

فجاءت لفظة "الرموش" في مقامها المناسب لتصف حالة الصمود للشعب الفلسطيني – وهي أضعف جزء في جسمنا لرقتها– فمهما فعل الصهاينة بنا من قتل وتشريد وتشويه وتعذيب وتدمير، سنظل نقاومهم حتى وإن لم يبق فينا إلا الرموش الرقيقة ، لن نستسلم سنحاربهم برموشنا.

---

1. الديوان – محمود درويش ،ص (٢٠).

ولننتقل الآن إلى أجمل القول ، القرآن الكريم، ففي آياته صور باهرة تأتي لتناسب حاجات النفوس ومقامات المتلقين كقوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً** ﴾ [1] فلو قلت (اشتعل الشيب في الرأس) لكان هذا القول يحتمل أن الشيب لم يشمل الرأس كله وإنما كان في بعض أطرافه ، أما إذا قلت "اشتعل الرأس شيبا" فإن ذلك يعني أن الشيب عَمّ الرأس فلم يُبْق فيه موضعا إلا شابه. فهذا الأسلوب يفيد الإحاطة والشمول. فجاء ليلائم مقام الكهولة بل الشيخوخة. فقد عَمّ الشيب جميع أطراف الرأس ، والشيب دلالة على الشيخوخة. فكيف له أن ينجب؟!

ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : ﴿ **وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً** ﴾ [2] فلو قلت (فجرنا في الأرض عيونا) لكان في قولك هذا ما يفيد بأنه قد توجد عيون في بعض أطراف تلك الأرض. ولكن حين قال الله تعالى : ﴿ **وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً** ﴾ أصبح المعنى أن تلك الأرض أصبحت كلها عيون جارية. فجاء هذا الأسلوب ليناسب مقام سرعة إغراق العصاة من قوم نوح عليه السلام. ولا يمكن أن يقوم مقامه أو يغني غناءه تعبير آخر من خلال هذه الكلمات.

ومن خلال هذه الأمثلة نحاول أن نبين ما يمكن أن تسهم به هذه الأساليب في الكشف عن المقامات المختلفة وعن غايات المتكلم ومقاصده والحالة التي يعيشها والانفعالات النفسية التي تعتريه ، محاولين تجلية تلك الأمور. فلا بد من استقاء السيرة النفسية منها واصطياد الرسالة التي تكمن فيها من جهة ثانية. فهذه لابد أن تكون مهمتنا لا أن نعمد فقط إلى بيان أن الأسلوب خبر أو إنشاء أو نحوه.

ولقد استوقفتني في هذا المقام دراسة سعد مصلوح للتشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة[3] إذ ذهب في هذه الدراسة إلا أنّ الأساليب البيانية باعتبارها أشكالاً بلاغية تنتج عن طبيعة التركيب وما يتضمنه، وتساعد كثيراً في فهم النص، ولكنها لا تساعد في

---

1. سورة مريم :(٤).
2. سورة القمر : (12).
3. وينظر: في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة (تطبيق على أشعار البارودي وشوقي والشابي)، عالم الفكر، ع٤، س٣، ١٩٨٥م، ص ص (١٢٢-١٣٢).

فهم مجمل العلاقات المشكّلة للنص لأن دراسته أغفلت مقامات تلك الأساليب فهي لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفة العد ولم تتجاوزها.

وهذه من نقاط الضعف الخطيرة في الدراسات الإحصائية لأنها لا تقيم حسابا لتأثير المقام مع أننا تأكدنا أن العلاقة بين الأساليب والمقام هي المحرك الأساسي الذي ينبغي لنا أن ننطلق منه إذا أردنا قراءة صحيحة.

والرأي عندنا أن الأسلوبية ، إن أرادت أن تجاوز القوالب المنهجية التقليدية لا بد لها من ولوج مسالك بحث حديثة واعتماد مناهج أخرى تكون مكملة في فهمها خاصة تلك الموصولة بالبراغماتية المقامية وهو ما يبدو أنها بدأت تأخذ بأسبابها وتجوس في دروبها الدقيقة[1].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

1. يقول سعد مصلوح : "وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب". الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة، سعد مصلـــوح، عالم الفكر، م٢٠ ، ع٣ ، ١٩٨٩، ص(٦٨٣). ويقول صلاح فضل: "من السياقات النصية: سياق يطلق عليه علماء اللغة اسم "سياق الموقف"؛ وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند الدراسة الأدبية للأسلوب. فالنص في نهاية الأمر ليس سوى تعبير يشكل جزءاً من عملية اجتماعية معقدة؛ على نحو يجعل من الضروري استحضار الملابسات الشخصية والاجتماعية واللغوية والأدبية و"الأيديولوجية" التي كتب فيها النص". ينظر:من الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية – صلاح فضل، فصول، م٧، ع٣، ٤ ، ابريل، سبتمبر، ١٩٨٧م، ص (٣٢).

علم البديع :

لقد كان إفراد علم البديع علماً مستقلاً ، إدراكاً لواقع لغوي بدأ يفرض نفسه على الساحة الأدبية و البلاغية لا يمكن تجاهله، ففنون البديع تكون ذا معنى في مقام معين و تصبح زخرفاً و حلية فقط في مقام آخر، و هي على الوجهين لا بد من استخدامها في مقام تحسين الكلام، فحاجة الكلام إلى الحلاوة والطلاوة حاجة ملحة[1].

يقول الخطيب القزويني في تعريف علم البديع : "هو علم يُعرّف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[2] ثم قسمه إلى ضربين : ضرب يرجع إلى المعنى ، و ضرب يرجع إلى اللفظ ، و تكلم على سبعة و أربعين فناً من هذين الضربين .

ففي هذا التعريف نرى أنَ المطابقة مع "مقتضى الحال" و "المقام" تتم في مرحلة سابقة ، تليها مرحلة الوضوح في علم البيان ، ثم التحسين و بذلك يكون علم البديع فناً له أثره في التعبير وليس تابعاً للفنون الأخرى ، فالبلاغة تتم دون البديع أو المحسنات البديعية و هذه إذ تدخل على الكلام فلتدخل "الحُسن عليه".

والحُسن في الكلام البليغ ليست قضية غير ذات بال ، فقد عرفته الدراسات البلاغية منذ وقت مبكر نسبيا. قال أبو هلال العسكري في تعريف البلاغة : "كُلُّ ما تُبلِّغ به (من كلام) المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكُّنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن"[3]. ثم أوضح ذلك بقوله : "وإنما جعلنا حُسنَ المعرض ، وقَبولَ الصورة شرطاً في البلاغة ؛ لأن الكلام إذا كانت عبارتُه رثةً ، ومعرضه خَلَقا لم يُسَمَّ بليغا ، وإن كان مفهومَ المعنى ، مكشوفَ المغزى". فلا بد من تحبير (أو تخير) اللفظ في حُسن الإفهام"[4].

---

1. تنصـــرف الدلالة اللغوية للتحسين إلى معنى التزين والتجمل وهو مطلوب في حياتنا لا غنى عنه. فالمرأة تتزين ، والرجل يتجمل ، والضالع في الجريمة يزين لنفسه أو لغيره ارتكابها ، والمدن والعواصم تتزين شوارعها وميادينها بالأضواء والخضرة الزاهية. وفي التنزيل تزين الحياة الدنيا بالأموال والأولاد ، ويزين الشيطان سوء الأعمال ، وتزين قلوب المؤمنين بالتقوى. كما تتجلى الزينة في السلوك الأخلاقي والمواقف الاجتماعية والأحوال والنفسية وهكذا ، فالتزيين في النص البديعي لا بد منه.
2. الإيضاح في علوم البلاغة – القزويني ، ج١، ص (٤٩٥).
3. الصناعتين – أبو هلال العسكري ، ص (١٠).
4. المصدر السابق ، ص (١٠).

وهكذا نرى أن الجمال أو الحسن لا يُعْقَل في الكلام البليغ، فهذا مقامه ليتمكن في قلب سامعه. فالأدب ليس تاريخا أو فلسفة أو بحثا في علم الاجتماع ، فالناحية الجمالية من شروط "الأدبيّة" إذ إنها هي التي تجعله –مع غيرها– أدبا ففنا من الفنون ، لكن هذا الجمال ، أو الحسن، يجب أن لا يكون مجتلبا بل نابعا من صميم العمل الأدبي. فأي نوع من فنون البديع لا تكون له قيمة إلا إذا كان المعنى يتطلبه أو يستدعيه.

يقول الجرجاني : "فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حِوَلاً. ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد المتكلم إلى اجتلابه، وتَأهُّب لطلبه، أو ما هو لحسن مُلاءمته[1]. ويقول في موضع آخر" إنّك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً"[٢] وفي هذا المنحى قوله: "فمَن نَصَر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته"[٣] فما "يُعطي التجنيس من الفضيلة أمرٌ لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان اللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسَن ولما وُجد فيه معيب مستهجَن"[٤] فالجناس مثلا ليس مقصودا لذاته أو لتحسين اللفظ فقط؛ وإنما المعنى هو الذي يطلبه وذلك "لأن الألفاظ خدم المعاني والمصرّفةُ في حكمها"[٥] ولأنّ "حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى"[٦]، فهذا مقامه، وإذا اتفق اللفظ دون اختلاف المعنى فهذا ليس من التجنيس في شيء، وقد سمّاه بعض علماء البيان بـــ "الترديد" "أي أنّ اللفظة الواحدة رُدّدت فيه". ومثال ذلك قول أبي تمام:

أظنّ الدمـــعَ في خدي سيبـــقى **رسوماً** من بكائي في **الرسوم**.

فهذا ليس تجنيساً " فالبيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً"[١]. تأمل قوله تعالى: ﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ** ﴾ [2]. لم يقل الله فيه "ثمر الجنتين" ..

---

1. أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني ، ص (١٠).
[2] . المصدر السابق ، ص (٦).
[3] . المصدر السابق ، ص (٨).
[4] . المصدر السابق ، ص (٨).
[5] . المصدر السابق ، ص (٨).
[6] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (٢٤٤).

لأن الثمر لا دلالة فيه للالتقاط ، ولكن "جنى" تدل على الثمرة التي تجنى وتؤخذ وهي بمعنى المجنى. ولهذا كانت أوقع من غيرها وتستهدف غاية لا تحققها لفظة أخرى. وهي في الوقت نفسه –في نظم ملتئم ومقام ملائم يكتمل فيه المعنى بكلمة "دان" التي لا يخفى ما فيها من دلالة معنوية وعذوبة نغم. تتلقفها الأسماع لما فيها من حروف متآخية مع الجناس ، إضافة إلى ما تضيفه من أن المجنى قريب المتناول. وذكر المفسرون بأنه قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)**﴾ [3] .

ويقول أبو تمام:

فتىً جودُه طبــعٌ فليس بحافــلٍ أفي الجَوْرِ كانَ الجودُ منه أم القصدِ

فالتجانس بين الجور والجود على مستوى تحسين اللفظ وتزيينه يوحي بالتماثل، فعلى مــستوى تحسين المعنى يقرن الجود بظلم المال وهذا ما تعطيه لفظة الجَوْر، إذ هي نقيض العدل والميــل عن القصد وهاتان اللفظتان صفتان من صفات الإنسان.

وقوله:

فلا دمعَ ما لم يَجْــرِ في إثــرِهِ دَمٌ ولا وجْدَ ما لَمْ تعي عَنْ صفة الوَجْدِ

فالجناس بين لفظتي "دمع" و "دم" له بُعد صوتي "تزييني" ولكنه أولاً له بُعد "تحسيني" للمعنــى؛ فاللفظتان علامتان من علامات الحزن والألم التي يمرّ بها الإنسان. ثم قوله:

تُعَصْفِرُ خدّيها العُيونُ بحُمْــرةٍ إذا وَرَدت كانت وبالاً على الوردِ

ففي هذا البيت يجانس أبو تمام بين "وردت" و "الوردة" ويظهر البعد الدلالي بين هاتين اللفظتين من خلال أنّ كلمة "وردت" تعني الاتجاه صوب الماء؛ والورد يحتاج إلى الماء واللفظتان تدلان على الحياة والانتعاش. وعلى هذا النهج ورد قول البحتري:

إذا العين راحت وهي عينٌ على الجوى فليــس بسِــرٍّ ما تُسِــرّ الأضــــالع

---

[1] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (٢٤٤).

2. سورة الرحمن : (٥٤)

3. سورة الحاقة :(٢٢ و ٢٣).

فالعين: الجاسوس، و(عين): عين الإنسان، والبُعد الدلالي بين هاتين اللفظتين يظهر من خلال أن العين: "الجاسوس" يستخدم عينيه للتجسس على الناس. وفي جميع الأمثلة السابقة اللفظ واحدٌ والمعنى مختلفٌ.

وإذا تناولنا لوناً آخر من ألوان البديع: السجع، سنتبين بعده الدلالي (تحسين المعنى). يقول ابن الأثير: " واعلم أنّ للسجع سرّا هو خلاصته المطلوبة، فإنْ عري الكلام المسجوع منه فلا يُعتدُّ به أصلاً .. والذي أقوله في ذلك هو أنْ تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإنْ كان المعنى فيهما سواءً فذلك هو التطويل بعينه.. وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت إحداهما كافية في الدلالة عليه، وجلُّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه.. والأقلّ منه على ما أشرت إليه"[1]

والكلام المسجوع يحتاج إلى أربع شرائط حتى يأتي في مقامه المطلوب والمرغوب، وهي:

١. اختيار مفردات الألفاظ واختيار التراكيب على الوجه الملائم لمقام الكلام. يقول ابن الأثير: فـــ "ينبغي أنْ تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة وأعني بقولي "غثة باردة" أنّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه منْ غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحُسن، ولا إلى تركيبها، وما يُشترط له مِن الحُسْن"[2]

٢. ومطلوب آخر للسجع "وهو أنْ يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أنْ يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموّه، على باطن مشوّه" [3]

ويتابع قوله : "إذا صورت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أنْ تصوغه بلفظ مسجوع، ولم يواتك ذلك إلا بزيادة في اللفظ، أو نقصان منه، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان.. فإنه هو الذي يُذم من السجع"[4] "وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحُسن وهو أعلى درجات الكلام".[5]

---

[1] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (١٩٥).
[2] . المصدر السابق، ص (١٩٣).
[3] . المصدر السابق، ص ص (١٩٣ –١٩٤).
[4] . المصدر السابق، ص (١٩٤).
[5] . المصدر السابق، ص (١٩٤).

ورابع مطلب للسجع: "أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها"[١]

فهذه أربع شرائط، هذا مقامها، حتى يكون المعنى هو الذي يطلب السجع، وهو محمود إذا وقع سَهْلاً بلا كلفة ولا مشقة. ومن أمثلة السجع المحمود قول القائل: "اللهم هب لي حمدا، وهب لي مجدا، فلا مجدَ إلا بفَعال، ولا فعال إلا بمال"[٢].

وقول الفضل بن عيسى الرقاشي: "سل الأرض فقل: مَنْ شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تُجبك حِواراً، أجابتك اعتباراً"[٣]

وكلام النبي ﷺ : "لا تزال أمتي بخير ما لم ترَ الفَيءَ مغنماً، والصَدقة مَغْرَماً". وقوله : "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام. وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"[٤]. وتناسق الإيقاع والمعنى يجتمع في فواصل القرآن الكريم – فيأتي لمعنى– كقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)** ﴾ . تنسجم في هذه الآياتِ النغمةُ مع المعنى وتتعانق الفواصل مع ما قبلها. وفيها ختمت الآية الأولى التي تشير إلى قدرة الله عز وجل في هذا الكون الفسيح بقوله: ﴿ **يَعْلَمُونَ** ﴾ ؛ إذ إن الاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر أمر يختص بالعلم والعلماء. وختمت الآية الثانية بقوله: ﴿ **يَفْقَهُونَ** ﴾ فجاءت الخاتمة

مناسبة في أمر يحتاج إلى الدقة الشديدة، لأن إدراك نشأة الإنسان من نفس واحدة وتطوره في مستقره في الأصلاب والأرحام مما يحتاج إلى فقه وتدبر. وختمت الآية الأخيرة بقوله:

---

[1] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (١٩٦).
[2] . أسرار البلاغة– الجرجاني، ص (١٢).
[3]. المصدر السابق، ص (١٢).
[4] . المصدر السابق، ص ص (١٢–١٣).

﴿ **يُؤْمِنُونَ** ﴾ بعد أن تحدثت عن نعم الله الجليلة التي أنعم بها على عباده، وما أخرج لهم من الثمرات بالماء المنزل من السماء، فاخضرت الأرض وتنوعت فوائدها، ويستدعي المقام أن تختم الآية بالإيمان الداعي إلى شكر الله وحمده على نعمه الكثيرة التي لا تُحصى.

وجميع الأمثلة السابقة تحققت فيها الشرائط الأربع. منها أنّ كل واحدة تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها، وكذلك فليكن السجع كما قال ابن الأثير.

ومن كلام العرب في كتاب: "لم ير للكفر أثراً إلا طمسه **ومحاه**، ولا رسماً إلا أزاله **وعفاه**"[1] فلا فرق هنا بين محو الأثر وعفاء الرسم. فانتفى هنا شرط من شروط السجع – وهو أنْ تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها.

ومن كلامهم أيضاً في كتاب: "وقد علمت أنّ الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام، ومتعاقب الأعوام تعتل طوراً وتصح أطواراً، وتلتاث[2] مرة، وتستقل مراراً، من حيث أصلها راسخٌ لا يتزعزع، وبنيانها ثابتٌ لا يتضعضع"[3].

فهذه الأسجاع كلها متساوية المعاني، فإن الاعتلال، والالتياث، والطور، والمرة، والرسوخ، والثبات كل ذلك سواء فهي إذن ليست بالسجع المحمود.

وأنكر رسول الله ﷺ السجع إذا تكلّف فيه الفرد تكلُّف الكهان فأتى به في بعض كلامه من غير سجية وطبع، ومثال ذلك "يقول العبد: مالي مالي وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى"[4]

ومنه قول رجل سأل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "يا رسولَ الله، أرأيْتَ من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهلّ، أليس مثل ذلك يُطلّ" قال: فقال رسول الله : "أسجع كسجع الجاهلية؟"[5].

"فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتُلب من أجل السجع وتُرك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرُّ به، وأهدى إلى مذهبه"[6]

---

[1] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (١٩٨).
[2] . تلتاث: تختلط.
[3] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص (١٩٨).
[4] . البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، ص (٢٠٩).
[5] . المصدر السابق، ص (٢٠٩).
[6] . أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني ، ص (١٣).

وبناء على ذلك نرى أن المعاني هي التي تنسج ألفاظ البديع "ولن تجد أيمنَ طائرا ، وأحسنَ أولا وآخرا ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلبَ للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيتها ، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظ فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها"[1]. ألا ترى لو أن رجلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس .. فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر؟

يقول ابن الأثير : "الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلةٍ ورقيقة ، ولكـــل منهما موضعٌ يحسن استعماله فيه"[2]. فالجزل من اللفظ يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف .. وأما الرقيق منها فيستعمل في وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ..[3].

وهكذا تجري الألفاظ من السمع مجرى الأشخاص من البصر. "فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمـــع كأشخاص عليها مهابةٌ ووقار. والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ، ولين أخلاق ، ولطافة مزاج"[4].

ولهذا نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلّوا سلاحهم، وتأهبوا للطرد، ونرى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن قلائد مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلي[5].

فتجميل الكلام لا يكون عبثا ، وليس المقصود به الجمال في حد ذاته بقدر نجاحه في الغرض الذي يهدف إليه.

وعلى الرغم من أن الحسن في البديع لا يرجع إلى اللفظ ، إلا أنه إذا توافرت هذه المحسنـــات مع حسن النظم يكون قد قرأ "الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا

---

1. أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني، ص ص (١٣-١٤).
2. المثل السائر – ابن الأثير ، م١ ، ص ص (١٦٧-١٦٨).
3. المصدر السابق، ص (١٦٨).
4. المصدر السابق، ص (١٧٦).
5. المصدر السابق، ص (١٧٦).

الأمرين"[1] كما يرى الجرجاني. فهناك الكلام البليغ العادي وهناك الكلام البليغ المحسّن. وهذا أمر يعرفه أهل الأدب والبلاغة والبيان.

يقول فخر الدين الرازي: "فالبديع بالتجنيس ، أو ردّ العجُز على الصدر، أو السجع، أو سوى ذلك من مسميات، أولا وأخيرا محاولة لخلق جمال ، وإبداع حُسن. وإيجاد لون من ألوان البهاء والرواء"[2] والدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط ؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام ، وإنما يدل حُسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحُسن مقاطعه ، وبديعُ مباديه" و"غريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه"[3] وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ. فليس شرطا ضروريا دخول الكلمة في نسق تعبيري من أجل أن تنطوي على دلالة. ولا بد من إلباس المعنى "ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة ، واجتناب ما يشينه من سفاف الكلام وسخيف اللفظ"[4].

وذهب ابن الأثير إلى "أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم"[5]. ويقول ابن الأثير : "ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر منه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس؟ والألفاظ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة "المزنة" و "الديمة" حسنةٌ يستلذها السمع ، وأن لفظة "البعاق" قبيحة يكرهها السمع. وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى "المزنة" و"الديمة" وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال وترى لفظة "البعاق" وما جرى مجراه

---

[1] .دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني ، ص (٧٢).
2. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز– فخر الدين الرازي، ص(٥٠).
3. الصناعتين – أبو هلال العسكري ، ص (٥٨).
4. عيار الشعر – ابن طباطبا ، ص (١٠).
5. المثل السائر – ابن الأثير ، م١ ، ص (١٥٤).

متروكاً لا يُستعمل، وإنْ استُعمل فإنما يستعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة، أو مَنْ ذوقه غير سليم"[1]. "ومَنْ يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة "الغصن" ولفظة "العُسلوج" ... وبين لفظة "السيف" ولفظة "الخنشليل" ، وبين لفظة الأسد ولفظة "الفدوكس" ، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا أن يجاوب بجواب بل يترك وشأنه"[2].

فالجمال في التعبير أمر مطلوب حيث تنساب الألفاظ في "عذوبة الماء الزلال" وتتدفق المعاني "أرق من السحر الحلال". فالكلمة الملفوظة هي سر الحياة، فهي تثير المشاعر وتمتع القلوب وتلمس الأحاسيس وتشد الأسماع وتستميل النفوس وتدخل الآذان بلا إذن.

ومثل هذه المسميات وغيرها من : الحلاوة والرشاقة والحسن والأناقة والعذوبة والخلابة والروعة ... مسميات ألصق بحاجات الإنسان الحسية المكتسبة وهي كلها حاجات عضوية أو نفسية لا تخرج عن نطاق حاجاته البشرية المكتسبة بالتجربة الموروثة أو الميول الغريزية. فالحاجة للاستمتاع الجمالي حاجة تكوينية في الإنسان والكلام الجميل من أكثر المواضيع الجميلة شدّا للإنسان.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومجمل القول أن المحسنات المعنوية راجعة إلى تحسين المعنى أولا وبالذات ولكنها تفيد تحسين اللفظ ، والمحسنات اللفظية راجعة إلى تحسين اللفظ أولا وبالذات ولكنها تفيد تحسين المعنى أيضا. فيتكون للمتلقي لذتان : لذة لفظية صوتية موسيقية إيقاعية تمس الشكل الخارجي للمقال يحدثها التناغم الذي توجده المحسنات اللفظية. ولذة دلالية مقامية تمس التركيب الداخلي للمقال ، إذ نبحث عن المعنى المخفي وراء تشابك صوتي صيغي. فإما أن تستدعي الألفاظ المعاني وإما أن تنسج المعاني الألفاظ وأولهما بعرض الصنعة وثانيهما آخذ بسبب المعنى. فالقدماء ميزوا بين نمطين من البديع يئولان إلى وضعين محددين : مقام تحسين الكلام اللفظي ومقام تحسين الكلام الدلالي المقامي. ومنه نرى انتقال بؤرة الاهتمام إلى المقال وتحسينه بهدف التأثير في المتلقي.

---

[1] . المثل السائر– ابن الأثير، م١، ص ص (٧٥–٧٦)، وقوله : "المزنة" أي المطرة. وقوله : "الديمة" المطر يطول زمانه في سكون. وقوله "البعاق" : الصوت الشديد.

2. المصدر السابق، ص (١٥٣)، قوله : "العسلوج" ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم أول ما ينبت. وجمعها عساليج.

الكلمة ومقامها :

لكل لفظ إيحاؤه. وفي القرآن الكريم بعض الألفاظ تستعمل بنفسها في تصوير المعنى ، لها خصوصية دلالية مقامية لا يقوم مقامها كلمة سواها ، فالقرآن يختار من الألفاظ أسلسها وأفضلها وأصلحها مناسبة للمقام لتؤدي المعنى المراد كاملا برشاقة ووقع في النفس، فمثلا بعض الألفاظ فخم رائع يمثل الأنفة والكبرياء ، وبعضها ذو دوي وجلجلة يمثل قصف الرعد وهزيم الريح وزحف الجند ، وبعضها دمث لين يصور الأحلام والمناجاة والمناغاة ، ومنها القارص اللاذع ومنها المستعطف الآسر... والمتكلم الماهر هو الذي يتخير الألفاظ وينظمها في النسق الملائم للمقام.

١. قال الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** ﴾ [1]

فاستخدمت كلمة مرضعة في مقامها المناسب ، ولو استخدمت لفظة غيرها لما أدت المعنى المقصود فهي أشد شفقة على ولدها ، وأكثر ألفة له ، وهي أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة بحاجته واهتماما بحفظه.

٢. ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)** ﴾ [2]

هنـــا وردت لفظة "يفعل" ولم ترد "يخلق" لأن الفعل هنا يناسب مقام وجود الزوجة والزوج ، وإن كان وجود العقم والشيخوخة مانعا للإنجاب.

وقوله تعالى على لسان مريم بنت عمران : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [3]

فوردت لفظة "يخلق" ولم ترد "يفعل" لأن خلق عيسى عليه السلام هو خرق للناموس الكوني في سنن الإنجاب ؛ هو إيجاد من غير سبب يؤدي إليه ، فناسب المقام هنا استخدام لفظ "يخلق" دون "يفعل".

---

1. سورة الحج :(٢)
2. سورة آل عمران : (٤٠).
3. سورة آل عمران : (٤٧).

٣. ومن الألفاظ المقول بترادفها : لفظا "الزوج" و "المرأة". تقول عائشة عبد الرحمن : "وترى البيان القرآني يستعمل لفظ "زوج" حيثما يتحدث عن آدم وزوجه ، على حين يستعمل لفظ "امرأة" في مثل امرأة العزيز ، وامرأة نوح ، وامرأة لوط ، وامرأة فرعون. وقد يبدو من اليسير أن يقوم أحد اللفظين مقام الآخر ، وكلاهما من الألفاظ القرآنية ، فنقول في "زوج آدم" مثلا امرأة آدم ... وذلك ما يأباه البيان المعجز" [1] .

لكن عائشة عبد الرحمن تعلل مغزى الحكمة في تباين استخدام هذين اللفظين : "ونتدبر سياق استعمال القرآن للكلمتين فيهدينا إلى سر الدلالة : كلمة "زوج" تأتي حين تكون الزوجية هي مناط الموقف : حكمة وآية ، أو تشريعا وحكما ، في آية الزوجية. قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [2] ، ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [3] . فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة ، فامرأة لا زوج : ﴿**امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾ [4] ﴿ **امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ [5] "وقد تعطلت آية الزوجية بينهما بإيمانها وكفره"[6] وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد ، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج ... فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم ، أو ترمل ، فامرأة لا زوج ، كالآيات في امرأة إبراهيم [7] وامرأة عمران [8] .

ومن مواطن اختلاف الدلالة بين لفظي "الزوج" و "المرأة" : عنصر الإنجاب كما رأت عائشة عبد الرحمن فتقول : "ويضرع زكريا إلى الله سبحانه وتعالى : ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**

---

1. الإعجاز البياني للقرآن – عائشة عبد الرحمن، ص(٢١٢).
2. سورة الروم : (٢١).
3. سورة الفرقان : (٧٤).
4. سورة يوسف : (٣٠ و٥١).
5. سورة التحريم :(١٠).
6. سورة التحريم : (١١).
7. سورة هود : (٧١)، وسورة الذاريات :(٢٩).
8. سورة آل عمران : (٣٥).

فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً ﴾ [1] ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ [2] ثم لما استجاب له ربه ، وحققت الزوجية حكمتها كانت الآية ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ** ﴾ [3] .

وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج حين تكون الزوجية قائمة : واقعا أو حكما ؛ كأحكام المواريث ، وعدة اللواتي توفي أزواجهن[4] . أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بطلاق أو إيلاء ، فالأحكام متعلقة بالنساء لا بالأزواج" [5] .

وخلاصة الأمر مما تقدم أن المرأة تحظى بلقب الزوجة ؛ في مقام العلاقة الزوجية القائمة بين الزوجيـــن وفي مقام التآلف الفكري والنفسي والحسي ؛ وذلك بأن تكون قد أنجبت له ، وعلى دينه ، وذات وفاء له. فإن اختل عنصر واحد من هذه العناصر كانت "امرأة" لا "زوج".

٤. استمع إلى قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦)**﴾ [6]

فلفظة "نزاعة" من صيغ المبالغة على وزن فعّال جاءت في مقامها المناسب دون غيرها من الصيغ ، لأنها مع إفادتها المبالغة ، فهي تفيد الاستمرار والتجدد والتكرار وتدل على الصنعة والملازمة.

٥. يقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [7]

هنا استُخدم الفعل "يرزق" وعُدّل عن اسم الفاعل "رازق" ليلائم المقام مقام تجدد الرزق. فالفعل يفيد تجدد الرزق شيئا بعد شيء ، ولو استخدم اسم الفاعل "رازق" لفاتت هذه الفائدة.

٦. وعندما يستدعي المقام الثبوت يستخدم الاسم قال تعالى : ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** ﴾ [8] .

---

1. سورة مريم : (٥).
2. سورة آل عمران : (٤٠).
3. سورة الأنبياء : (٩٠).
4. سورة البقرة : (٢٤٠).
5. الإعجاز البياني للقرآن ، عائشة عبد الرحمن : ص ص(٢١٢ ، ٢١٤)
6. سورة المعارج : (١٥ و ١٦).
7. سورة فاطر : (٣).
8. سورة الكهف :(١٨).

فهذه جملة اسمية خبرها مفرد يدل على الثبوت ، فعبر الله عن ثبوت الصفة باستعمال اسم الفاعل "باسط" وهو أليق لبيان حال الكلب الذي لم يبد منه حراك وهو في فناء الكهف. ولا يخفى أنه كان في حالة لا حركة فيها.

ولذا فاستخدام الفعل المضارع "يبسط" لا يناسب المقام والحالة ، ولا يؤدي المقصد المراد لأنه يدل على مزاولة الكلب للبسط وعلى تجدده مرة بعد أخرى.

٧. ومن الآيات الأخرى التي نتلمس فيها دقة إصابة المعنى من خلال مقامين متشابهين ما نجده في قول الله تعالى : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [1] فلفظة "الناس" جاءت في مقامها المناسب لتبرز ماهية هذه الرسالة ، التي جاءت للبشر كافة لتكون خاتمة الرسالات. بخلاف الرسائل الأخرى التي جاءت مقيدة بزمان محدد ، ومكان معين ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ . فلفظة "قومك" جاءت وفق مقامها لبيان خصوصية رسالة موسى عليه السلام ، وأنها مقيدة بقومه وزمانه فحسب.

وهكذا نرى الألفاظ على "قدود المعاني" والكلام متناسبا مع المقام من حيث اللفظ والمعنى.

---

1. سورة إبراهيم : (١).

صفوة القول

من كل ما سبق نخلص إلى عدة أمور :

إذا كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لـــ "مقتضى الحال" و"المقام" ، فإن إدراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمتلقي من ناحية والمتكلم من ناحية أخرى ، وصياغة الكلام على قوالب المقتضيات المناسبة للخطاب ، والقدرة على خلق الجمال في الكلمة والأسلوب، والتعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف والإمتاع والإقناع ؛ على أساس ذلك كله لا بد أن تنهض نظرية مقامية. نرى من خلالها أن نبض الحياة يمكن أن يدب من جديد في أوصال بلاغتنا.

جميع الحقوق محفوظة

فبلاغيو العربية القدامى لم يتحدثوا عن المقام كطريق خاص ينهجه المتكلم / الأديب / الكاتب ، لكنهم تحدثوا عن الجملة والتشبيه والاستعارة ومحسنات القول ، كأجزاء مفصلة دون أن ينظروا إلى المقام نسقاً مطرداً متلاحم الأجزاء في كتاب أو رسالة أو مقال.

وكان ما تعارفنا عليه أن علم المعاني، من بين علوم البلاغة العربية الثلاثة ، هو الذي ينبغي أن يعنى بمطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، ولكننا وجدنا أن هذه المطابقة تنسحب على علوم البلاغة الثلاثة. اهتم علم المعاني حقاً بأساليب بناء العبارة والجملة وخواص تراكيب الكلام في ضوء الاعتبارات المتعلقة بالمتلقي الذي يفترض أن يكون في حالة تقتضي أسلوبا معينا دون غيره ولما كان الهدف الإبلاغ والإفهام كان لا بد أن يراعي إلى جانب ذلك مقامه الفكري والعقلي والاجتماعي.

ولكن علم البيان فيما يبدو لنا الآن قد اهتم بصياغة المعاني بالأساليب البيانية المتنوعة التي توفرها اللغة للمتكلم ورأى أنها اختيار ينتقي فيه المتكلم ما يناسب والحالة التي يعيشها والمقصد الذي يرومه وفي الوقت نفسه هو يستخدم تلك الأساليب ليؤثر في المتلقي ليمتعه ومن ثم ليقنعه لما في هذه الأساليب من الأبلغية في إثبات المعنى.

اهتم علم البديع –إضافة إلى اعتباره صنعة شكلية خالصة– بمقام تحسين الكلام وتزيينه موافقة نزعة الإنسان إلى التأثر بمظاهر الجمال مهما اختلفت وتباينت، لتسترق الأسماع وتهفو إليها النفوس فتترك في الإنسان الأثر المنشود.

وإن هذا التقيد البلاغي بالمقام سبب كافٍ لنتغيا نظرية مقامية تعنى بالفهم والإفهام وبالتعبير والتأثير. فتدعم الارتباط الوثيق بين المقام والمقال أو بين التركيب والمقصد أو بين الصورة البلاغية والحال وتجعلهما نسيجاً تعبيرياً واحداً وتعمل على إلغاء التقسيم الثلاثي فتصبح البلاغة كلها فناً واحداً. وتكشف لنا النظرية المقامية أن اللغة لم تعد مجرد أداة توصيل ، ولا تنحصر غايتها في هذا المبدأ بل تجاوزته وأصبحت أداة تأثير. لهذا نتمثّل أن يكون لهذه النظرية ثمار في تحسين خطابنا المعاصر. وإذن يصبح سوء فهمنا لأي خطاب مرجعه أننا لم نقرؤه في ضوء مقامه وفي الوقت ذاته لم نؤسس خطابنا في ضوئه.

وهذه النظرية لا تدعي أنها ستعطي طرقاً جديدة للتمييز بين المعاني، لكنها ستبعد كل القراءات المضللة فتحول بيننا وبين مفاهيم خاطئة. ومن الواضح أيضاً أن المتلقي هو المرتكز الأساسي الوحيد في تعريفات البلاغة وعلومها الثلاث، فهو حاضرٌ دائماً لا يغيب، والاهتمام به واضح. فهو مَنْ يقنَص العبارة العذبة لهذا لو حاولنا إهماله في صوغ إنتاجية النص فإننا نكون قد حكمنا أصلاً بعدم قيمة العمل الأدبي.

بقي أن أقول إن البلاغيين العرب القدماء كانوا قد نبهونا إلى أن البلاغة لم تنضج ، ولم تحترق ، خلافاً لأكثر فروع العربية ، التي تم على أيديهم نضجها واحتراقها ، فهي لم تحترق لحاجة الإنسان لها ولم تنضج لأن الوسائل التي تعرض بها بحاجة إلى تجديد ويواكب ثقافة العصر الذي نعيش فيه؛ فالبلاغة من الفنون التي تتجدد بتجدد الحياة. فكأني بهم قد حملونا أمانة النظر فيما قالوه فيها وإنضاجه بالبحث والدراسة. لهذا لا بد أن تعود البلاغة إلى اعتبارها فنا يتطور بتطور الذوق وباتساع اللغة ، واتساع ضروب التعبير بها ، واتساع آفاق الثقافة العصرية.

μ

نحـــاول –في هذا الفصل– إبراز ضرورة التخلص من مبدأ الاستقلالية في ميادين الدراسة اللسانية اللغويـــة. فكما أنّ الصرف يطلب الصوت فإن النحو يطلب علم المعاني وعلم المعاني يطلبه، إذ إن علم المعاني هو نوع من النحو المقامي على مستوى الكلام الأدبي.

فالبلاغيون (أو من تغلب عليهم صفة البلاغيين) هم الذين احتفوا بهذا البعد المقامي للنحو.

فهذا فصل يطمح إلى إعادة تأسيس النحو، وإعادة ترتيب العلاقة بينه وبين المقامية البراغماتية محاوليـــن الإفـــادة من أقوال النحاة العرب القدامى ومحاولات المحدثين اللغويين. ويعتبر هذا النهج طريقة جديدة في التحليل اللغوي للتركيب يستطيع الدرس اللساني أن يفيد منه في بناء نظرية مقامية تقدّم تفسيراً مستأنفاً لكثير من الظواهر في المشهد اللغوي العربي.

فالـــنحو فـــي حاجة إلى أن يعاد فيه النظر لا لإسقاطه أو حذف بعض عناصره بل لبنائه على أســـس جديدة وكشف المسكوت عنه في نصوص النحو القديمة. لهذا لا بد من الاستفادة من المقامية البراغماتية في حل مشكلات النّحو.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فممـــا تجب ملاحظته أننا لا نقوم بالتحليل اللغوي لمجرد استكشاف مواقع الكلمات بعضها عن بعض، كأن نقول هذه الكلمة فعل صفته كذا، وهذه الكلمة فاعل أو مفعول أو غير ذلك.

كمـــا يمكننا القول إنّ دراسة النحو بالصورة التي تتم عليها والتي لا تعنى بغير سلامة الإعراب لا يمكن أن تؤدي إلى الغاية المرجوة منه بكفاية!

ولعل تعلق كثير من النحاة بتلك الناحية الشكلية وما يشبهها كان من أهم الأسباب التي أدت إلى الطعن في هذا العلم الذي نؤكد أهميته لا في صحة الكلام فقط بل في تحقق بلاغته بوصفه جانباً من الجوانب التي تتوقف فصاحة الكلام عليه.

فاهـــتمام الـــنحاة بقرينة الإعراب له ما يبرره فهي وسيلة من وسائل عرْض النحو وطريقة من طرائقه التي يعتقد مؤلفوه بنفعه وفائدته في عصرهم آنذاك.

ففي مرحلة معينة من التاريخ كان لا بد لهم من الاهتمام بالإعراب –وذلك في ظل تفشي ظاهرة اللحـــن– لأنهـــم خافوا على اللغة من الضياع. وكان الخطأ في ألسنتهم في عباراتهم عيباً كبيراً في المتكلم فكان عليهم الالتزام بهذا المبحث ومعرفة وجوهه حتى يتجنبوا الخطأ فظهر نحو الإعراب.

وفـــي مرحلة أخرى كان لا بد لهم أن يدخلوا الفلسفة في الدرس النحوي الذي حملت معها إليه نظرية العامل فكان نحو العامل.

وفي مرحلة لاحقة ظهر نحو المعاني، حيث كثر الجدل في قضية إعجاز القرآن الكريم فكان لا بـــد من الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية ونواحي إعجازها فدرسوا الأساليب العربية والمعاني البلاغية.

وفـــي الوقـــت الراهـــن أدرك المحدثـــون اللغويون أهمية الاستخدام الوظيفي للغة فظهر النحو الوظيفي وما لهذا النحو من أهمية تجعل مستخدم اللغة يستخدمها على الوجه الصحيح.

تم تطورت علوم الاتصال في عصرنا فكان لا بد أن يُصبغ النحو بهذه العلوم ويكون لدينا نحو المقام إلى جانب نحو الإعراب ونحو العامل ونحو المعاني والنحو الوظيفي . فالتركيب اللغوي أهم مظهر لغوي يعتمده الإنسان في عملية التواصل وما لهذا النحو من الأبلغية والتأثير على المتلقي.

ومـــن هنا نقول إن الصّلة قوية بين النحو والمقام الثقافي السّائد في عصر ما. فنحْوُ كل عصر يتـــبع العلوم التي يتعاطاها علماؤها ومثقفوها. وهذا ما فطن إليه السابقون "فالكل يؤلف بما يناسب عصره من الوجهة الثقافية في أيامه، وهو عندها يُلبّي حاجة طبيعية لأبناء عصره"[1]

ونحـــن هنا لا نريد أن نهمل الشكل بقدر ما نريد أن نتبع المنهج السليم في إيصال المفاهيم إلى المتلقـــي. فكأنـــنا أصـــبحنا نعـــيش في مثل عصر ابن مكي الصقلي " إذا سمعوا الصواب أنكروه ونافـــروه، لطول ما ألفوا فقْدَه، وركبوا ضده" [2] فلساننا فقد الفصاحة والصواب اللغويين وفي الوقت نفسه لا يعرف كيف ينبغي أن نتكلم في المقامات المختلفة.

وفي الصفحات القادمة سنحاول بيان ذلك من خلال دراسة العلاقة بين المعاني النحوية والمقام.

النحو في ضوء المقام

إن العـــبارات والمقولات التي عرضنا لها في الفصل السابق كشفت لنا مجال كل علم من علوم البلاغة كما حددت غاياته ومباحثه.

إذ ركـــز علـــم المعاني على الجانب الإيصالي منها، وركز علم البيان على الجانب الكشفي من البلاغة بينما ركز علم البديع على تحسين اللفظ وتزيينه.

---

[1] . **البلاغة عند السكاكي- أحمد مطلوب، ص (14).**

[2] . **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان- ابن مكي الصقلي، ص (42).**

ولا يمكــن تحقــيق ذلــك كله إلا بعد فصاحة القول أو بعبارة أخرى لا يمكن تشكيل الأساليب البلاغــية والصــور البيانــية والمعاني التعبيرية المعتمدة على المقام وارتباط هذه المعاني بعضها ببعض "إلا بوجود استراتيجيات جامدة تستند إلى المقام منها الصحة اللغوية" [1] فالحاجة إلى الصحة اللغويــة تكون أسبق من الحاجة إلى التنوع في طرق الأداء والسمو بالعبارة التي تعبر عن المعنى وغير ذلك من الأمور التي تهتم بها البلاغة من حُسن الدلالة ووضوحها. وهذا يشكل ملحظاً أساسياً عــند البراغماتــية، فهــي تغطي مجالات المعنى المشروطة بهذه الصحة[2] . لهذا فعلم البلاغة علم حــادث في الملة بعد علم العربية واللغة[3] لا يتأتي إلا بعد جملة من علوم العربية الأخرى التي تعد مقدمات ضرورية له وشرطا من شروط تحققه فشرط البلاغة صحة التركيب وفصاحة الكلام.

يقول القاضي عبد الجبار في المغني: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصوصة، ولا بُد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة .. وقد تكون هذه الصفة بالإعراب ... وقد تكون بالموقع" [4] .

ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها.

ويقــوم هــذا الضم على "أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً. أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر. أو تُتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بــدلاً مــنه أو تجيءَ باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالاً أو تمييزاً. أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنياً، فتُدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك. أو تــريد فــي فعليــن أن تجعل أحدَهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضُمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس" [5]

ومــن هــنا يتضــح أن " الرفع والنصب والجر والجزم ما دخلت إلا لتحدد مدلول الكلمة على المعنى المراد، ومناسبتها للمقام الذي سيقت فيه ، كل ذلك بأسلوب عربي رشيق رصين" [6]

---

[1]. Seven Sins of Pragmatics: Theses About Speech Act Theory, Conversational Analysis, Linguistics And Rhetoric, By Dorothea Franck, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics, by Herman Parret. p (233).

[2]. Possibilities And Limitations Of Pragmatics, by Herman Parret, introduction, p (2).

[3] . المقدمة - ابن خلدون، ص (519).

[4] . المغني- القاضي عبد الجبار ، ج 16، ص (199).

[5] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (45).

[6] . البلاغة وقضايا المشترك اللفظي- عبد الواحد الشيخ، ص (11).

فالفصـــاحة ليست في اللفظ وليست في المعنى منفرداً إنما هي في النظم، والنظم وضع الكلمات في الســياق والمقــام الملائميــن لهــا. فلم يزل للنظم سلطانه على كل المقاييس الأخرى فهي تابعة له ومرتبطة به مع ما لها من قيمة ذاتية "فلا قدْر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بَلَــغ وَبَــتَّهم الحُكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قِوام إلا به، وأنه القُطْبُ الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال" [1]

وليس النظم " إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعــرف مناهجه التي نُهجَت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمت لك فلا تُخِلُّ بشيء منها"[2] أو بعبارة أخرى لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

فالــنظم والنحو عند عبد القاهر اسمان لمفهوم واحد، فليس النظم شيئاً غير النحو كما أنّ النحو هو مراعاة قواعد النظم، وإنما يحسن هذا النظم بحسن التخير والانتقاء لهذه المعاني النحوية بحيث تلائم المقام المناسب وتطابق الغرض المقصود فتجوز مرتبة الصحة إلى مراتب في الحسن تتفاوت بتفاوت التوفيق في الربط بين هذه المعاني والأغراض المقصودة من الكلام.

فالــنحو لا بد من دراسته ومعرفة معانيه وإدراك الفروق بين هذه المعاني وجعله مقياساً لغوياً تعرف به فصاحة الكلام، فدراسته مفتاح كشف العلاقات التركيبية المفضية إلى الدلالة على مواطن الجمــال أو القبح، وهو المفتاح الذي يفتح أبواب البلاغة. ففي ضوء دراسة هذه التراكيب في المقام تفطن علماء البلاغة إلى أهمية العلاقة القائمة بين علمي النحو والمعاني.

يقــول الســكاكي: إن "علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعــنى مطلقــاً بمقايــيس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب" [3]

أمــا علــم المعاني " فهو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره" [4] وتراكيب الكــلام خــيار شكلي لا يأتي من فراغ بل يتحكم فيه علاقة المتكلم بالمتلقي وبمقام التلفظ، فإننا لا نســتطيع أن ننظر إلى هذه التراكيب خارج هذه الأطر الثلاثة (المتكلم والمتلقي والمقام) ففي هذين

---

[1] . **دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني، ص (59). والبت : القطع.**

[2]. **المصدر السابق، ص (60).**

[3] . **مفتاح العلوم- السكاكي، ص (125).**

[4] . **المصدر السابق، ص (247).**

التعريفيـــن يـــبرز جلـــياً مـــدى العلاقة بين دراستي النحو والمعاني. فعلماء المعاني يصلون طرق التركيـــب وخواصـــه بالمقام، حيث ركز علماء المعاني على أهمية المقام في تحديد طرق التركيب التي هي من صميم الدرس النحوي.

لهـــذا دعـــا المحدثـــون العرب إلى مزج معطيات النحو بعلم المعاني والمقامية البراغماتية. فأنكر إبراهيم مصطفى على النحاة عنايتهم بالإعراب دون (الأساليب أو النظم)، ورأى أن البحث النحوي ينبغي أن يمتد فيتناول المعاني البيانية كما يتناول الأشكال الإعرابية.[1]

ويـــرى تمـــام حسان أنّ النحو العربي أحوج ما يكون إلى أنْ يدّعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى علم المعاني[2].

ومـــيّز أحمـــد المـــتوكل بين الوظائف التداولية والوظائف التركيبية والأدوار الدلالية، في أن الأولـــى علاقات تقوم بين مكونات الجملة بالنظر إلى المقام، أي علاقة المتكلم بالمخاطب والوضع التخابري بينهما في طبقة مقامية معينة، وخلص إلى أن المبتدأ وظيفة تداولية تتحدد حسب المقام.[3]

وســـعى بعـــض الدارســـين إلـــى ضرورة ربط البراغماتية بعلم التراكيب اللغوية، فأخذ بعين الاعتـــبار خصـــائص الخطـــاب والتلفظ في إطار الإستعمال والإنجاز اللغوي. ونظر إلى التراكيب كملفوظـــات فـــي المقـــام موظفـــة لإنجـــاز أعمال معينة. ثم طرح بعض التراكيب الإنشائية: مثل اعتذاراتـــي، تحياتي، تشكراتي، تهاني، صباح الخير، ممنوع الوقوف، أنت مطرود... ورأى أنه لا يمكننا أن نتصور أنّ لها قيمة العمل إلا في إطار بعض المقامات الخاصة بها في الحياة اليومية.[4]

وذهـــب ســـعد مصلوح إلى أنّ النحو المقامي تعود جذوره إلى سيبويه، وصارت قسماته أكثر تحديداً لدى عبد القاهر الجرجاني والسكاكي.[5]

---

[1] . إحياء النحو- إبراهيم مصطفى، المقدمة.

[2] . اللغة العربية معناها ومبناها- تمام حسان، ص (336). وينظر: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة

تمام حسان، ص ص (26) ، (29).

[3] . الوظائف التداولية في اللغة العربية- أحمد المتوكل، ص (116).

[4] . البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية- عثمان بن طالب، ضمن أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، ع6، 1986م ، ص ص (132 -133).

[5] . العربية من "نحو الجملة" إلى "نحو النص" - سعد مصلوح ، ضمن الكتاب التذكاري لجامعة الكويت (دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون) إعداد وديعة طه النجم ،عبده بدوي (1990م) ص (418).

ويــرى محمد صلاح الدين الشريف في بحثه "تقديم عام للاتجاه البراغماتي" عند أعلام هذا الاتجاه "أفكاراً يحسن بنا استعمالها لإعادة قراءة تراثنا البلاغي والنحوي" [1]

ويعتــبر بحث نهاد الموسى نموذجاً متقدماً لدراسة الأبواب النحوية في ضوء المقام، فرأى أنّ المقــام "أصل مستأنس لديهم باطراد، مُستشعر في تحليلاتهم على نحو يمثل استخراجُه إحياءً لأصْل مــن أصــولهم صــدروا عنه" [2] ثم رأى أن أمثلة النحاة وتطبيقاتهم لهذا البعد متواردة متكاثرة فهم "متلاقون على جمهرة هذه الأمثلة والتطبيقات"[3] .

فــرأى نهــاد الموســى أن المخاطــب عندهم يمثل أحد أعمدة الموقف الكلامي وتصبح فائدة المخاطــب معياراً لصحة الكلام،[4] ويُشْبه عِلمُ السامع أن يكون مُسَوّغاً ثابتاً للحذف،[5] وتشكل الحال المشــاهدة كذلــك مســوغاً ثابتاً للحذف[6] عندهم. ثم إن تغيُّر صفات الخطاب وعناصره يكون وَفقاً لمــنزلة المخاطــب والأحــوال التي تعتريه، فتتدخّل عناصر الخطاب ومقاصده في تحديد القاعدة النحوية تدخلاً أساسياً[7] ، كما تتدخل حال المخاطب في تحديد الاختيار النحوي[8] ثم توقف النحاة إلى حقــيقة المتكلم وحاله وكشفوا عن علاقتها بحقيقة الكلام وأحواله[9]، فتنضبط معاني النحو وأعاريبه عندهم بضوابط من أحوال المتكلمين كالشيخوخة والعدم والعمر[10] ، واستقصى النحاة أعراضاً كحال المــتكلم فــي مواقــف الخطــاب حتى ما يعترضه في ذاكرته من توقف[11]. ومثّل الاختبار الثقافي المشــترك بين أهل اللغة ملحظاً إضافياً في ضبط قواعدهم[12] كما علل النحاة بعض أصولهم بأصول مــن العقــيدة[13]. وفــي نهاية بحثه قدم نهاد الموسى لنا أمثلة تصلح مقدمة في إعادة النحو العربي

---

[1] . تقديم عام للاتجاه البراغماتي- محمد صلاح الدين الشريف، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، ص (116).

[2] . الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، م4، ع1، 1985م، ص (12).

[3] . المصدر السابق، ص (28)

[4] . المصدر السابق، ص (14)

[5] . المصدر السابق، ص (15)

[6] . المصدر السابق، ص ص (20-21)

[7] . المصدر السابق، ص (17).

[8] . المصدر السابق، ص (17).

[9] . المصدر السابق، ص (18).

[10] . المصدر السابق، ص (18).

[11] . المصدر السابق، ص (19).

[12] . المصدر السابق، ص (19).

[13] . المصدر السابق، ص (20)، للإطلاع على أمثلة النحاة مما أوردناه في المتن ينظر: بحث نهاد الموسى : الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية- ص (9-31)

وتفسيره أخذاً بالمقام[1]، وانتهى إلى أنّ المقام يمثل نقطة التقاء مشترك بين أعمال النحاة وأعمال البلاغيين ثم يفترقون، وهكذا يصبح المقام "أصلاً" في النحو على مستوى و"أصلاً" في البلاغة على مستوى آخر[2] ولعلنا بهذا الالتقاء نحدد منطقة الأعراف بين النحو والبلاغة[3].

وحقاً أنّ المقام يمثل نقطة التقاء مشترك بين أعمال النحاة وأعمال البلاغيين ثم يفترقون وهكذا يصبح المقام أصلاً في النحو على مستوى وأصلاً في البلاغة على مستوى آخر[4].

ولعلنا بهذا الالتقاء نحدد منطقة الأعراف بين النحو والبلاغة التي تحدث عنها نهاد الموسى "[5] فهذه الأقوال تؤكّد ارتباط البلاغة بالنحو ارتباطاً وثيقاً لأنها تبدأ مهمتها من حيث تنتهي مهمة النحو، فإنه إذا كان قد عرض لصور الكلام وتراكيبه التي لا تخرج عن معنى من معاني النحو والتي لا يمكن أن تنتهي عند حد وحُكِمَ عليها بالصحة، عندها ستختار البلاغة الصور الصحيحة التي يمكن التعبير بها عن الغرض الواحد أنسبها للمقام وإن اتفقت جميعُها في أنها صحيحة. وهذه المهمة في نظر عبد القاهر ليست مهمة نحوية على أي حال.

فإن رُمنا بعض التفصيل فيجدر بنا أن نعرض للتراكيب بشكل أكثر تفصيلاً؛ يقول عبد القاهر الجرجاني: "فإنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، **فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك:**

زيد منطلق

و زيد ينطلق

و ينطلق زيد

و منطلق زيد

و زيد المنطلق

و المنطلق زيد

و زيد هو المنطلق

و زيد هو منطلق

---

[1] . **الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية- نهاد الموسى، ص (23-28).**
[2] . **المصدر السابق، ص (28).**
[3] . **المصدر السابق، ص (28).**
[4] . **منزلة السياق في نظرية النحو العربي- نهاد الموسى، ضمن كتاب الصورة والصيرورة، ص (147).**
[5] . **المصدر السابق، ص (147).**

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك:

إنْ تخرج أخرج

و إنْ خرجتَ خرجتُ

و إنْ تخرج فأنا خارج

و أنا خارج إن خرجتَ

و أنا إن خرجت خارج

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك:

جاءني زيد مسرعاً

و جاءني يسرع

و جاءني وهو مسرع

أو وهو يُسرع

و جاءني قد أسرع

و جاءني وقد أسرع

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فيعرفَ لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

ويـــنظُر فـــي الحـــروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن:

يجيء بـــ (ما) في نفي الحال

و بـــ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال

و بـــ (إنْ) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون

و بـــ (إذا) فيما علم أنه كائن

ويـــنظرَ في (الجمل) التي تُسْرَد فيعرفَ موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقُّه الوصل:

موضع "الواو" من موضع "الفاء"

و موضع "الفاء من موضع "ثم"

و موضع "أو" من موضع "أم"

و موضع "لكن" من موضع "بل"

ويتصرف في :

التعريف والتنكير

والتقديم والتأخير في الكلام كله

وفي الحذف والتكرار

والإضمار والإظهار

فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.. فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له"[1]

وهكذا يتضح أن عبد القاهر اهتم بصناعة الكلام وهندسته على الطرق الصحيحة وبكل ما يميز كلاماً عن كلام وعُني بالفروق الدقيقة لمواقع الألفاظ والربط بينها وبين المعاني والأغراض والمقامات التي جاءت لتعبر عنها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وحُسْن الكلام لا يكون عنده إلا "بسبب الأغراض والمعاني التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"[2] وما الأغراض والمعاني إلا مقامات الكلام.

وفي إطار علم المعاني يجمع السكاكي جل مباحث النظم عند عبد القاهر الجرجاني مضيفاً إليها أخرى في إطار فكرة المقام. فهو يتعامل مع هذه المباحث بوصفها (مقتضيات) فأصبح مقياس الكلام في باب الحُسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به المقام أو مقتضى الحال" فإن كان:

مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة. وإن كان مقتضى الحال طيَّ ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إذا كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عارياً عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها.

---

[1] . **دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص ص (60- 61).**
[2] . **المصدر السابق، ص (64).**

وكــذا إن كــان المقتضــى عــند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب أعنى طي جمل عن البين ولا طيها، فحُسن الكلام تأليفه مطابقاً لذلك"[1]

هكــذا يُجْمل السكاكي مقتضيات الأحوال أو المقامات التي ترد فيها أنواع الأساليب بما تحويه مــن خــواص تركيبية في الجملة. فكل تركيب لغوي يجيء به المتكلم ليس إلا رافداً للمعنى الذي يــرومه فهو مرتهن بالمقام الذي يحدد نوعية المقال. ولقد استطاع علماء المعاني بتوجيه اهتمامهم إلــى معــنى (المقام، مقتضى الحال) في دراسة التركيب أن يضيئوا جانباً هاماً من جوانب الدرس النحوي طالما افتقر إليه. بل إن الخطيب القزويني يساوي بين مطابقة الكلام لمقتضى الحال والنظم عــند عــبد القاهــر الجرجاني إذ يقول: "وهذا –أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال– هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم"[2]

فهــذه الأقوال تؤكد مقولة أن النحو لم يعد مجرد قواعد وقوالب جامدة تطبق، بل أصبح مجالاً للاختــيار، وفي الاختيار مكمن الحسن والتفاضل، فمرجع الفضل أمر ثالث غير الإعراب ومعرفة القواعــد الــنحوية، وإنما هو في معرفة مدلول العبارات ومتى يستخدم التركيب المناسب في مقامه الأخص به، ثم الانطلاق من هذه القاعدة المحددة إلى مجالات التطبيق التي شملت كل فنون القول:

ولذلــك فإن البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر... يُحسن النظم كما لم يُحسنه المتقدم في علم النحو، "لأنه يعرف الفرق بين أن يقول:

جاءنــي زيــد راكباً، وبين قوله جاءني زيد الراكب، ولا يضره أن يجهل عبارة النحويين بأن يقولــوا فــي (راكــب) إنه حال، وإذا قال: (الراكب) كان صفة جارية على زيد، ولأنه يعرف في قولهــم: زيــد منطلق، أن "زيداً" مُخبَر عنه و"منطلق" خبر، ولا يضره أنْ لا يعلم أنا نسمي "زيداً" مبــتدأ.. ولو كان العلم بهذه العبارات يمنعه العلم بما وضعناها له، وأوردناه بها، لكان ينبغي أن لا يكون له سبيل إلى بيان أغراضه، وأن لا يفصل، فيما يتكلم به، بين نفي وإثبات، وبين (ما) إذا كان اســتفهاماً، وبينه إذا كان بمعنى "الذي" وإذا كان بمعنى المجازاة ، لأنه لم يسمع عباراتِنا في الفرق بين هذه المعاني[3].

فالــبدوي كــان يعــرف أن لكــل موضع أو مقام تعبيره المناسب فيرتب ألفاظه ويصوغها حسب مقتضاه. فيفرق بين الأساليب المتنوعة.

---

[1] . مفتاح العلوم- السكاكي، ص ص (256- 257).
[2] . الإيضاح- الخطيب القزويني، ص (87) .
[3] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (266).

والدلـــيل على ذلك أن أعرابياً سمع مؤذناً يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله (بالنصب) فأنكر وقـــال: صـــنع ماذا ؟ فهل أنكر هذا الأعرابي "عن غير علم أن النصب يخرجه عن أن يكون خبراً ويجعله والأولَ في حُكْم اسم واحد، وأنه إذا صار والأول في حُكْم اسم واحد، احتيج إلى اسم آخر، أو فعـــل، حـــتى يكون كلاماً، وحتى يكون قد ذكر ما له فائدة، وإن كان لم يعلم ذلك، فلماذا قال : "صنع ماذا ؟" فطلب ما يجعله خبراً"[1]

ومن ذلك أيضاً أن الأصمعي كان يقرأ قوله تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[2]

فقـــرأ ســـهواً **(وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** فسمعه أعرابي كان معه فقال له: كلام من هذا؟ فقال الأصمعي: كـــلام الله. فقال الأعرابي: أعد فأعاد الأصمعي **(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** ثم تنبه فقال **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** فقال الأعرابي : الآن أصبت فقال الأصمعي : كيف عرفت ؟ قال الأعرابي: يا هذا ! عزيز حكيم فأمر بالقطع. فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع[3].

ومنه أنّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ (**فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[4] ولم يكن يقرأ القرآن، سمعه يقرؤها (**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) فقال الأعرابي : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه[5].

ورُوي أن الرســـول ρ أملـــى على زيد بن ثابت قوله تعالى : **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ....**[6]) فقال معاذ بن جبل (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**) فضحك رسول الله ρ ، فقال معاذ: مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت[7].

لكـــن لـــيس كل فرد مؤهلاً لأن يدرك الفروق بين الأساليب المتنوعة التي يمكن أن يكون عليها نظم الكلام، لا سيما إذا دارت حول معانٍ متقاربة حيث يختلط الأمر، فنرمي اللغة بالعيب، والعيب فيـــنا. فهـــذا يعقوب بن إسحاق الكندي يذهب إلى أبي العباس ويقول له: "إني لأجد في كلام العرب

---

[1] . دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني، ص (266).
[2] . سورة المائدة - آية (38)
[3] . التفسير الكبير- الرازي، ج11 ص (229).
[4] . سورة البقرة - آية (209)
[5] . الإتقان في علوم القرآن- السيوطي، ج2، ص (129).
[6] . سورة المؤمنون- آية (12-14)
[7] . الإتقان في علوم القرآن- السيوطي، ج2، ص (129) .

حشـــواً ، فقال أبو العباس: في أي موضع وجدتَ ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون: "عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله لقائم". فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال له أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم :

"عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه.

وقولهم: "إن عبد الله قائم"، جواب عن سؤال السائل.

وقولهم: "إن عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامَه.

فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني.. "وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوبَ مستفهم أو معترض فما ظنُّك بالعامة ومن هم في عِداد العامة ممن لا يخطر شِبْهُ هذا بباله"[1]

ومنه قول بشار بن برد:

بكّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجير إنَّ ذاك النجاحَ في التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت مكان إنَّ ذاك النجاح في التبكير :

بكّرا فالنجاحُ في التبكير

جميع الحقوق محفوظة

كـــان أحسنَ، فقال بشار: "إنما بَنَيْتُهَا أعرابية وحشية، فقلت : إنَّ ذاك النجاحَ في التبكير ، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكّرا فالنجاحُ، كان هذا من كلام المُوَلَّدين، ولا يُشبه ذاك الكلام، ولا يدخـــل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبّل بين عينيه"[2] ، فمقام كلام الأعراب البدو يختلف عن مقـــام كـــلام المولديـــن، فجاء شعر بشار ليلائم مقام كلامهم. ويرى لطفي عبد البديع أن اختلاف الأداتين "الفاء" و "إنّ" يباين بين فكرتين ويمايز بين طبقتين من طبقات القول البليغ، مع الفاء يصير الكـــلام مولّـــداً هجيـــناً، ضعيف النسب، وبـــ "إنّ" يصبح أعرابياً وحشياً منسوجاً على فكر أصيل، ورؤيـــة أكـــثر نفـــاذاً. إن ضعف البنية مع الفاء مساوق لضعف النسب ، والنسب عند العرب قوة، ولهذا إذا قدم الرجل على قوم قالوا له انتسب حتى نعرفك فكأنه خارج النسب لا وجود له[3].

فهـــذه الملكـــة عندما يفقدها المتلقي تشتبه عليه الأمور، فلا يعرف أقدار الكلام، ولا يميز بين طبقاته، وإذا دلّه أحد على المزية وموطن الحسن في نظم دون نظم، تساءل كيف تتصور المزية في كلام دون كلام ومعاني النحو واحدة.

---

[1] . **دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (206).**

[2] . **المصدر السابق، ص (179).**

[3] . **عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب- لطفي عبد البديع، ص (105).**

إن هــذا المتلقــي لا يجهل اللسان العربي ولكنه غير ملم به الإلمام كله فهذه المعاني ليست مما يدرك بالنظر المجرد، وإنما يتطلب إدراكها وتمثلها "إعادة النظر" والتأمل والفكر والروية والتذكر.

فإدراكهــا مثل نظمها يستوجب جهداً ومشقة وعملاً من قبل المتلقي. ولهذا يحتاج إلى من يوقفه على أسرار هذا اللسان ودقائقه.

فالغايــة من كل ذلك هو تعليم المتلقي الناقص العربية، فيعلم وجوه التراكيب النحوية فيميز بين تركيــب وآخــر ويعــرف وجــوه فضل بعضها على بعض، ويعرف أن للمعاني النحوية مواضع ومقامات وأحوالاً خاصة تقتضيها، وأنها المرتكز الأساسي للوصول إلى المعنى المراد.

ناهــيك عن أن الجاهل بهذه المعاني لا يمكنه أن يعبر بصدق عن المعنى الذي يقصده وبهذا لن نصل إلى مراده الذي يريده.

وصفوة القول أن النحو يَمُد المتكلم بأنماط مختلفة للكلام تتماشى مع مختلف الأغراض الممكنة وعلــى المــتكلم أن يخــتار منها ما يوافق مراده ويلائم المقام فيقدم ويؤخر ويعرّف وينكّر ويذكر ويحذف ويفصل ويصل.. وعندها سيصل المتكلم إلى غرضه.

وبهذه الجوازات يكون المتكلم هو المتحكم في تركيب الكلام، ففي:

– مقام التقديم والتأخير:

يقــدم المــتكلم شــيئاً، ويؤخر آخر في تركيب واحد، فنجد الفرق واضحاً بين التركيبين في المعنى فقولك:

أفعلت ؟

فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وإذا قلت:

أأنت فعلت ؟

فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل مَنْ هو وكان التردد فيه[1] .

ومنه قولك :

أأنت كتبت القصة ؟

أكتبت أنت القصة ؟

[1] . **دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (80).**

تجد الجملتين ذواتي مفردات واحدة، ولكن التقديم والتأخير عملا فيهما عملهما، فأديا إلى تفاوت في معنييهما.

فالمتكلم في الجملة الأولى "يشك في كاتب القصة" وهو في الثانية يشك في حصول كتابة القصة هل وقع حقيقة.

وقولهم:

"قتل الخارجيَّ زيدٌ"

و "قتل زيدٌ الخارجيَّ"

فننظر هنا في حال المقتول "الخارجيَّ" فإذا كان يعيث ويفسد ويكثر به الأذى، فإنهم يريدون قتله ولا يبالون مَنْ كان منه القتل ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قُتل وأراد مريدٌ الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجيّ فيقول:

"قتل الخارجيَّ زيدٌ"

ولا يقول:

"قتل زيدٌ الخارجيَّ"

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة"[1]

والشيء نفسه يقال في التراكيب التالية:

- استقبلت الجماهير العربية فشل القمة العربية ببالغ الحزن والأسى.
- الجماهير العربية استقبلت فشل القمة العربية ببالغ الحزن والأسى.
- استُقبل فشل القمة العربية ببالغ الحزن والأسى.
- فشل القمة العربية استُقبل ببالغ الحزن والأسى.

ومن هنا لا تعتبر هذه الجمل مترادفة المعنى أو هي مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية الأولى. بل هي أساليب خطاب ينتقيها المتكلم في المقامات المناسبة والأحوال اللائقة.

يقول عبد القاهر الجرجاني في مثل هذا المقام –مقام التقديم والتأخير– "وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال: إنه قُدّم للعناية، ولأنَّ ذكرَه أهم، مِنْ غير أنْ يُذكَر، مِنْ أين كانت تلك العنايةُ ؟ وبمَ كان أهم ؟ ولتخيُّلهم ذلك، قد صَغُر أمرُ "التقديم والتأخير" في نفوسهم، وهوَّنوا الخَطْبَ

[1] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (78).

فــيه، حــتى إنك لترى أكثرَهم يرى تَتبُّعَه والنظرَ فيه، ضرباً من التكلف، ولم تر ظنّاً أزْرى على صاحبه من هذا وشبهه"[1]

فليس ثمة تركيب لفظي وتركيب لفظي فرعي، كما لا يوجد معنى أصلي وآخر فرعي إذ إن كل ترتيب في الألفاظ والمعاني يعكس وضعاً خاصاً من أوضاع المقام.

ويتابع عبد القاهر قوله: "وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في "الحذف والتكرار" و"الإظهــار والإضمار" و"الفصل والوصل"، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلا نظرَك فيما غــيرُه أهمُّ لك، بل فيما إن لم تعلمْه لم يَضُرَّك.. أو ليس هذا التهاونُ –إنْ نَظَر العاقل– خيانةً منه لعقله ودينه، ودُخولاً فيما يُزْري بذي الخطر، ويغُضُّ من قدْر ذوي القدْر"[2]

ومن الجوازات التي تحتفظ بها اللغة العربية، ميزة "الحذف والإضمار" وهي ميزة يشبهها الجرجاني بــ"السحر" "لأنَّ تَرْك الذّكر أفصح من الذكر"[3] ويمثل لذلك بصور من المبتدأ أو المفعول[4].

فمثلاً أدرك عبد القاهر مواضع ومقامات الحذف عند تناوله الدقيق لصور حذف المفعول وتتبع الأسباب والدوافع الكامنة وراء كل صورة من صُوره وأنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه[5].

فقــد يتطلب المقام الحذف والإيجاز ولا يتطلب الذكر والإطناب، مثال ذلك ما ذكره عبد القاهر فــي قولــه تعالى: (**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** (24)) [6]

ففــي هــذه الآية حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى وجد عليها أمة من الناس يسقون أغنامَهُم أو مواشِيَهم، "وامرأتين تذودان" غَنَمهما، وقالتا : لا نسقِيَ غنمنا، "فسقى لهما" غَنَمَهما.

فالمقام هنا لا يحتمل الإطناب، وهو مفهوم من التركيب اللغوي ويتمثل في ازدحام الناس على الماء وعــدم قــدرة الفتاتين على مزاحمة الرعاة الأقوياء لضعفهما، لذا جاء حذف المفاعيل، وجاء الفعل مطلقــاً غير مقيد، لأن الهدف هنا ليس في المسقي كأن يكون غنماً أو إبلاً، وإنما في السقي، فجاء الحذف لأن الغرض لا يصح بالذكر وإنما بالترك[7].

---

[1] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (78).
[2] . المصدر السابق، ص ص (78-79).
[3] . المصدر السابق، ص (100).
[4] . المصدر السابق، ص ص (100-117).
[5] . المصدر السابق، ص ص (105-117).
[6] . سورة القصص- آية (23-24).
[7] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص ص (109-110).

ومن مقامات حذف المفعول به أيضاً:

مقام تعلق الغرض بذكره.

- مقام رفع ما يوهم في أول الأمر خلاف المقصود.
- مقام إفادة التعميم مع الاختصار.
- مقام تحقيق البيان بعد الإبهام.
- مقام استهجان المفعول.
- مقام التمكن من إنكاره عند الحاجة إلى هذا الإنكار.[1]

وقــد أشار النحاة الأوائل إلى عامل آخر يدل على المحذوف، وهو الإشارات وتقسيمات الوجه. ومن ذلك قول ابن جني في قول نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي.

تقول –وصكَّت وجَهها بيَمينها– أبَعْلي هذا بالرّحــى المتقاعِــسِ

فلو قال حاكياً عنها: "أبعلي هذا بالرحى المتقاعس" من غير أن يذكر صك الوجه، لأعلمنا بذلك أنها كانــت متعجِّــبة منكِرة، لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها" عُلِم بذلك قوة إنكارها وتعاظُم الصــورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غيرُ مشاهِد لها، ولو شاهدتها لكنت أعرف، ولِعِظَم الحــال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: (ليس المُخبَرُ كالمعايَنِ)"[2] ويقول ابن جني: "وليست كل حكاية تُروى لنا، ولا كل خبر يُنقل إلينا، يُشفع به شرحُ الأحوال التابعة له المقترنة –كانت– به"[3]. " ولو نُقلت إلينا لم نُفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها... فلو كان استماع الأُذُن مغنياً عن مقابلة العين مجزئاً عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبَه الإقبالَ عليه والإصغاء إليه"[4]. وقد قيل:

العين تُبدي الذي في نفس صاحبها من العــــداوة أو وُدٍّ إذا كـــــانا

وقالوا أيضاً: "رُبّ إشارة أبلغ من عبارة".

وقال أحد المشايخ: "أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة"[5]

وأكّــد ابــن هشام على اعتبار الإشارة عنصراً من عناصر الكلام، فهو في تعريفه للكلام قال: "ما تحصل به الفائدة، سواء كان لفظاً أو خطاً أو إشارة أو ما نطق به الحال"[6]

---

[1] . **للمزيد من الإيضاح- ينظر البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص ص (235-247).**
[2] . **الخصائص- ابن جني، ج1، ص ص (245-246).**
[3] . **المصدر السابق، ص (246).**
[4] . **المصدر السابق، ص ص (246-247).**
[5] . **الخصائص- ابن جني، ج1، ص (247)**
[6] . **شرح شذور الذهب- ابن هشام، ص (8).**

والدراسات الحديثة أولت عناية خاصة بهذا المقام –الاتصال الشفهي وجهاً لوجه– فاهتموا به لما لـــه من أثر في الإبانة عن المعنى. ففي الاتصال الشفهي وجهاً لوجه فكل ما يُقال يُسمع في اللحظة ذاتها، وهذا يعمل على تحديد إمكانيات واحتمالات ما كان من الممكن ألا يقال مما قيل من الكلمات وكيفية قولنا لهذا الكلام ثانية[1].

وقـــد تنبه سيبويه قبل ابن جني إلى أهمية معرفة سياق الحال الذي استند على حاسة البصر أو على حاسة السمع والبصر معاً. عندما وقف عند عبارات مختصرة محكية عن العرب.

فمـــثال النوع الأول قوله: "وذلك قولك إذا رأيتَ رجلاً متوجِّهاً وِجْهَةَ الحاجّ، قاصداً في هيئة الحاج، قلت: مكة وربِّ الكعبة، حيث زَكِثتَ أنه يريد مكة، كأنك قلت : يريد مكة والله"

ومثله إذا "رأيت رجلاً يسدد سهماً، قِبَلَ القِرطاس فقلتَ: القِرطاس والله، أي يصيب القرطاس"[2] ومنه قولـــه : أقائماً وقد قعد الناس. وأقاعداً وقد سار الركب. "وذلك أنه رأى رجلاً في حال قيام أو حال قعـــود. فأراد أن ينبهه فكأنه لفظ بقوله: أتقوم قائماً، وأتقعد قاعداً ولكنه حذف استغناء بما يرى من الحال"[3].

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومـــن ذلـــك أيضاً قوله: أتميمياً مرة وقيسياً أخرى ؟ وإنما هذا أنك رأيت رجلاً في حال تلوُّن وتنقل، فقلت:

أتميمـــياً مرة وقيسياً أخرى ؟ فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال فـــي تلون وتنقل، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به لِيُفَهِّمَه إياه وَيُخْبِرَه عنه، ولكنه وبَّخَه بذلك[4] .

ومـــثال الثاني قوله: "ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال، وأنت منهم بعيد فكبروا، لقلت : الهلالَ وربِّ الكعبة، أي أبصروا الهلال"[5]

فكـــتاب سيبويه كثيراً ما يشير إلى مقام الحال باعتباره عنصراً يؤثر في الشكل النحوي. فيشير إلى هذه الأنماط التعبيرية المسموعة عن العرب باستعادة سياق الحال الذي ولدت فيه أي المقام

---

[1] . Seven Sins of Pragmatics; Theses About Speech Act Theory, Conversational Analysis, Linguistics And Rhetoric, By Dorothea Franck, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics, by Herman Parret , P (235).

[2] **. الكتاب - سيبويه، ج1، ص (257).**
[3] **. المصدر السابق، ص (340).**
[4] **. المصدر السابق، ص (343).**
[5] **. المصدر السابق، ص (257).**

الذي قيلت فيه[1].

ومـــن الواضـــح أصلاً أن سيبويه قبل أن يقسم القول في المرفوع والمنصوب والمجرور، أقام تحلـــيله اللغـــوي والنحوي على مقولة "لكل مقام مقال". وهل قالوا : كلام مستقيم وكذب ومحال إلا وغرضهم أن يعبروا عن ملاءمة المقال للمقام.

يقول سيبويه: (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة) ؛ فمنه:

مستقيم حسن

و محال

و مستقيم كذب

و مستقيم قبيح

وما هو محال كذب

أما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسآتيك غداً.

وأما المحال، فأن تنقضَ أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك:

قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس"[2].

فســـيبويه بهذا التقسيم –برأينا– لا يبعد عن الأسلوب اللغوي ومقامه في أدق ملامحه وإن لم يسمه باســـمه. فـــالكلام : مستقيم وكذب ومحال ليس بمجرد أنه مؤلف من حروف أو أصوات متوازنة، وإنما (المقام/ سياق الحال) من أسبغ عليه مثل هذه الصفات.

والأمـــر كذلك في كثير من مسائل النحو؛ فمقام الحصر والتخصيص يؤثر أسلوباً معيناً دون غيره لتحقيق المعنى المراد.

قال الله تعالى: **(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)** [3]

---

[1] **. ينظر: المقام في التحليل النحوي عند سيبويه كتاب : نظرية النحو العربي – نهاد الموسى ، ص ص (88-98).**

[2] **الكتاب - سيبويه، ج1، ص ص (25- 26)**

[3] **. سورة آل عمران- آية (144).**

وقوله تعالى: (مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)[1]

نجـد فـي الآية الأولى كلمتي "محمد" و "رسول" يأتي كل منهما في مرتبة الآخر، لكن لما كان المقـام مقـام حصر وتخصيص التزم كل منهما رتبته الأصلية فلا يجوز تأخير المبتدأ (محمد) إلى مرتبة الخبر (رسول) ولا يجوز العكس لأنه حينئذ ينقلب المعنى ، إذ هناك فرق بين قولنا :

(ما محمد إلا رسول)

و (ما رسول إلا محمد)

فالتعبير الأول فيه قصر للموصوف (محمد) على الصفة (الرسالة) أن محمداً رسول فحسب.

والتعبير الثاني فيه قصر للصفة على الموصوف، أي أنه ليس هناك من رسول سوى محمد.

ولمـا كـان المعنى يغير مرتبة كل منهما، ولما كان المقام يُؤثر معنى معيناً من أحد المعنيين، التزم كل من المبتدأ والخبر رتبته التي حددها له المعنى.

أما مقام الفصل والوصل فقد خصص له عبد القاهر الجرجاني فصلاً طويلاً نبّه فيه على أهميته وذكر مواضعه[2].

جميع الحقوق محفوظة

انظـر قوله تعالى: (**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)**)[3]

ففي قوله تعالى (**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**)، استُخدم أسلوب الفصل دون الوصل لئلا يكون قوله : (**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**) من مقول المنافقين ، ولأن جملة (قالوا) مقيدة بوقت خلوهم إلى شياطينهم، وجملة (**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**) غـير مقيدة بهذا القيد، ولو وصلت لشاركت الثانية الأولى في حكمها وقيدها، وصـار المعـنى أن اسـتهزاء المنافقيـن بهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم، مع أن المعلوم أن استهزاء الله بهم دائم في كل حال ولأجل ذلك وجب استخدام أسلوب الفصل لأنه مقامه.[4]

وبحـث الجرجانـي أسلوب العطف وأوضح أن "ليس الفضل للعلم بأن "الواو" للجمع و"الفاء" للتعقيب بغير تراخ و"ثم" له بشرط التراخي، و"إن" لكذا و"إذا" لكذا"، ولكن المزية حُسن التخير "وأن تعـرف لكـل مـن ذلك موضعه"[5] فنظروا إلى العطف النحوي من منظار مقامي، فأظهروا معاني حـروف العطـف ضـمن المقام وما تؤديه من حُسن بيان وتصوير نتيجة إظهار مزية موقع هذا

---

[1] . سورة المائدة- آية (85).
[2] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص ص (148-164).
[3] . سورة البقرة- (14-15)
[4] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (154).
[5] . المصدر السابق، ص (165).

الحـــرف أو ذاك وحســـن استخدامه في هذا المقام. ويقول ابن الأثير: "وهذا موضع لطيف المأخذ، دقـــيق المغـــزى، وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرّض إليه، ولا ذكره، وما أقول إنهم لم يعرفوه، فإنّ هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى، لأنه مذكور في كتب العربية جميعها"[1].

ويتابع قوله فيقول : "ولست أعني ها هنا ما يذكره النحويون مِن أنّ الحروف العاطفة تتبع (المعنى المعطوف عليه في الإعراب) ... بل أمراً وراء ذلك، وإنْ كان المرجّح فيه إلى الأصل النحوي"[2].

نحو قوله تعالى (**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)**)[3] فالأول عطفه "بالواو" التي هي للجمع، وتقديم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم، ثم عطف الثاني "بالفاء" لأنّ الشفاء يعقب المرض بلا زمانٍ خالٍ مِن أحدهما.

ثـــم عطف الثالث بـــ"ثم"، لأنّ الإحياء يكون بعد الموت بزمانٍ، ولهذا جيء في عطفه بـــ "ثم" التي هي للتراخي.

ولـــو قال قائل في موضع هذه الآية : (الذي يطعمني ويسقين ويمرضني ويشفين ويميتني ويحيين) لكـــان للكـــلام معنى تام، إلا أنه لا يكون كمعنى الآية، إذ كل شيء منها قد عُطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه"[4].

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وإذا قلت:

أعطاني فشكرتُه: ظهر بـــ(الفاء) أن الشكر كان مُعْقـــَباً على العطاء ومُسَبباً عنه.

فإذا قلت:

خرجتُ ثم خرج زيد، أفادت (ثُم) أن خروجه كان بَعْد خروجِك وأن مهلة وقعت بينهما.

وإذا قلت:

يُعطيك أو يَكْسوك، دلّت (أو) على أنه يفعل واحداً منهما لا يُعيّنه.

فإذا قلت:

جاءني زيدٌ وعمرو، لم تُفِدْ بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبتَّه لزيد.

وتأتي (أو) أيضاً في مقام الشك للمبالغة في العدل، والمظاهرة في الحجاج، قال تعالى:

---

[1] . **المثل السائر – ابن الأثير، م2، ص (32).**
[2] . **المصدر السابق، ص (32).**
[3] . **الشعراء، (79- 81).**
[4] . **المثل السائر – ابن الأثير، م2، ص (32).**

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24)) [1]

أو قد تأتي في مقام التعريض الذي ينوب عن التصريح، وجعلوا من ذلك قول لبيد :

تَمنّى ابْنتايَ أنْ يَعيشَ أبوهُما وَهَلْ أنَا إلاَّ مِنْ ربيعَةَ أو مُضَرَ[2]

فقد ذكر سيبويه أنك تقول:

مررتُ بزيدٍ أخيك وصاحبكِ ، فيحسن قولك بالواو

وإذ ا قلت : مَررتُ بزيدٍ أخيكَ فصاحبكَ، والصاحب زيد،

لم يَجُزْ ، لأنَّ الواو تقوم بهذه الوظيفة أما الفاء فتفيد التفرقة[3] .

ثم إذا تتبعنا مسائل (إنما) نرى أن الجرجاني قد أدرك المعاني التي يمكن أن يؤديها هذا الحرف فـــي أوضاعه المختلفة في التعبير، مع ملاحظة ربطها بالمقام الذي يقال فيه، فعبد القاهر يربط بين مضمون كل أداة والمعنى الذي عبرت عنه، والمقام الذي استعملت فيه فتخرج معه بفروق عديدة لم نفطن لها من قبل[4].

وبتتـــبع مواضع ومقامات كل من (إنما) و (ما) و(إلا) وجدنا اختلافاً مطرداً بين حال المخاطب هنا وبين حاله هناك، فاختلف مقام كُل منهما تبعاً لذلك.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن أمثلة ذلك:

اعلم أن مقام (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهلُه (المخاطَب/ المتلقي) ولا يدفع صِحَّتَه أو لِما يُنَزَّل هذه المنزلة.

وتفسير هذا أنك تقول للرجل:

"إنما هو أخوك"

و "إنما هو صاحبك القديم":

فلا تقول هذا الكلام "لمن يجهلُ ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويُقِرُّ به، إلا أنك تريد أن تُنَبِّهه إلى الذي يجب عليه من حق الأخ وحُرْمَة الصاحب"[5]

ومنه قول المتنبي:

إنَّمـــا أنت والد والأبُ القـــا طعُ أحْنَى مِنْ واصلِ الأولادِ

---

[1] . سورة سبأ - آية (24)
[2] . عيار الشعر- ابن طباطبا، ص (35)
[3] . الكتاب- سيبويه، ج1، ص (399) .
[4] . دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص ص (214-232).
[5] . المصدر السابق، ص (216).

"لـــم يُرد أن يُعْلِم كافوراً أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكّره منه بالأمر المعلوم لِيَبْنِيَ عليه استدعاءَ ما يوجبه كوْنُه بمنزلة الوالد".[1]

ومثله قولهم:

إنّما مصعبٌ شِهابٌ من اللـــ ـــه تجلّت عن وجهه الظَّلْماءُ

"ادّعى في كون الممدوح بهذه الصفة، أنه أمر ظاهر معلوم للجميع...."[2]

ومثال ما ينزل هذه المنزلة قولهم:

"إنما هو أسد"

و "إنما هو نار"

و "إنما هو سيف صارم"

فـــ "إذا أدخلوا (إنما) جعلوا ذلك في حُكم الظاهر المعلوم الذي لا يُنكَرُ ولا يُدْفَع ولا يخفى"[3]

وأما الخبر مع (ما) و(إلا) فمقامه يكون للأمر ينكره المخاطب وَيَشُكُّ فيه، أو لما ينزل هذه المنزلة.

فمثال الأول قولهم:

"ما هو إلا مصيب"

أو "ما هو إلا مخطئ"[4]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وإذا انتقلـــنا إلـــى همزة الاستفهام ورصدنا مواضعها في كتاب مغني اللبيب وجدنا أنّ هذه الهمزة تخرج عن الاستفهام لثمانية معانٍ منها:

التسوية والإنكار الإبطالي والإنكار التوبيخي والتقرير والتهكم والأمر والتعجب والاستبطاء كل ذلك بمعونة المقام[5].

وصـــحيح أن حروف الجر لا تفيد دلالة معجمية ولكنها تفيد دلالة مقامية في الجملة إذ هي تُستخدم استخداماً مقامياً. فليس يهمنا هنا ما يذكره النحويون مِنْ أنّ الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه وإنْ كان المرجّح فيه إلى الأصل النحوي.

---

[1] . **دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني، ص (216).**
[2] . **المصدر السابق، ص (217).**
[3] . **المصدر السابق، ص (217).**
[4] . **المصدر السابق، ص (218).**
[5] . **مغني اللبيب- ابن هشام، ج1، ص ص (24 - 27).**

يقــول ابن الأثير: "إنّ أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها، فيجعلون ما ينبغي أن يجــر بعلى (مجرورا) بفي، وفي هذه الأشياء دقائق أذكرها لك"[1] وقد علم أنّ "في" للوعاء و "على" للاستعلاء.[2]

فلا بد من استجلاء مقاماتها لاختيار حرف الجر المناسب في المقام المناسب في الجملة.

وللتدليل على هذا نسوق المثال التالي:

ورد عن ابن عباس قال : الحمد لله الذي قال : **(الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (5)**[3]) ولم يقل في صلاتهم، وأن السيوطي قال في قوله تعالى : **(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّـهُ وَإِنَّـا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَـى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (24))** [4] : "على" في جانب الحق و "في" في جانب الضــلال، لأن صــاحب الحق مستعل يصرف نظره كيف يشاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ضــلال مــنخفض لا يدري أين يتوجه[5] إذ يُستخدم حرف "على" في المقامات التي تدل على السمو والــرفعة والاســتعلاء، لذلك نجده كثير الاستخدام مع الهدى" ليناسب العلو مقام الهداية الذي يسمو بالنفس البشرية عن الدونية، ويرقى بها إلى مدارج الخير والفلاح. قال تعالى: **(أُولَـئِكَ عَلَـى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))** [6] وقوله سبحانه : **(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (67))** [7] **وقوله تعالى (أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12)**[8]**)**

أمــا حــرف "في" فهو يتضمن معنى الانخفاض والدونية، ولذلك نجده كثير الاستخدام في هذا المعنى. **(لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (38))** [9]

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47)) [10] ، **(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25))** [11]

وهــناك طائفــة مــن الكلمــات أشبهت الحروف في أنها تستخدم استخداماً مقامياً من ذلك : الضــمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأسماء الشرط، فكل هذه الكلمات ليس لها معنى

---

[1] . المثل السائر- ابن الأثير، م2، ص (32).
[2] . المصدر السابق، ص ص (34-35).
[3] . سورة الماعون- آية (5).
[4] . سورة سبأ- آية (24).
[5] . الإتقان في علوم القرآن- السيوطي، ج1، ص (190).
[6] . سورة البقرة - آية (5).
[7] . سورة الحج - آية (67).
[8] . سورة العلق- آية (11-12).
[9] . سورة مريم - آية (38).
[10] . سورة القمر- آية (47).
[11] . سورة غافر- آية (25).

خـــارج المقام. فهذه العناصر تعبير عن وجود المتكلم وحضوره بأبعاده النفسية والاجتماعية في كل خطـــاب. فمـــثلاً علم النحو ينظر في "هذا" من حيث أنه للقرب، و "ذلك" للبعد. لكن علم المعاني أو المقـــام يـــنظر فـــيه من حيث أنه إذا أراد بيان قُرب المسند إليه يؤتى "بهذا" وهو زائد على أصل المراد، وإذا أراد بيان بُعد المسند إليه يؤتى "بذلك" وهو زائد على أصل المراد، فذِكْر القرب والبعد والتوسّط يُعَد توطئة وتمهيداً لما يتفرّع عليه منْ التحقير والتعظيم.

وأخـــيراً نقـــول : لقـــد كان ملحظ سيبويه والجرجاني وغيرهما بين معاني النحو والمقام من الملاحـــظ الأساســـية التي قامت عليها البراغماتية "فنحن بحاجة إلى وصف قواعدي للغة من جانب براغماتـــي"[1] ففـــي القواعـــد البراغماتـــية وبشـــكل بـــارز تتشكل الأوصاف النحوية على أساس براغماتي[2].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1] . Pragmatical Grammar And The Pragmatics of Grammar by G□tz Hindelang, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics, by Herman Parret, P (331).
[2] . Ibid , P (334).

وصفوة القول

أنّ دراســة تلــك المباحث النحوية ينبغي أنْ يكون معنى ومقاماً أكثر من كونها شكلاً ومقاماً. فالــنحاة الأوائل لم يقفوا عند تغير أواخر الكلم لتغير العوامل فقط، بل كانوا يفاضلون بين الأساليب ويبينون لكل تركيب موضعه ودرجته، فما جاء به سيبويه يمكننا الإفادة منه في بناء نظرية مقامية، ومــا جــاء بــه عــبد القاهر الجرجاني يمكننا الإفادة منه في تطوير نظرية مقامية يمكن أن تكون استمراراً للبراغماتية عند الغرب.

والموقــف الــذي نــتخذه هنا إنما هو عودة للسانيات المعاصرة من شكلانية المدرسة البنيوية والمدرســة التحويلــية في نماذجها الأولى إلى تحليل القول براغماتياً/ مقامياً وبذلك نستطيع معرفة أحوال الأمة العقلية والروحية من نظامها النحوي.

أما الفكرة الرئيسية وراء مفهوم براغماتية القواعد فهي أنّ إعداد القواعد هي لعبة لغوية، وهي لعــبة أكثر تعقيداً عند تأليف قصيدة أو كتابة رسالة، وسيكون على النظرية المقامية البراغماتية في القواعد أن تصوغ القواعد التي تشكل اللعبة اللغوية وأن تحدد أي الحركات في اللعبة هي الإلزامية وأيهــا المسموح به وأيها الممنوع القيام به في مراحل فرعية من اللغة[1]. "وحُكْم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شِنفا في الأُذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحُسن تخصه"[2]

ولســت أزعم أنني استنفدت –في هذا الفصل– القول في دراسة النحو مقامياً وإنما اقتصرت علــى الإشارة إلى أبعاد هذا الاتجاه، مؤملة أن تستمر دراسات مكملة تتناول كل موضوع على حدة وتتحرّى الاستفادة من الطريقة التي تناول بها القدماء تلك المباحث.

فهذه ملاحظات قد تشكل منطلقاً لبحث لغوي يعتمد البراغماتية المقامية في معالجة اللغة.

فما زال نحو المقام ميداناً بكراً يحتاج إلى بحوث موسعة لكل ظاهرة فيه.

---

[1]. Pragmatical Grammar And The Pragmatics of Grammar by G□tz Hindelang, in Possibilities And Limitations Of Pragmatics, by Herman Parret, P (331).

[2]. المثل السائر- ابن الأثير،م1، ص (147). قوله : الشّنف : أي القرط.

في الملحوظات النقدية الأولى:

المقام كائناً ضمنا

فمَنْ يلتمس بذور البحث البلاغي في العصر الجاهلي يجد أكثر من عبارات مقتضبة تدور أكثر مـــا تـــدور حـــول اختـــيار اللفظ الدقيق في إفادة المعنى المناسب للمقام. فانظر مناظرات الشعراء وأحاديثهم، وما كان يتخلل أسواق العرب وأنديتهم.

فطرفة ينكر التجوز في قول المسيب بن علس:

وقد أتلافى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكـــــدم

ويقـــول استنوق الجمل؛ لأن الصيعرية من سمات النوق، فاستعمالها مع الجمال إحالة غير مقبولة[1]. فلما وُضعت هذه الكلمة في غير موضعها جاءت قلقة نافرة.

وحسان بن ثابت يقول:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنـــا يقطرن من نجدة دمـــــا

فـــأخذ عليه النابغة أنه قال هذا الكلام، فيقول له: وقلت "يلمعن بالضحى" ولو قلت "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ في المديح، لأنّ الضيف في الليل أكثر، وقلت "يقطرن من نجدة دما" فدللت على قلة القتل، ولو قلت "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم[2].

وعـــاب الصـــولي قول حسان هذا فقال: إن جَمْع الجفنات والأسياف جمع قِلة وهو في مقام فخر وهذا مما يحط من المعنى ويضع منه[3] .

ومـــا قـــد يدل على أن الجاهليين قد عرفوا مقولة "لكل مقام مقال" هو تجويد الشعر وتنقيحه، إذ عُـــرف زهـــير بن أبي سلمى بتهذيب الشعر وتسميته قصائده الكبار "بالحوليات" وقد ذكره الجاحظ فيمـــن يـــتحرون المطابقة بين الكلام ومقتضى الحال – إذ كان يتوفر على القصيدة عاماً يزيد فيها وينقص ويضع لفظاً مكان لفظٍ آخر، فكان يقلب الألفاظ على جميع وجوهها ويعرضها على معانيها، حـــتى تقـــع موقعها. "فليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصدك بها إلى موضعها؛ لأنّ اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن، ولا تحسُن في مكان غيرها"[4].

---

[1] **المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص (4).**
[2] **. المصدر السابق، م1، ص (4).**
[3] **. المصدر السابق، م2، ص (276) .**
[4] **. الرسالة العذراء – إبراهيم بن المدبر، ص (31).**

وســـار على مذهبه جماعة من بعده منهم ابنه كعب والحطيئة الذي يقول: "خير الشعر الحولي المنقح"[1] فكان الحطيئة يعمل القصيدة في شهر، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يُبرزها.

وكـــان للرسول ρ طريقة في الكتابة، فيكتب لكل فريق على مقدار طبقتهم ومقامهم فلما أراد ρ أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يُمكن ترجمته، فكتب : مِنْ محمد رسولُ الله إلى كسرى ابرويز عظيم فارس:

ســـلامٌ على مَن اتَّبع الهُدى، وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعيةِ الله، فإني أنا رسول الله إلى الخَلق كافة ليُنذر من كان حيّاً، ويحقّ القولُ على الكافرين، فأسلِمْ تسلمْ، فإن أبيتَ فإثمُ المجوس عليك"[2].

فجاءت كلمات رسول الله ρ سهلة حتى لا يَخفى منها شيء على مَنْ له أدنى معرفةٍ في العربية.

وعندما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فَخَّم اللفظ، لما عُرف من فضْلِ قوتهم على فهمِه وعادتهم لسماع مثله.

فكتب لوائل بن حجر الحضرمي[3]:

مـــن محمـــد رسول الله إلى الأقْيال العَبَاهِلة[4] من أهل حضْرَ موتَ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، علـــى التّـــيعة الشاة، والتّيمةُ لِصاحبها[5]، وفي السُّيوب الخُمْس[6]؛ لا خِلاطَ ولا وِراطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ[7]، ومَنْ أجْبَى[8] فقد أرْبَى، وكلُّ مُسْكِرٍ حَرَام.

وكذلـــك كتابه ρ لأكيْدر صاحب دومة الجندل: من محمدٍ رسول الله لأكيْدر حين أجابَ إلى الإسلام وخلع الأندادَ والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله.

---

[1] . المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص (5).
[2] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (155).
[3] . المصدر السابق، ص (155).
[4] . الأقيال: جمع قيل: الملك أو من ملوك حمير، والعباهلة: الأقيال المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه.
[5] . التيعة : الأربعون من الغنم أو أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان، والتيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى.
[6] . السُّيوب: الركاز.
[7] . خلاط: اختلاط الإبل، والشناق: ما بين الفريضتين في الزكاة، والوراط في الصدقة: الجمع بين متفرق ، والشغار : أن يزوج الرجل امرأة على أن يزوجه أخرى بغير مهر وصداق كل واحدة منهما بضع الأخرى.
[8] . أجبى : الإجباء أن يغيب الرجل إبله عن المصدق، من أجبأته إذا واريته.

إنَّ لـــنا الضـــاحيةَ مـــن الضَّحْل[1]، والبور والمَعَامي[2] وأغْفَال الأرض، والحَلَقة والسّلاح، ولكم الضَّامِنةُ[3] من النَّخْل، والمعين من المعمور، لا تُعْدل سارِحَتُكم[4]، ولا تُعَدُّ فارِدَتُكُم[5]، ولا يُحْظَر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لِوَقتهَا، وتؤدُّونَ الزكاةَ، عليكم بذلك عَهْدُ الله وميثاقه[6].

وتتناهى إلينا وقائع لغوية في مشاهد متنوعة تُنبئ عن مِثْل أصل كامن يستقيم لنا عزوه إلى مثل هذه المقولات!

فكان خلفاء رسول الله رضوان الله عليهم يتخيرون الألفاظ في مواضعها اللائقة بها

– مـــر رجلٌ بأبي بكر ومعه ثوبٌ، فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد عُلِّمتُم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله[7].

– أقـــبل عمـــر ذات مرة على قومٍ يوقدون ناراً فقال: السلام عليكم يا أهل الضوء، كره أن يقول يا أهـــل الـــنار. وكانت تتنوع موضوعات خطابته بحسب المقامات والأحوال، فمن خطب الجمعة إلى خطـــب العيديـــن، وخطـــب الحث على الجهاد ثم خطب توديع الجيوش السائرة... وسأل عمر بن الخطـــاب رجلاً عن شيء، فقال: الله أعلم. فقال عمر: لقد شقينا إن كُنّا لا نعلم أن الله أعلمْ إذا سُئلَ أحدُكُم عن شيء لا يعلمه فليقلْ: لا أدري[8].

– صعد عثمانُ المنبرَ مرة فأُرتِجَ عليه، فقال: "إنَّ أبا بكرٍ وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمامٍ عادلٍ أحوجُ منكم إلى إمام خطيب، وستأتيكم الخُطَب على وجهها، وتعلمون إن شاء الله[9].

– ولقـــد زَكِنَ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أثَرَ المقام في المعنى وجوهر القصد حين ردّ على هُتاف الخوراج "لاحكم إلا الله" بقوله "كلمة حق أريد بها باطل" ، فالناس ربما قنعوا بالمعنى الحرفي لهـــذا الهتاف أي بمعنى ظاهر النص، فصدّقوا أن الخوارج أصحاب قضية تستحق أن يدافع الناس عـــنها، وربمـــا غفـــل الـــناس عـــن المقـــام الحقيقـــي الذي ينبغي لهذه الجملة أن تفهم في ضوئه

---

[1] . الضاحية : الخارجة من العمارة، وهي خلاف الضامنة، والضحل : الماء القليل.
[2] . المعامي: الأغفال، وهي الأرضون المجهولة.
[3] . الضامنة: ما كان داخلاً في العمارة وتضمنه أمصارهم وقراهم.
[4] . لا تصرف عن معنى تريده.
[5] . الفاردة: الزائدة على الفريضة.
[6] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص ص (155-156).
[7] . البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (261).
[8] . المصدر السابق، ص (261).
[9] . المصدر السابق، ص (345).

وهـــو مقام "محاولة إلزام الحجة سياسياً بهتاف ديني" فالمقام في هذا الهتاف من السياسة والمقال من الدين، وكان ينبغي للناس أن يفهموا المقال في ضوء المقام[1].

لكل مقام مقال: معيار نقدي

مقولـــة (لكل مقام مقال) أصل من أصول البلاغة النقدية المقررة، وقد كان ولا يزال يُنظر إليها مـــن البلاغيين والنقاد كمقياس من مقاييس البلاغة والنقد ومعيار من معاييرها، وبمقدار تحققها في الكلام يكون حظها من البلاغة والإصابة.

فالـــنقد القديم تحدث عن المقام وجزئياته عندما تحدث عن حُسن الاستهلال، وفي أثناء الحديث عن علة الابتداء بالغزل، وعندما تحدث عن فطنة الشعراء وحذق الخطباء.

بـــل تحدث النقد القديم عن المقام وجزئياته عندما تحدث عن عمود الشعر وعندما ناقش مبحث السرقات[2] وقضية اللفظ والمعنى.

والجـــاحظ مـــن أوائـــل من لحظ هذا المعيار كقيمة بلاغية نقدية فأكدّه وأشار إليه في أكثر من موضـــع، ثـــم تعـــاوره النقاد: ابن طباطبا، وأبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني وابن الأثير وحـــازم القرطاجني وابن وهب والغزالي وأعادوا القول فيه، فمنهم من كرّر رأيه ومنهم من أضاف جديداً.

في مقامات التلقي وأحوال أطراف الخطاب

---

[1] . اللغة العربية معناها ومبناها- تمام حسان ، ص ص (337- 338).

[2] . سنتحدث عن عمود الشعر ومبحث السرقات وقضية اللفظ والمعنى في ضوء المقام، ص ص (127-130).

أولاً: في الرسائل

وتــتجلى فكرة "لكل مقام مقال" وفكرة "مقتضى الحال" في الرسائل، فأول ما ينبغي أن تستعمله فــي الكــتابة؛ مكاتبة كل فريق على مقدار طبقتهم. قال الجاحظ: "كلام الناس في طبقات، كما أنَّ الناس أنفسهم في طبقات"[1] ومن ذلك قوله: "ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحملِ عليهم على أقدار منازلهم"[2].

فــيقول "وكمــا لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميّاً، وساقطاً سوقيّاً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشــياً؛ إلا أنْ يكون المتكلّم بدويّاً أعْرابيّاً، فإن الوحشيَّ من الكلام يفهمُه الوحشيُّ من الناس، كما يفهــمُ السُّــوقي رَطانــة السُّوقيّ[3]. فمقام البدو يناسبه وحشي الكلام، ومقام السوقة يناسبه الكلام السهل، فلا بد من مخاطبة الناس كلّ على قدر مقامه، ولا بد لنا من تحري هذا المقام.

ويؤكــد هــذا الأمر إبراهيم بن المدبر في رسالته العذراء إذ قال: "وخاطب كلاً على قدر أبهته وجلالته، وعلوه، وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه"[4]

ثم يقسّم ابن المدبر طبقات الناس إلى ثمان "واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام: فأربعة منها للطــبقة العلويــة، وأربعة دونها، ولكل طبقة منها درجة، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصــد بأهلهــا عــنها، ويقلــب معناها إلى غيرها: فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها عن مســاواتها بــأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل، والطبقة الثانية الوزراء والكــتاب الذيــن يخاطــبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرثُقون الفتوق بآرائهم، ويتجمّلون بآدابهم، الثالــثة أمــراء ثغورهــم، وقوّاد جيوشهم، يخاطب كل امرئ منهم على قدره وبما حمل من أعباء أمورهــم، وجلائــل أعمــالهم، الطــبقة الرابعة القضاة، فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء، فمعهم أبهة السلطنة وهيبة الأمراء[5] .

لقد جعل ابن المدبر طبقات الكلام ثمانياً؛ أربعاً منها في الطبقة العليا وهم:

---

[1] . **البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (144).**
[2] . **المصدر السابق، ص (93).**
[3] . **المصدر السابق، ص (144).**
[4] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (10).**
[5] . **المصدر السابق، ص** (10).

الخُلَفَــاء، ووزراؤهم وكتابهم، وأمراء وقواد الجيش، والقضاة، وأربعة أخرى دون هذه الطبقة وهم الملوك، ووزراؤهم وكتابهم وأتباعهم، والعلماء، وأهل القدر والجلالة والظرف والحلاوة والعلم والأدب، حيــث قــال "الملــوك الذين أوجبت نعمهم وتعظيمهم في الكتب وأفضالهم تفضيلهم فيها. والثانــية وزراؤهم وكتابهم وأتباعهم الذين بهم تقرع أبوابهم، وبعنايتهم تستباح أموالهم، والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله ، الرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف، والحلاوة والعلم والأدب فإنهم يضطرونك بحدّة أذهانهم، وشدة تمييزهم وانتقادهم (وأدبهم وتصفحهم) إلى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم"[1].

ثم ذكر طبقة التجار والسوقة والعوام، وقال إنَّ سبب إخراجهم من التصنيف السابق؛ استغناؤهم بتجارتهم عن هذه الآلات، واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الأدوات[2].

فلكــل طــبقة مــن هذه الطبقات معانٍ يجب مراعاتها في المراسلة إليهم في الكتب[3] فنتخير لها أجزل الألفاظ وزناً، وأجزلها معنى، وأليقها في مقامها وأشكلها في موضعها[4].

لهذا يقول سهل بن وهب: "الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة ، ومن لم يعرف فضلها، وجهل أهلها وتعدى بهم رتبتهم التي وضعهم الله بها، فإنه ليس من الإنسانية في شيء"[5].

ومــن هنا لا بدّ أن نجعل هذا الأصل –أي مخاطبة الناس ومراسلتهم حسب مقامهم الاجتماعي والسياســي– مــيزاناً نزن به مذهبنا في رسائلنا وبلاغتنا "ولا تخاطبنّ خاصاً بكلام عام، ولا عاماً بكلام خاص، فمتى خاطبت أحداً بغير ما يشاكله فقد أجريت الكلام غير مجراه وكشفته"[6]

* فــإذا كان موضوع الرسالة (الأمر والنهي) وصاحبها (السلطان) فتلك حال تقتضي (اختصار اللفــظ وتأكيد المعنى) وإذا كان (الأمر والنهي) في أعمال إدارية أو تنظيمية تحتاج إلى تفصيل مثل أمر الأموال وجبايتها واستخراجها فالمقتضى الإطالة والتكرير.[7]

وإذا كان موضوع الرسالة (الاستعطاف)، فإن المقتضى عدم الإكثار من شكاية الحال ورقتها بل مزج الشكاية بالشكر والاعتراف بشمول النعمة.

---

[1] . الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (11).
[2] . المصدر السابق، ص (11).
[3] . المصدر السابق، ص (11).
[4]. المصدر السابق، ص (21).
[5] . المصدر السابق، ص (31).
[6] . المصدر السابق، ص (35).
[7]. الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص(156).

يقــول أبــو هلال العسكري "وسبيلُ ما يَكْتُب به التابعُ إلى المتبوع في معنى الاستِعطاف ومسألة الــنُظراء، ألاّ يكــثر مِــن شكايةِ الحال ورقَّتِها، واستيلاء الخَصاصة عليه فيها، فإنَّ ذلك يَجْمع إلى الإبــرام والإضــجار شكاية الرئيس لسوءِ حاله وقِلة ظهور نِعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروهٌ جداً، بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجةً بالشكر والاعترافِ بشمول النعمة وتوفير العائِدَة"[1].

* وإذا كــان موضوع الرسالة (الاعتذار)، فإن المقتضى عدم المبالغة في التنصل من التقصير، بــل الاعتراف به، قال أبو هلال العسكري"وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنب فيه الإطــناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة المَوْجِدة، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكره الرؤساء[2]"

* وإذا كــان موضوع الرسالة (الشكر) فإن المقتضى عدم الإسهاب، وذلك لأن الإسهاب التابع فــي الشــكر، "إذا رجــع إلــى خصوصيته، نوعٌ من الإبرام والتثقيل"[3]، ومثله في باب الشكر فإن المقتضى عدم الإكثار من الثناء والدعاء، لأن ذلك "فِعْلُ الأباعد الذين لم تَتَقَدَّم لهم وسائل من الخدمة ومقدمات في الحرمة[4].

جميع الحقوق محفوظة

ومنه عدم تكرار الدعاء في صَدْر الرسالة عندما يجريه من ذكر الرئيس؛ لأن ذلك مشغلة وكلفة.[5]

ولْيكن ما تختم به فصولك في موضع (ذكر الشكوى) بمثل : "والله المستعان"، "وحسبنا الله ونعم الوكــيل"، وفــي موضع (ذكر البلوى): "نسأل الله دفع المحذور"، "ونسأل الله صرف السوء"؛ وفي موضــع (ذكر المصيبة) بمثل: "إنا لله وإنا إليه راجعون"؛ وفي موضع (ذكر النعم) بمثل : "والحمد لله خالصــاً" "والشكر لله واجب"؛ فإنها مواضع ينبغي للكاتب تفقدُّها، فإنما يكون كاتباً إذا وضع كل معنى في موضعه، وعلّق كل لفظة على طبقها من المعنى"[6].

ومن الألفاظ المرغوب عنها، والصدور المستوحش منها في كتب السادات والأمراء والملوك، على اتفاق المعاني، مثل :"أبقاك الله طويلاً وعمرك ملياً" وإن كنا نعلم أنه لا فرق بين قولهم "أطال الله بقاءك" وبين قولهم: "أبقاك الله طويلاً" ، ولكنهم جعلوا "أطال الله بقاءك" أرجح وزنا، وأنبه قدراً فــي مخاطبة الملوك؛ كما أنهم جعلوا "أكرمك الله وأبقاك" أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء[7].

---

[1]. **المصدر السابق، ص ص (157- 158)، العائدة: المعروف والصلة والعطف والمنفعة.**
[2]. **المصدر السابق، ص (158).**
[3]. **المصدر السابق، ص (157).**
[4]. **المصدر السابق، ص (157).**
[5]. **المصدر السابق، ص (157).**
[6]. **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (17).**
[7]. **المصدر السابق، ص (12).**

وليس لمن حدّث السلطان أن يفسد ألفاظه وكلامه بأن يقول: "فاسمع مني" أو "افهم عني" أو "يا هذا" أو "ألا ترى" فهذا المقال مما لا يناسب مقام السلطان[1].

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل "أبقاك الله وأمتع بك" إلا إلى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك. وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه[2]. وتكتب "أدام عزه" لمنْ مرتبته عالية و"أعزه الله" لمن مرتبته دون ذلك[3]. وكانوا لا يكتبون "وأتم نعمه عليك" و "زاد فيها عندك: أو "وأدامها لك" إلا لأدون طبقات النظراء[4] وفي كتب الظرفاء والأدباء[5]. وكانوا لا يخاطبون بـ "جعلني الله فداك" و "قدّمني قبلك" إلا للنظراء ولا يخاطبون بهما الرؤساء يجعلونهما في كتب الأتباع ومَنْ جرى مجراهم : "جعلت فداك" و "قدّمت قبلك"[6] ويظهر أن ابن المدبر كان قد ردّد هذه الفكرة في أحاديثه حيث قال: "واجتنبوا أن يقولوا للوزير في الدعاء "جعلني الله فداءك" من أجل أن الشيء إنما يفدى بمثله أو بأجل منه"[7] .

وكانت كتبهم إلى السلطان وولاة العهود: "لعبد الله فلان بن فلان" وللوزير "فلان بن فلان" إلى قولهم "صلى الله" ويثبتون في آخر الكتاب "أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمته، وهناه كرامته، وألبسه عفوه وعافيته، وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته"[8].

ويكتب على العنوان: "إلى أمير المؤمنين: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي فلان بن فلان". وإلى الوزير: "للوزير أبي فلان بن فلان"[9].

ويُخاطب الوزير بالوزارة ويدعى له الدعاء التام، وربما اقتصر به من الدعاء على إطالة البقاء، ودوام العز والتأييد. وخوطب مع الوزارة والسيادة فقيل: "أطال الله بقاء سيدنا الوزير"، "وأدام عزه وتأييده". وليس يصلح أن يخاطب بـ "سيدي الوزير" إلا مَنْ خصّ عنده من ولد ومن ساوت منزلته من أمير[10].

وإن خاطبه أحد الرعية أو خدم الوزير وصنائعه كتب: "من خادمه فلان، ومن صنيعته أو من غرسه، أو من عبده" بحسب ما يليق بمحله.

---

[1] . **التاج في أخلاق الملوك- الجاحظ، ص (202).**
[2] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (14).**
[3] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (336).**
[4] . **المصدر السابق، ص (336)**
[5] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (12).**
[6] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (336).**
[7] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (12).**
[8] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (337).**
[9] . **المصدر السابق، ص (337).**
[10] . **المصدر السابق، ص (338).**

و"عبده" أشد في تعظيم المكاتب من "خادمه".

و"عبده" و "خادمه" أجَلُّ مِنْ: "من خادمه وصنيعته وغرسه" و "صنيعته" و "غرسه" أجَلَّ مِنْ "وليّه"[1]، وإن أحَبَّ الحاشية والخدم والعمال أنْ يسقطوا اسم الوزير من العنوان، ويكتبوا يسرة الكتاب: "عبده" أو "خادمه" أو "عبده وخادمه"، جاز ذلك.

وقد اتفق الناس في ذلك الوقت على مكاتبة الأمراء منهم بثلاثة أدعية:

فأعلاها: "أطال الله بقاء سيدنا الأمير"

والثاني: "سيدي، الأمير"

والثالث: "الأمير" بلا سيادة.

فإنْ قلت: "سيدنا الأمير" اختصرت الدعاء[2].

وإن كان المخاطب قاضياً خوطب بالقاضي وبالهاء (ضمير الغائب)، فقيل : "أطال الله بقاء القاضي وأدام عزه" فإن نقصت منزلته عن ذلك خوطب بـــ "أطال الله بقاءك أيها القاضي"[3]

والعنوان إلى القاضي إذا كان رفيع المحل وخوطب بالهاء: "للقاضي أبي فلان بن فلان بن فـــلان" بلا دعاء. وإذا خوطب بالكاف (ضمير المخاطب) : للقاضي أبي فلان بن فلان، يدعى له من فلان"[4]

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولم يكن القدماء يَسْتجيزون أن يكتبوا إلى القاضي: لسيدنا القاضي" ، ولا يكتبون على عنواناتهم إلـــيهم "عبده" ولا "خادمه"، وكانت القضاة تنكر على مَنْ يفعل ذلك ولا تقبله، حتى كوتب بذلك أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف، فقبله[5].

وإذا ذكر المتكلم أو الكاتب الله سبحانه فإنّ عَلَيْه أن يعترض بتحميده، ويشير بتمجيده، بما شاكل الكلام، ووافق المقام ولو بقول : "جلَّ ذكره"، أو "عزَّ وجهه"، أو "سبحانه"[6].

ويجب أنْ يُخصَّ رسول الله ρ بالصلاة والتسليم كما أمر –جل ثناؤه– في كتابه الكريم[7]. ونحن

---

[1] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (338).**
[2] . **المصدر السابق، ص (339).**
[3] . **المصدر السابق، ص (339).**
[4] . **المصدر السابق، ص (340).**
[5] . **المصدر السابق، ص (340).**
[6] . **إحكام صنعة الكلام- محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأندلسي، ص (254).**
[7] . **المصدر السابق، ص (254).**

نعلم أنّ الصلاة رحمة، غير أنهم قد حرّموها إلا على الأنبياء[1] وقد قال رسول الله عليه السلام: "... اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره"[2].

ويجـــب ألا يجمع بين الله سبحانه ورسوله عليه السلام. فقد رُوي أنَّ رجلاً قام بين يدي رسول الله ρ فقـــال: ومـــن يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بئس الخطيب أنتَ! هلاّ قلت: ومَنْ يعصِ الله ورسوله فقد غوى"[3].

ومن مقتضيات الحال في الكتابة ما يتصل باستخدام الضمائر فيجب "أن تعرف مقدار المكتوب إليه مـــن الرؤســـاء والنظراء والغلمان والوكلاء، فتُفرّق بين مَنْ تكتُب إليه بصفة الحال وذِكْر السلامة، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالاً وإعظاماً، وبين مَن تكتُب إليه: "أنا أفعل كذا" وبين من تكتب إليه: نحـــن نفعـــل كذا،(فأنا) من كلام الإخوان والأشباه و"نحن" من كلام الملوك. وتكتب في أول الكتاب "ســـلامٌ علـــيك" وفي آخره "السلام عليك" لأن الشيء إذا ابتدأت بِذِكْره كان نكرة، فإذا أعدته صار معرفة"[4] و"رأيك" –بالنصب– إنما يُكتب بها إلى الأكفاء ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء ؛ لأن فـــيها معـــنى الأمر، ولذلك نُصبت. لهذا فعلى الكاتب أنْ يُفرق بين مَنْ يكتب إليه: "فرأيَك في كذا" وبين مَنْ يكتب إليه: فإن رأيت كذا.[5]

وقد يقتضي خبر بعينه من الأخبار التي تحملها الرسالة اللجوء إلى الكناية دون التصريح، لأنّ في التصريح هَتْك الستر واطّراح مَهابة الرئيس، يقول أبو هلال العسكري:

"وربما تَعْرض الحاجةُ في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح، لما في التصريح من هَتْك الستر في حكايته عن عدو أطلق لسانَه به، وفيه اطّراح مهابة الرئيس، فيجب إجلالُه عنه، وفي الصدق ما يسوؤه سماعُه، ويقع بخلاف محبته؛ فيحتاج منشئُ الكلام إلى استعمال لفـــظ في العبارة لا تنخرق معه هيبةُ الرئيس، ولا يعترض فيه ما يشتد عليه، ولا يكون معها خيانةٌ في طَيّ ما يجب ستره"[6].

فيتراوح المقتضى بين التصريح والكناية داخل الرسالة الواحدة حسب محتوى الرسالة.

---

[1] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (16).**
[2] . **المصدر السابق، ص (26).**
[3] . **إحكام صنعة الكلام- محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأندلسي، ص (254).**
[4] . **الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص ص (158- 159).**
[5] . **المصدر السابق، ص (158).**
[6] . **المصدر السابق، ص (157).**

ففي الكنايات، "عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، أو يسترفع ويصـــان عـــنه، بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى وتحسن القبيح وتلطف الكثيف، وتكســـوه المعـــرض الأنيق في مخاطبة الملوك ومكاتبة المحتشمين ومذاكرة أهل الفضل ومحاورة ذوي المروءة والظرف، فيحصل المراد، ويلوح النجاح، مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع إلا ما يقوم مقامه وينوب منابه، من كلام تأذن له الأذن، ولا يحجبه القلب"[1].

فهم يكنون عن الموت بقولهم "لعق فلان إصبعه" و"استوفى أكله" و"لحق باللطيف الخبير"، فعدلوا إلـــى هذه الألفاظ تطيراً من ذكره بلفظه. وكقولهم للمهلكة مفازة تفاؤلاً بذكرها.. ومنها الكناية عن الصناعة الخسيسة بذكر منافعها كما قيل للحائك ما صناعتك قال زينة الأحياء وجهاز الموتى[2].

ويكـــنّى عن المكان التي تقضي تلك الحاجة إليه "بالحش" –وهو البستان– وبالمستراح والمبرز والمذهب والمتوضأ[3].

وكانـــت العـــرب تكني عن جملة من المعائب والأخلاق المذمومة، فكنّوا عن البخيل بالمقتصد، ويقال فلان نظيف المطبخ، وفلان نقي[4].

وإذا كـــان الـــرجل جاهلاً قيل فلان من المستريحين، لقولهم: استراح مَنْ لا عقل له[5]. وإذا كان سليم الناحية أبله قيل فلان من أهل الجنة، لأن النبي ρ يقول أكثر أهل الجنة البله[6].

وكـــنّوا عن المرأة الفاسدة، وعن ولد الزنا، وعن الزنا وما يتعلق به وعن الجماع، وعن دخول الإنســـان بأهله... وهم بهذا أكرموا أنفسهم عن التلفظ بهذه الألفاظ. قال تعالى: **(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (72))**[7].

ومن جهة ثانية

كان للملوك أمارات إذا أرادوا من جلسائهم أو متحدثيهم الانصراف

فكان عمر بن الخطاب إذا قال: "الصلاة" قام سماره.

وكان عثمان إذا قال: "العزة لله" قام سماره.

وكان معاوية إذا قال : "ذهب الليل" قام سماره ومن حضره.

---

[1] . المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء- القاضي الجرجاني، ج2، ص (1).
[2] . المصدر السابق،ج1، ص ص (48-49).
[3] . المصدر السابق، ج2، ص (31).
[4] . المصدر السابق، ص (36).
[5] . المصدر السابق، ص (37).
[6] . المصدر السابق، ص (37).
[7] . ينظر: المصدر السابق، ج1، ج2.

وكان عبد الملك إذا ألقى المخصرة[1] قام من حضره.

وكان الوليد إذا قال :"استودعكم الله" قام من حضره.

وكان الهادي إذا قال: "سلام عليكم" قام من حضره.

وكان الرشيد إذا قال: "سبحانك الله وبحمدك" قام سماره.

وكان المأمون إذا استلقى على فراشه، قام من حضره.

وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل، قام من حضره.

وكان الواثق إذا مس عارضيه وتثاءب، قام سماره.[2]

في مقامات التلقي وأحوال أطراف الخطاب

ثانياً: في الشعر:

في هذا الاتجاه وضع ابن طباطبا في كتابه (عيار الشعر) أدوات يقاس بها الشعر ويوزن ويحكم عليه بها. وأهم أداة يعرف بها الشعر الجيد من الرديء هو وضع الكلام مواضعه[3] ومطابقته للحالة التي يقال بها ومن تعصّت عليه هذه الأداة بان الخلل في نظمه.

فيأتي الشعر موافقاً لطبقات المخاطبين ومقامهم السياسي والاجتماعي، فتروق الأسماع والأفهام، وإذا قيل الشعر في غير موضعه بهرجت معانيه، وزُيِّفت ألفاظه، ومُجّتْ حلاوتُه،

ونقلك عندها من القصور المشيدة إلى الخيام التي تُزعزعها الرياح[4].

لهـــذا على الشاعر أن يُحضر لُبَّهُ عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جلـــيل المخاطبات، ويتوخى حطّها عن مراتبها وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك"[5].

ولـــم يخرج ابن رشيق القيرواني عن هذا الاتجاه فهو يرى أنّ شعر الشاعر "للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ذلك"[6].

وفـــي مرحلة لاحقة ارتبط الشعر بحالات النفس وتقلباتها ومراعاة الظروف المحيطة بها. يقول ابـــن طباطـــبا: "ولحســـن الشعر وقبول الفهم... موافقته للحال التي يعد معناه لها؛ كالمدح في حال

---

[1] . **المخصرة: قضيب كالسوط، وكل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها.**
[2] . **التاج في أخلاق الملوك- الجاحظ، ص ص (211-212).**
[3] . **عيار الشعر- ابن طباطبا، ص ص (12)، (21).**
[4] . **المصدر السابق، ص (13).**
[5] . **المصدر السابق، ص (12). يتوقى: يحذر ويتجنب.**
[6] . **العمدة - ابن رشيق القيرواني،ج1، ص (208).**

المفاخـــرة، وحضـــور من يُكْبَتُ بإنشاده من الأعداء، ومن يسر به من الأولياء، وكالهجاء في حال مـــباراة المهاجَى، والحط منه حيث ينكر به استماعه له. وكالمراثي في حال جزع المصاب، وتذكُّر مناقـــبِ المفقـــود عند تأبينه والتعزية عنه. وكالاعتذار والتنصل من الذنب عند سلّ سخيمة المجني علـــيه، المعتذر إليه، وكالتحريض على القتال عند التقاء الأقران وطلب المغالبة، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق واهتياج شوقه وحنينه إلى مَنْ يهواه"[1]

فعلـــى الشـــاعر أن يراعي جميع هذه الأحوال، ويتفطن لها عند مخاطبة الناس، فلكل حالة ما يلائمها من المقال.

فقول الشاعر:

ولما قضينا مِنْ مِنى كلَّ حاجـــةٍ ومسَّح بالأركـــان من هو ماســـح

وشُدَّت على حُدب المهاري رحالُنا ولم ينظر الغـــادي الذي هو رائح

أخذنـــا بأطـــرافِ الحديث بيننـــا وسالت بأعنـــاق المطيِّ الأباطحُ[2]

فقـــد استحســـن هذه الأبيات ابن قتيبة وأبو هلال العسكري، إلا أنهما قصرا حسنها على جودة أسلوبها، ولم يجدا فيها معنى ذا قيمة.

لأنهمـــا غفـــلا عما بها من معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر، فهم جماعة قضوا مناسكهم، وأخـــذوا يعـــودون إلـــى ديارهم في عجلة وشوق وزحام وسرعة، فلم يكن الشاعر في هذه الأبيات معـــبراً عـــن فكـــرة وإنمـــا مصوراً لحالته وحالة من كانوا معه، ولقد أجاد في تصوير هذه الحالة فحسُنت الألفاظ هنا لحُسن المعنى واتفاق الحالات التي وُضِعت فيها.

فـــيقول ابـــن الأثير: و"قول هذا الشاعر "كل حاجة" مما يستفيد منه، أهل النسيب والرقة وذوو الأهواء ما لا يستفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم. ألا ترى أن حوائج مِنى أشياء كثيرة ؟ فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع... وإنما كانت حوائجنا التي قضيناها... هو مسح الأركان، وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه"[3].

---

[1] .عيار الشعر- ابن طباطبا، ص (22).
[2]. المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص ص (340-342).
[3] . المصدر السابق، ص ص (340-341).

وأمـــا قولـــه "أخذنا بأطراف الحديث بيننا" "فإن في ذلك وحياً خفياً ورمزاً حلواً، ألا ترى أنه قد يـــريد بأطرافها، ما يتعاطاه المحبون، ويتفاوضه ذوو الصبابة في التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ؟ وذلك أحلى وأطيب، وأغزل وأنسب من أن يكون كشفاً ومصارحة وجهراً"[1].

ثـــم يقـــول : "إن هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمـــة، فاسترخت عن أيديهم، وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة في أمر من الأمور، ولما كان الأمر كذلك، وارتخت الأزمة عن الأيدي أسرعت المطايا في المسير، فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض في سرعته، وهذا موضع كريم حسنٌ، لا مزيد على حسنه"[2].

وعلـــيه فدراسة هذه الأبيات دراسة مقامية هي التي تكشف لنا قيمتها الجمالية والفنية وتجعلنا لا نقع في الخطأ عند حُكمنا عليها كما فعل ابن قتيبة .

ومثل هذه المراعاة لمقتضى حال المخاطَب نجدها في قول بشار لجاريته:

ربـــابة ربـــــة البيـــت تصب الخـــل في الزيت

لهـــا عشـــر دجاجـــات وديك حســـن الصـــوت

وقد حاوره أحد أصحابه قائلاً له : يا أبا معاذ تقول:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلـــة ذرى منبـــر صلى علينـــا وسلمـــا

ثم تقول مثل الأبيات التي قلتها في ربابة ؟!

فأجابـــه بشار بأن تلك الأبيات لا تقل من حيث البلاغة عن سواها، لأنها راعت مقتضى الحال، يقول: إن الأبيات قلتها في جارية لي كانت تجمع لي البيض من دجاجات لها. وهي عندها أبلغ من " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" عندك.

والتفـــت حـــازم القرطاجني إلى هذه الحال فقال: فأحوال الناس لا تخلو من أن تكون مفرحة أو شاجية أو مفجعة... ثم توقف القرطاجني عند الأقاويل التي تنشغل بهذه الأحوال.

فالأقـــاويل المفـــرحة هـــي التـــي يذكر فيها " العناق واللثم وما ناسب ذلك من الملموسات، والماء والخضرة وما يجري مجراهما من المُبَصرات، ونسيم الطيب والروض ونحو ذلك من المشمومات، ... والخمر ونحوها من المطعومات ...والغناء والزمر والعزف من المسموعات... ومجالس الأنس

---

[1] . **المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص (341).**

[2] . **المصدر السابق، ص ص (341-342).**

ومواطـــن السرور ومشاهد الأعراس والأعياد والمواسم وما ناسب ذلك"[1] أما الأقاويل الشاجية فهي التـــي تعالج "مستطابات قد انصرمَت فيُلْتَدّ لتخيُّلِها ويُتَألمَّ لفقدِها"[2] والأقاويل المفجعة هي التي يذكر فيها التفرق والتوحش، "والغِيَر والفساد ومآل بني الدنيا إلى ذلك"[3]

في مقامات التلقي ومطالع القصائد الشعرية:

وفـــي إطـــار حال المخاطَب الواجب مراعاتها يؤكد ابن طباطبا أنّ على الشاعر الاحتراز في مطلـــع قصـــائده "مما يُتطيّر به؛ أو يُستجفى من الكلام والمخاطبات: كذكر البكاء ، ووصف إقفار الديـــار، وتشتت الأُلاَّف[4] ، ونعي الشباب، وذم الزمان، لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح أو التهاني"[5] ونبّه إلى أن هذه المعاني وأمثالها قد تستعمل في المراثي ووصف الخطوب الحادثة[6].

وليســـت مؤاخـــذات الـــنقاد لعدد كبير من الشعراء حول مطالع قصائدهم، إلا لأنهم أخفقوا في المواءمـــة بين المقام ومطالع قصائدهم. "وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حَسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه"[7] "وخصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق على السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه"[8]. ولهـــذا افتتحت قصائدهم بالنسيب، لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء وأنّ ذلك استدراج إلى ما بعده[9].

ومما يُتطير به قول الأعشى:

ما بكاءُ الكبير بالأطلالِ وسؤالي وهل تردّ سؤالـــي[10]

ففي الابتداء بذكر البكاء كما يرى ابن طباطبا، ما فيه من الطيرة والتشاؤم الذي تنفر منه النفوس.

---

[1] . منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني، ص (357).
[2] . المصدر السابق، ص (22).
[3] . المصدر السابق، ص ص (358) ، (22).
[4] . تشتت الألاّف : أي تفرق الأحباب.
[5] . عيار الشعر- ابن طباطبا، ص (126).
[6] . المصدر السابق، ص (126).
[7] . المصدر السابق، ص (14).
[8] . المثل السائر- ابن الأثير، م2، ص (200).
[9] . العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ابن رشيق القيرواني، ج1، ص (231).
[10] . المصدر السابق، ص (126).

ومـــثله من مطالع الشعر لهذه الطيرة أيضاً مطلع أبي نواس –في قصيدته التي يهنئ بها الفضل بن يحيى البرمكي بدار بناها– :

أرَبْعَ البلى إنَّ الخشوعَ لبادي عَلَيْك وإنِّي لم أخنْــكَ ودِادِي

فتطيّر منه، ولما وصل إلى قوله:

سلامٌ على الدنيـــا إذا ما فُقِدْتُم بني بَرمَكٍ من رائحينَ وعَادِي

استحكم تطيرُه، فيقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة[1].

وأنشد البحتري أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري قصيدته التي أولها:

لك الويلُ من ليلٍ تطاولَ آخِرُهْ ووشكِ نَوى حيٍّ تُزَمُّ أباعرُهْ

فقال له أبو سعيد: الويل لك والحربُ[2].

وأُعْجِبَ ابن طباطبا بقول القائل:

ولا تحسبنَّ الحزنَ يبقى فإنه شهـــابُ حريقٍ واقِدٌ ثم خامِدُ

سآلفُ فقدانَ الذي قد فقدتُـــه كآلفِكَ وجدان الذي أنت واجدُ

ويوضـــح مـــراد قائل هذين البيتين بقوله: "وإنما أراد الشاعر: سآلف فقدان الذي فقدته، كإلفك وجـــدان الـــذي قد وجدته؛ أي تتعزّى عن مصيبتك بالسلوّ، فانظر إليه كيف لطف في إضافة ذكر المفقـــود الـــذي يُتطـــيَّر منه إلى نفسه، وما يتفاءل إليه من الوجدان إلى المخاطَب، فجعل الموجود المألوف للمعزّى والمفقود لنفسه"[3]

وقـــد أفـــاض الـــنقاد العـــرب وضرْبهم للشواهد الشعرية في الكلام على الاجتهاد في تحسين الاستهلال وأحقه بالمقام والحال، فقال أبو هلال العسكري"أحذق الشعراء مَنْ يتفقد الابتداء"[4].

يقول أبو هلال العسكري: حدثنا الصولي، قال : حدثنا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني عمي عن أخيه أبي محمد، قال : لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه وجَمَـــع الـــناس مـــن أهله وأصحابه، وأمر أن يلبَس الناسُ كلُّهم الديباج، وجعل سريرَه في الإيوان المـــنقوش الـــذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصّع بأنواع الجواهر، وجَعَل علـــى رأسه التاج الذي فيه الدرّة اليتيمة، وفي الإيوان أسرة آبنوس عن يمينه وعن يساره، من عند

---

[1] . **العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ابن رشيق القيرواني، ج1، ص (127).**
[2] . **المصدر السابق، ص (127). أباعره: جمع بعير.**
[3] . **عيار الشعر- ابن طباطبا، ص (128).**
[4] . **الصناعتين - أبو هلال العسكري، ص (434).**

الســـرير الـــذي عليه المُعتصم إلى باب الإيوان؛ فكلما دَخَل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يـــراه، فما رأى الناسَ أحسنَ من ذلك اليوم، فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم في النَّشيد فأذن له؛ فأنشده شِـــعراً ما سمع الناسُ أحسنَ منه في صفته وصفة المجلس؛ إلاّ أن أوله تشبيب بالديار القديمة وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يا دارُ غَيَّرك البلى فمحاكِ يا ليت شعري ما الذّي أبلاك

فتطـــيّر المعتصم منها، وتغامز الناس، وعَجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمـــته للملـــوك؛ قـــال: فأقمنا يومَنا هذا، وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سُرَّ مَنْ رأى، وخرب القصر[1].

وقـــال ابن رشيق: "الشعر قفلٌ أوّلُهُ مفتاحُه، وينبغي للشاعر أن يجوِّد ابتداءَ شعره، فإنه أول ما يقرع السمع منه وبه يستدل على ما عنده منْ أول وهلة[2].

فحُســـن الافتتاح داعية الانشراح، ومظنة النجاح. يقول ابن رشيق: دخل جرير على عبد الملك بن مروان، ، فابتدأ ينشده:

أتَصْحُو أمْ فُؤادُكَ غيرُ صاحِ

فقـــال له عـــبد الملك: "بل فؤادك يا ابن الفاعلة" - فكأنه استثقل هذه المواجهة، وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه[3].

ومـــن هـــذه الجهـــة بعينها عابوا على أبي الطيب قوله لكافور أوّل لقائه مبتدئاً، وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً :

كفى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافياً وحسبُ المنايـــا أنْ يكُـــنَّ أمانيـــا

فالعيـــب من باب التأدب للملوك، وحُسن السياسة، لازم لأبي الطيب في هذا الابتداء[4]. فمخاطبة الملوك لا تكون هكذا.

ومـــنه أنَّ الـــنُّعمان بن المنذر رأى شجرة ظليلة ملتفة الأغصان، في مرج حسن كثير الشقائق، وكان معجباً بها وإليه أضيفت، فقيل، "شقائق النعمان"، فنزل، وأمر بطعام وشراب فأُحضرا، وجلس

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

[1] . الصناعتين - أبو هلال العسكري، ص (432).
[2] . العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج1، ص (225).
[3] . المصدر السابق، ص (225).
[4] . المصدر السابق، ص (229).

للذته فقال له عدي بن زيد –وكان كاتبه– : أتعرف –أبيت اللعن– ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول:

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حولنَا يشربون الخمر بالماء الزُّلالْ
عَكَفَ الدَّهرُ عليهــم فثَوَوْا وكذاك الدَّهرُ حالاً بعد حــالْ
مَنْ رآنــا فَلْيُوَطِّــن نفسَــهُ إنَّما الدُّنيــا على قرنَيْ زَوالْ

فتــنغَّص علــيه ما كان فيه، وأمر بالطعام والشراب فرفعا من بين يديه، وارتحل من فوره ولم ينــتفع بنفســه بقــية يومه وليلته. فيقول القيرواني: فكأنه قصد هنا موعظته[1]. ولكنَّ المقام في تلك اللحظة ليس مقام موعظة فأخطأ الشاعر بسبب عدم ملائمة المقال للمقام.

ومــنه، عــن سليمان بن عبد الملك أنه خرج من الحمام، وهو الخليفة، يريد الصلاة، ونظر في المــرآة، فأعجــبه جمالــه، وكان حَسَن الوجه، فقال: أنا الملك الشاب–ويروى الفتى– فتلقته إحدى حظاياه، فقال لها: كيف ترينني؟

فقالت:

جميع الحقوق محفوظة

ليس فيما بدا لنا مِثْلَكَ عَيْــبٌ عابَهُ الناسُ غيرَ أنَّكَ فــاني
أنتَ نِعمَ المتاعُ لو كُنتَ تَبقى غيرَ أنْ لا بَقــاءَ للإنســانِ

فتطير منها، ورجع، فحُمّ، فما بات إلا ميتاً تلك الليلة[2].

ومــن قبــيح الابتداءات قول ذي الرمة عندما دخل على عبد الملك بن مروان، فاستنشده شيئاً من شعره، فأنشده قصيدته:

ما بال عَيْنكَ منها الماءُ ينْسَكِبُ

وكانــت بعيــن عبد الملك بن مروان ريشة، فهي تدمَع أبداً، فتوهم أنه خاطبه، أو عَرَّض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟!

ومقته، وأمر بإخراجه[3].

وكذلك فعل ابنه هشام بأبي النجم وقد أنشده:

صَغواء قد كادَتْ ولمّا تَفعَلِ كَأنَّها في الأفْقِ عَيْنُ الأحْــوَلِ

---

[1] . العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج1، ص (230).
[2]. المصدر السابق، ج2، ص (84).
[3] . المصدر السابق، ج1، ص (229).

وكان هشام أحول، فأمر به، فحجب عنه مدة، وقد كان قبل ذلك من خاصته، يسمر عنده، ويمازحه.

فالشـــاعر الفطن يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين ومقامهم، ويميل إلى شهواتهم، وإن خالفت شهوته، ثم يتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنبه[1].

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من أجاد الابتداء والمطلع، ألا ترى إلى قصيدة أبي نواس التي أولها:

يا دار ما فعلت بك الأيام لم تبق فيـــك بشاشةٌ تستـــام

فإنهـــا من أشرف شعره وأعلاه منزلة، وهي مع ذلك مستكرهة الابتداء، لأنها في مدح الخليفة الأمين، وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يُتطيّر منه، لا سيما في مشافهة الخلفاء والملوك[2].

وحـــتى لا نعـــتقد –من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقاً– أنّ المعاني التي يُتطير منها فقط هي التي لا توافق المقامات يقول ابن الأثير: "واعلم أنه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتطير منه فقـــط، فـــإن من الابتداءات ما يُستقبح وإن لم يتطير منه"[3]. يقول حازم القرطاجني: "فالنفس تكون متطلعة لما يُستفتح لها الكلام به. فهي تنبسط لاستقبالها الحُسن أولاً، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولاً أيضاً"[4]

فقـــد عيـــب على الأخطل في تغزله بقذور وهي اسم امرأة، مستقبح في الذكر، وقد عيب على غـــيره الـــتغزل باســـم تماضر، فإنه وإن لم يكن مستقبحاً في معناه فإنه ثقيل على اللسان، كما قال البحتري:

إن للبيـــن منـــة لا تُؤدى ويداً في تماضرٍ بيضاء[5]

فتغزله بهذا الاسم يشوه رقة الغزل، ويثقل من خفته[6]، وهذا مقام رقة وغزل وتشبيب. واللفظة إذا لـــم توضـــع موضعها نفرت. فلا تجعل الألفاظ "قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجَّنت الموضع الـــذي أردت تحســـينها. وأفســـدت المكان الذي أردت إصلاحه. واعلم أن الألفاظ في غير أماكنها

---

[1] . العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج1، ص (229).
[2] . المثل السائر- ابن الأثير، م2، ص (212).
[3] . المصدر السابق، ص (213).
[4] . منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ص (282).
[5] . من قصيدته في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف.
[6] . المثل السائر- ابن الأثير، م2، ص (213).

والقصد بها إلى غير مظانها كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن حدّ الجدة وتغير حُسنه[1].

ومن الابتداءات ما يستقبح وإن لم يتطير منه أيضاً قول أبي تمام:

"قدك أتئب أربيت في الغلواء"[2]

وكقوله: "تقى جمحاتي لست طوع مؤنبي"[3]

فصـــوت هذه الكلمات يبعث على السأم والنفور، وهذا لا يوافق مقام المدح. ويُطلب من الشاعر أيضـــاً أن يتجنّـــب في التشبيب مَنْ يوافق اسمها بعض نساء الممدوح من أمَةٍ أو قرابةٍ أو غيرها، وكذلك ما يتصل به سببه أو يتعلق به وهمه. ومثل ذلك قصة أرطأة بن سهية الشاعر مع عبد الملك بن مروان عندما أنشده قوله:

رأيتُ الدهرَ يأكلُ كلَّ حيّ كأكل الأرض ساقطة الحديـــدِ

وما تبغي المنيةُ حين تعدو سوى نفسِ ابن آدم من مَزيـــدِ

وأحسَبُ أنها ستكرُّ يومـــاً توقّـــي نذرهـــا بأبي الوليـــد

فقال له عبد الملك: ما تقول ثكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين. وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد أيضاً، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات[4].

ورُوي أن أبـــا العتاهية لقي ابن مناذر بمكة فجعل يمازحه ويضاحكه ثم دخل على الرشيد فقال: يا أمـــير المؤمنيـــن! هذا ابن مناذر شاعر البصرة يقول قصيدة في سنة وأنا أقول في سنة ما بين... قصـــائد، فقال الرشيد أدخله إليّ فأدخله إليه وقدّر أنه يضعه عنده، فدخل فسلم ودعا، فقال: ما هذا الـــذي يحكـــيه عنك أبو العتاهية؟ فقال ابن مناذر: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال : زعم أنك تقول قصـــيدة في سنة، وأنه يقول كذا وكذا قصيدة في السنة، فقال: يا أمير المؤمنين! لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعـــة أموت الساعة الساعة

---

[1] . الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص ص (29-30).

[2] . المثل السائر- ابن الأثير، م2، ص (213)، وهذا البيت مبتدأ قصيدة يمدح فيها محمد بن حسان الضبيّ، قدك أتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي، قوله: اتئب : أي استحي ، و سجرائي : أي أصدقائي.

[3] . المصدر السابق، ص (214)، وهذا البيت مقدمة قصيدة في مدح عياش بن لهيعة الحضرمي:
تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي وليس جنبي إن عذلت بمصبحي، قوله : جمحاتي المراد ثوراتي وعصياني.

[4] . عيار الشعر- ابن طباطبا، ص ص (127-128).

لقلت منه كثيراً، ولكني الذي أقول:

إن عبد المجيـــد يوم تولى هدّ رُكنا ما كان بالمهـــــدود

ما درى نعشه ولا حاملــوه ما على النعش من عفاف وجود

فقال له الرشيد: هاتها فأنشدنيها، فأنشده، فقال الرشيد: ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا فـــي خليفة أو وليّ عهد! ما لها عيب إلا أنك قلتها في سوقة! وأمر له بعشرة آلاف درهم؛ فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً[1].

وجملـــة الأمـــر بعـــد كل تلك الأمثلة والشواهد الشعرية أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضـــرة ومقامهـــا ثم يتخيّر لها ما يناسبها من المعاني، ثم يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات أو لا يناسب المقام.

في مقامات التلقي وأغراض الشعر الأدبية

إنّ الأحوال النفسية –التي تكلم عنها نقاد العرب ما هي إلاّ أغراض الشعر المتعددة– كما يرى حازم القرطاجني[2] فتعدد أغراض الشعر بنحو ما يوازي أحوال الإنسان التي لا تحصى وحديثه عن هـــذه الأغـــراض لا تخرج عن عموميات ما جاء به السابقون في كل من المدح والنسيب والرثاء والفخـــر والهجاء... فمعاني الهجاء لها ألفاظها الخاصة بها، ومعاني الرثاء لها ألفاظها الخاصة بها أيضـــاً، وهكـــذا فهـــي لها كالمعروض للجارية الحسناء التي تزداد حُسناً في بعض المعارض دون بعض لتعتمد التأثير المركز والنفاذ إلى النفوس.

قـــال الجـــاحظ: و"لكـــل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل.."[3] ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكـــون اللفظ جزلاً إذا كان المعنى فخماً، ورقيقاً إذا كان المعنى رشيقاً وغريباً إذ كان المعنى غريباً بحتاً.

فمثلاً مقام المدح يجب أن تكون ألفاظه نقية ومعانيه جزلة مذهوباً بها مذهب الفخامة وأن تكون فيه مـــع ذلـــك عذوبـــة"[4] فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تُلبسه لفظاً جزلاً لائقاً بمن كاتبته أو (خاطبته)

---

[1] . الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (33).
[2] . منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني، ص (77).
[3] . البخلاء - الجاحظ، ص (302).
[4] . العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج2، ص (77).

ومشـــابها لمن راسلته فإن إلباسك المعنى، وإن شرف وصلح، لفظاً مختلفاً عن قدر المكتوب إليه.. (أو المخاطب) إخلال بقدره.. ونقص مما يجب له"[1]

ومقام المدح يجب فيه السمو بكل طبقة من الممدوحين إلى ما يجب لها من الأوصاف، وإعطاء كُـلٍّ حَقَّــه من ذلك، ويجتنب مع ذلك التقعير، والتجاوز والتطويل؛ فإن للملك سَامة وضجراً، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب.

ويجب أن لا يمدح رجل إلا بالأوصاف التي تليق به، ولا يجب أن يقصر به عما يستحق، ولا أن يعطــيه صفة غيره، فيصف الكاتب بالشجاعة والقاضي بالحمية والمهابة، لا يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء، وإن كان فضيلة وذلك مثل قول البحتري، يمدح المعتز بالله:

لا العَدْلُ يردَعُهُ ولا التّعنيــ فُ عــن كَــرَمٍ يصـــــدُّهُ

فهــذا مما أنكره عليه أبو العباس أحمد بن عبد الله، وقال : من ذا يعنف الخليفة على الكرم، أو يصده ؟ هذا بالهجاء أولى منه بالمدح[2].

وعيب على الأحوص قوله للملك:

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضُهُم مَذِقُ الحديث يقولُ ما لا يَفعَلُ

فهذا معنى صحيح في المدح إلا أنه مَدَح الملك بما يمدح به العوام، لأن صِدْق الحديث وإنجاز الوعــد، وإن كــان مدحاً فهو واجب على كلٍّ، والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة، وإنما يحسن مدحهــم بالنوافل، لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك تصدق في وعدك، وتفي بعهدك، وإنك لا تخون ما استُودِعت، كان قد أثنى بما يجب، ولكنه لم يصل بثنائه إلى مقصده، وقال ما لا يستحسن مثله في الملوك[3] وعابوا على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان:

وقد جَعَــلَ الله الخلافــة منهُــمُ لأبيضَ لا عاري الخِوان ولا جَدْبِ

وقالوا: لو مدح بهذا حرسياً لعبد الملك، لكان قد قصر به[4].

فهذه الصفات لها مقاماتها التي تليق بها. فأفضل ما مدح به القائد: الجود، والشجاعة، وما تفرع منهما، نحو التخرق في الهبات، والإفراط في النجدة، وسرعة البطش، وما شاكل ذلك.

---

[1] . **الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص ص (11-12).**
[2] . **العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج2، ص (78).**
[3] . **المصدر السابق، ص ص (78-79)، وينظر: الرسالة العذراء، إبراهيم بن المدبر، ص (15).**
[4] . **المصدر السابق، ص (78) ، للمزيد من الأمثلة في هذا المقام ينظر: العمدة، ابن رشيق القيرواني، ج2، ص ص (77-92).**

ويمـــدح القاضي بما ناسب العدل والإنصاف، وتقريب البعيد في الحق، وتبعيد القريب، والأخذ للضـــعيف من القوي، والمساواة بين الفقير والغني، وانبساط الوجه، ولين الجانب وما شاكلها. وما يقال عن طريق المدح يمكن أن يقال كله أو جله عن طريق الفخر والرثاء والهجاء، كل الفرق بين المـــدح والفخر في الطريقة، فالفخر "مدح يعيده المتكلم على نفسه أو قبيله وأن المادح يجوز له أن يصف ممدوحه بالحسن والجمال ولا يسوغ للمفتخر أن يصف نفسه بذلك"[1]

والفرق بين المديح والرثاء في أن الرثاء "لا يصدر بنسيب لأنه مناقض لغرض الرثاء وإن كان هذا قد وقع للقدماء"[2]

ثم إنّ مقام الهجاء على النقيض من المديح.

أما مقام النسيب فتأتي ألفاظه حلوة، لينة، سهلة، رقيقة، شفافة[3] ومن هذا الباب مقام التعازي، وهـــي مـــن مستصعبات فن الكتابة والشعر، فتعازي النساء غير تعازي الرجال، ولا يعزى بالميت علـــى فراشـــه، كما يعزى بالميت قتلاً، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق[4] فلكل مقام منها ألفاظ تعزية تليق به.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومثل هذه السنن في الأغراض والمعاني الشعرية تتغير من عصر إلى عصر، لهذا تستدل منها على المقام الثقافي الذي كان سائداً في كل عصر.

في مقامات التلقي وأحوال أطراف الخطاب

ثالثاً: في الخطبة والخطاب العادي

لا بُـــد من الإشارة هنا "أنّ الرسائل والخُطب متشاكلتان في أنهما كلامٌ لا يلحقه وزن ولا تَقْفِيَة، وقـــد يتشـــاكلان أيضـــاً من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظُ الخطباءِ تُشبِه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبـــة؛ وكذلك فواصلُ الخطب مثل فواصل الرسائل؛ ولا فرْق بينهما إلا أنّ الخطبة يُشافه بها، والرســـالة يُكتـــب بها؛ والرسالةُ تُجعَل خُطبة، والخُطبة تُجعل رسالة، في أيْسر كُلفة"[5] "ومما يعرف أيضـــاً مـــن الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمْرِ الدين والسلطان أما الكتابة فعليها مدار السلطان"

---

[1] . منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني، ص (352).
[2] . المصدر السابق، ص (351).
[3] . العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج2، ص (65).
[4] . المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص (328).
[5] . الصناعتين- أبو هلال العسكري ، ص (136).

و"الخطابةُ لها الحظ الأوفر من أمر الدين"[1].. لهذا فإنّ المقام الاجتماعي والسياسي للمخاطَب واجب مـــراعاته في فن الخطابة والمخاطبات العادية والخُطبة –كما كان في الرسائل–؛ فيُعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، ويضع الكلام مواضعه.

قـــال أبـــو هلال العسكري: "وأحْسَنَ الذي قال: لكل مقام مقال"[2] ثم ساق أمثلة تبين ذلك –وهو أول مَـــنْ ســـاق المـــثال– فقـــال: و"ربما غَلبَ سوءُ الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطـــبون السوقيّ والمملوكَ والأعجميَّ بألفاظ أهل نجدٍ، ومعاني أهل السراة؛ كأبي علقمة إذ قال لحَجَّامـــه: اشدد قصب المَلازم[3]، وأرهِف ظُبَاةَ[4] المشارط، وأمرّ المَسْحَ، واسْتَنجِل الرشح[5]، وخَفِّف الوَطْء، وَعَجّل النَّزع، ولا تَكْرهَنَّ أبيا، ولا تَمْنَعَنَّ أنْيّا. فقال له الحجَّام: ليس لي علمٌ بالحروب.

ورأى الـــناسَ قـــد اجـــتمعوا علـــيه، فقال: مالكم تَكَأكأتُم عليَّ كأنكم قد تكأكأتم على ذي جنَّةٍ، افْرنْقِعُوا[6] عني[7].

وجـــاء لدى أبي هلال في الصناعتين: عن أبي أحمد عن الصولي عن علي بن محمد الأسدي، عن محمد بن أبي المغازل الضبي، عن أبيه، قال: كان لنا جارٌ بالكوفة لا يتكلَّمُ إلا بالغريب، فخرج إلى ضَيْعةٍ له على حِجْرٍ[8] معها مُهْرٌ، فأفلتتْ، فذهبت ومعها مهرُها، فخرج يَسْأل عنها، فمرَّ بخيَّاط، فقـــال: يـــاذا النَّصـــاح[9]، وذاتَ السَّمِّ[10]، الطّاعِنِ بها في غَيرِ وَغىً، لغير عِدىً، هل رأيت الخَيْفانة القَـــبَّاء[11]، يتبَعُها الحاسِنِ المُسْرَهفُ[12]، كأنَّ غُرَّتَه القمرُ الأزهر، يُنير في حُضْرِه كالخلْب الأجْرَد. فقـــال الخيَّاط: اطْلُبها في تزلخ[13]. فقال وَيْلَك. وما تقول قبَّحك الله؟ فما أعْلَم رَطَانَتك، فقال: لعَنَ الله أبغضَنا لفظاً، وأخطأَنا مَنْطِقاً[14].

---

[1] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (136).
[2] . المصدر السابق، ص (27).
[3] . الملازم: جمع ملزم، بكسر الميم واسكان اللام: خشبتان تشد أوساطهما بحديدة.
[4] . الظباة: واحده ظبة وهي حد سيف أو سنان ونحوه.
[5] . المشارط: مبضع الحجام الذي يشرط به الجلد، واستنجل الرشح: استخرجه.
[6] . تكأكأ بالهمزة تجمع، وافرنقعوا : اذهبوا.
[7] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (27).
[8] . الحجر: الأنثى من الخيل.
[9] . النصاح: الخياط.
[10] . ذات السم: الإبرة ذات الثقب.
[11] . الخيفانة: الناقة السريعة، القباء: الدقيقة الخصر الضامرة البطن.
[12] . الحاسن: الحسن، والمسرهف من سرهفت الصبي: أحسنت غذاءه ونعمته.
[13] . قوله في تزلخ، أراد به التهكم، والزلخ: المزلة تزل منها الأقدام.
[14] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص ص (27- 28).

وورد فـــي الصناعتين، أيضاً، أن أبا علقمة قال لجاريةٍ كان يهواها: يا خَريدة، قد كنتُ إخالُك عَروباً، فإذا أنت نَوَار[1]، مالي أمِقُك وتشنئيني! قالت: يا رقيع، ما رأيتُ أحداً يحبُّ أحداً فيشتمه![2]

فالواجـــب أن تقسّـــم طبقات الكلام على طبقات الناس؛ لأن العاميَّ إذا كلمته بكلام العِلْية سَخِر منك، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة: "بم كُنتُم تَنْتقِلون البارحة؟ يعني على النبيذ. فقال بالحمّالين. ولو قال له : أي شيء كان نَقْلُكم لسَلِم من سُخْريته"[3].

والغايـــة من هذا التقسيم هي الفهم والإفهام كما يقول أبو هلال العسكري: فلا بد من أن يخاطب السوقي بكلام السُّوقة، والبدويُّ بكلام البَدْو، ولا يتجاوز به عما يعْرِفُه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدةُ الكلام وتعدم منفعةُ الخطاب"[4]

ويحـــذّر أبو هلال العسكري من خطورة استخدام المصطلحات الخاصّة بعلم من العلوم، فهي لا تســـتخدم إلا إذا كـــان موضوع الخطبة أو الكلام في هذا العلم أو ذاك" فإنْ كنت متكلماً، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض مَنْ تصلُحُ له الخُطب، فتخطّ ألفاظ المتكلمين، مثل الجسم والعَرَض، والكون والتأليف والجوْهَر، فإن ذلك هُجْنَة"[5].

مركز ايداع الرسائل الجامعية

مقام الإيجاز والإطناب في الخطابة

ومـــن جهة أخرى تحدد طبقة المخاطبين الإيجاز أو الإطناب فـــ"الإيجاز ينبغي أنْ يُستعمل في مخاطـــبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره وبجمله عن تفسيره.. وأمـــا الإطالة ففي مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام ومن لا يكتفي من القول بيسيره، ولا يتفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره"[6]

والـــترداد في الكلام "على قدْر المستمعين ومَنْ يحضُره من العوامّ والخواص"[7] "وقد رأينا الله عزّ وجلّ ردَّد ذِكر قِصة موسى وهودٍ، وهارون وشعيب، وإبراهيمَ ولوطٍ، وعادٍ وثمودَ. وكذلك ذِكرَ

---

[1] . العروب: المتحببة إلى زوجها، والنوار المرأة: النفور.
[2] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (29)، وللمزيد من هذه الأمثلة ينظر : ص ص (27-31).
[3] . المصدر السابق، ص (32).
[4] . المصدر السابق، ص (29).
[5] . المصدر السابق، ص (135).
[6] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب، ص ص (195-196).
[7] . البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (105).

الجنَّة والنّار وأمورٍ كثيرة؛ لأنه خاطَبَ جميعَ الأمم من العَربِ وأصناف العَجَم، وأكثرُهم غَبيٌّ غافِل أو مُعانِدٌ مشغولُ الفِكْرِ ساهي القلب"[1].

وقد رأينا الله تعالى إذا خاطبَ العربَ والأعرابَ أخرج الكلام مخرج الإشارة والوَحي، وإذا خاطبَ بني إسرائيل أو حَكَى عنهم جعل الكلام مَبْسوطاً[2].

وارتبطت الخطابة بحال المخاطَب، وقد أشار إلى هذه الحال ابن وهب فقال: "وإذا رأى (أي الخطيب) من القوم إقبالاً عليه وإنصاتاً لقوله فأحبوا أنْ يزيدهم، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقلاً عن استماع قوله خفف عنهم، فقد قيل مَنْ لم يَنْشَط لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك"[3]

والسُّنة في خطبة النكاح أنْ يُطيل الخاطبُ وكذلك في إصلاح ذات البين. فإصلاح ذات البين والنكاح موضوعان يقتضيان الإطناب ولو ملَّ السامع، قيل لابن المقفع: "فإنْ ملَّ السامعُ الإطالة التي ذكرتَ أنها حقُّ ذلك الموقف. قال : إذا أعطيْت كلَّ مقامٍ حقَّهُ، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيْتَ مَنْ يعرف حقوقَ الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتَكَ من رضا الحاسد والعدُوّ، فإنه لا يُرضيهما شيء وأما الجاهلُ فلستَ منه وليس منك، ورِضا جميع الناس شيءٌ لا تناله[4]. والإطناب لا بُد منه في المواعظ، وإذا عَظُم الخَطْب، وفي مديح الملوك،[5] وإذا قاموا مقاماً في تحضيض على حرب، أو في فتْح، أو في استصلاح.[6]

ودعا الخطباء إلى التفريق بين صَدْر خُطْبة النّكاح وبين صَدْر خُطبة العيد، وخطبة الصُّلح، وخطبة التواهُب، فلكل مقام منها ألفاظه التي تدل عليه[7].

وكانوا يستحسنون أن يكون في الخُطَبِ يومَ الحَفْل، وفي الكلام يوم الجَمْع آيٌ من القرآن؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاءَ والوقار، والرّقة، وسَلس الموقع[8].

"قال الهيثم بن عديّ: قال عِمران بن حِطّان: إن أول خطبة خطبتُها، عند زياد فأعجِبَ بها الناس، وشهدها عمي وأبي ثم إني مررتُ ببعض المجالس، فسمعتُ رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى

---

[1] . البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (105).
[2] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (193).
[3] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب ص ص (194-195).
[4] . البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (116).
[5] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (192).
[6] . أدب الكاتب – ابن قتيبة، ص ص (19-20).
[7] . البيان والتبيين- الجاحظ ج1، ص (116).
[8] . المصدر السابق، ص (118).

أخطـــبُ العربِ لو كان في خطبته شيء من القرآن[1]. ثم إنّ أوصاف الخُطبة ترتبط بمقتضى حالها، فكـــانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله –عز وجل– في أولها؛ "البتراء" وكل خطبة لا تُوشح بالقرآن ولا بالأمثال : "الشوهاء"[2].

وصفوة القول:

تؤكـــد الأمـــثلة والشواهد السابقة على صلة الرسائل والشعر والخطابة بأحوال الإنسان ومقامه، وهي صلة تظل وراء كل رسالة تُكتب ووراء كل انفعال بالشعر ووراء كل خُطبة تُقال.

لهذا أوجب النقاد العرب على المتكلم البَصَر بمقامات الخطاب وأحواله ومطابقة المقال للمقام، فدعوا الكاتب أو الشاعر أو الخطيب إلى التزام ذلك وإنزال ألفاظهم على قدْر المكتوب إليه والمقول لـــه فـــلا يُعطـــوا الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام ومن ثَمّ إنزال ألفاظهم على قدْر أحوال الإنسان النفسية. وعلى قدْر أحوال المتلقي النفسية والعقلية وما يحيا فيه من مقام اجتماعي.

ففنون الكلام القديمة من خطابة وشعر وكتابة، فنون مقامية، تختلف باختلاف أنماطها وطرقها، وتخـــتلف بحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها مما شأن هذه الفنون أنْ تتعلق به. وتختلف بحسب اخـــتلاف الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أنْ يوصف، وتختلف بحسب الأحوال وما تصلح له وما يلـــيق بها من الأوصاف والمعاني، وتختلف بحسب ما تختص به كل أمة من اللغة المتعارفة عندها الجارية على ألسنتها. .

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1] . **البيان والتبيين – الجاحظ، ج1، ص (118).**
[2] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (194).**

قضايا نقدية قديمة في ضوء المقام

أولاً: عمود الشعر في ضوء المقام

إن عمـــود الشعر يفتح مجالاً واسعاً لبحث مفهوم المقام، ومؤدى هذا الكلام أنّ عمود الشعر ما هو إلا آراء نظرية المقام.

فـــنقاط عمـــود الشعر ليست ردود أفعال النقاد العرب على النصوص الشعرية بمقدار ما هي شروط نظرية المقام اهتدى إليها النقاد لضبط الاستخدام الشعري إذا ما أردنا إثارة عواطف المتلقي.

ويقصـــد **بعمـــود الشعر** : الخصائص التي ينبغي أن تتوافر في الشعر الجيد أو الأسلوب الذي سلكه فحول الشعراء في العصر الجاهلي وما بعده بقليل في نظم الشعر.

وحدّد المرزوقي في كتابه شرح ديوان الحماسة مبادئ عمود الشعر في النقاط التالية "...إنهم كانوا يحـــاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف... والمقاربة في التشـــبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار لـــه، ومشـــاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما –فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر..."[1].

فيصور الشاعر ما أراد التعبير عنه من المعاني تصويراً مطابقاً لما عليه، فالوصف لا يأتي إلا لمطابقـــة الكـــلام لمقتضـــى الحـــال وعليه أن يورد من المعاني اللائقة لذلك مقدار ما يناسب طبع المخاطَـــب. فمثلاً، إذا أراد الشاعر أن يمدح إنساناً أو يذمه أو يهجوه، فلكل معنى من هذه المعاني ألفـــاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها فللمدح ألفاظ تخصه وللذم ألفاظ تخصه وللهجاء ألفاظ تخصه. يستخدم الألفاظ البعيدة عن الضعف والغرابة والتعقيد وتنافر الحروف.

وخـــير وســـيلة لتجســـيد المعنى القائم في النفوس والحالة التي يعيشها، الأساليب البلاغية من اســـتعارة وتشبيه... وتأتي كلمات القصيدة متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً تنساب انسياباً جميلاً ويقع اللفظ في موقعه.

ومـــا هـــذه المـــبادئ إلا عناصـــر ضرورية تبحثها المقامية البراغماتية وما هذه المبادئ إلا مجموعة القواعد التي تُفضي إلى التأثير والإقناع.

ثانياً: السّرقات الشعرية في ضوء المقام

[1]. شرح ديوان الحماسة- المرزوقي، ج1، ص ص (8-11).

تقود فكرة المقام إلى منهج أفضل لدراسة السرقات الشعرية. فمن الأسس والمقاييس العامة التي انـــتهى إليها نقاد العربية القدماء في مبحث السرقات الشعرية؛ أنّ السرقة تكون في المعاني الخاصة التي ارتبطت بمقام معين أو تجربة ذاتية أو حالة خاصة.

فالمعانـــي الخاصة هي تلك المعاني التي ارتبطت بمقام معين ارتباطاً لا يتأتى معه فصلها عن مقامهـــا لشـــدة ملامســـتها له وارتباطها به لأنها نتيجة تجربة ذاتية عاناها الأديب وحده وعاش في أجوائها ثم عبّر عنها تعبيراً يكشف عن تلك التجربة الخاصة.

فهـــذه وحدها محل السرقة، وهي من الأسس السليمة، والجديرة بالاحتكام إليها والاعتماد عليها في الحكم على الشعراء بالسرقة أو عدمها.

وإلا لماذا دعا نقاد العرب إلى استعمال المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، قال ابـــن طباطـــبا: "فإذا وجد معنى لطيفاً في تشبيب أو غزل استعمله في المديح، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء، وإن وجده في وصف ناقة أو فرس استعمله في وصف الإنسان، وإن وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة، فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها فيها"[1].

ثم تابع قوله: "وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان أخفى وأحسن. ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه، وكالصباغ الذي يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الحسنة"[2]

وهكـــذا شـــبّه ابـــن طباطبا عملية نقل المعاني في غير الجنس الذي وُلدت فيه بعمل الصائغ والصـــباغ فقـــال: "فإذا أبرز الصائغ ما صاغه في غير الهيئة التي عهد عليها، وأظهر الصباغ ما صـــبغه علـــى غـــير اللون الذي عهد قبل، التبس الأمر في المصوغ وفي المصبوغ على رائيهما، فكذلك المعاني وأخذها واستعمالها في الأشعار على اختلاف فنون القول فيها"[3]

فابن طباطبا عدَّ نقل المعنى من مقام إلى آخر سبباً في إخفاء السرقة وتضييع معالمها حتى تدق على أمهر الناقدين.

فالمقام الجديد يُكسب المعنى بُعداً لم يكن له في السابق.

---

[1] . عيار الشعر- ابن طباطبا، ص ص (80-81).
[2] . المصدر السابق، ص (81).
[3] . المصدر السابق، ص (81).

ومـــن ذلـــك أنه لما مات الاسكندر ندبه أرسطو طاليس فقال: طالما كان هذا الشخص واعظاً بليغاً. وما وعظ بكلامه موعظة قط أبلغ من وعظه بسكوته: فأخذه صالح بن القدوس فقال:

وينادونه وقد صـــم عنُهـــمُ ثم قالـــوا وللنساء نحيـــــبُ

من الذي عاق أن تردَّ جوابـــاً أيهـــا المقول الألدُّ الخطيـــبُ

إن تكن لا تطيقُ رجعَ جوابٍ فيمـــا قد ترى وأنت خطيـــبُ

ذو عظات وما وعظت بشيء مثل وعْظِ السكوتِ إذ لا تُجيبُ[1]

فاختصره أبو العتاهية في بيت فقال:

وكانت في حياتك لي عظاتٌ فأنت اليوم أوعظُ منك حياً[2]

ومنه قول عيسى عليه السلام: "تعملون السيئات، وترجون أن تُجازوا عليها بمثل ما يجازى به أهل الحسنات، أجل، لا يجنى من الشوك العنب"

فقال ابن عبد القدوس:

إذا وتَرتَ امرأً فاحذَرْ عَداوتَـــه مَنْ يَزْرَعِ الشَّوكَ لا يَحْصُدْ به عِنَبَا[3]

وهكـــذا نـــبّه القدماء الكاتب أو الشاعر إلى هذا الطريق الجديد القديم أي طريق تداول المعنى الواحـــد[4] في مقامات مختلفة فأوردوا حشداً من النماذج التي يتم فيها تداول المعنى بين النظم والنثر أو نقل المعنى المستعمل في مقام صفة خمر فيجعله في مقام مديح. أو في مقام مديح فينقله إلى مقام وصف...الخ.

ثالثاً: اللفظ والمعنى في ضوء المقام

نظـــرية المقـــام تقودنـــا إلى قضية اللفظ والمعنى، وهي من القضايا النقدية التي شغلت أذهان العديـــد من العلماء فوقفوا منها مواقف مختلفة؛ فمنهم مَنْ رأى أن اللفظ هو الأساس وآخرون رأوا في المعنى أساساً وبعضهم وافق بينهما.

ففي ضوء هذه النظرية لم يعد هناك لفظ أو معنى، إنما هناك تركيب ينصهر فيه المحتوى مع بقية عناصر اللغة في المقام الواحد، فاستطاعت النظرية المقامية أنْ تُحدث ربطاً والتحاماً بين اللفظ والمعنى فلا يمكن أن يسمو أحدهما دون سمو الآخر فالألفاظ عنوان معانيها.

---

[1] . **عيار الشعر- ابن طباطبا، ص (82).**
[2] . **المصدر السابق، ص (82).**
[3] . **العمدة- ابن رشيق القيرواني، ج2، ص (229).**
[4] . **للمزيد من الاطلاع ينظر الصناعتين- أبو هلال العكسري، ص ص (196-228).**

ولا قيمة لمضمون ما إلا إذا ائتلف بالشكل الموافق الأنسب. وهل قالوا: لفظة متمكنةٌ ومقبولة، وفي خلافه: قلقةٌ ونابيةٌ ومستَكْرهة، إلا وغَرَضهم أن يُعَبِّروا بالتمكن عن حُسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنُّبُوّ عن سوء التلاؤم[1] "فإذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرّها ولا حالَّة من مركزها، بل وجدتها قلِقة في مكانها، نافرة عن موضعها، فلا تكْرهها على القرار في غير موضعها"[2]

لهذا نجد في كتب القدماء باباً سمّوه "باب ما وضعوه غير موضعه" . فمثلاً يقولون للكلأ الأخضر: حشيش. وليس كذلك.

إنما الحشيش: اليابس، فأما الأخضر فيسمى الرُّطْب والخَلَى[3].

ويقولون للفرس (القليل اللحم)، المضطرب الخَلْق: مِلواح.

وليس كذلك, إنما الملواح: السريع العطش.[4]

ويقولون : رجل هَيوب، للذي يهابه الناس.

والصواب: مَهيب فأما الهَيوب فهو الجبان[5].

ويقولون للفرس الأبيض: أشهب وليس كذلك ، إنما يقال أبيض وقِرطاسِيٌّ.

فأما الشهبة فهي سواد وبياض، يقال : فرس أشهب ، إذا اختلط فيه السواد والبياض[6].

فالمقامية هي نتاج تفاعل اللفظ والمعنى.

الملحوظات النقدية الحديثة والمقام

وهكذا فقد قرأ النقاد العرب القدامى الشعر العربي والخُطب والرسائل في إطار مقامي براغماتي فكانت لهم إشارات ذكية. لكنّ الواقع أن فكرة (المقام) و (المقال) التي أثاروها بقيت محصورة من حيث التطبيق في اللفظة الواحدة والجملة والبيت وذلك عندما طبقوها على مطلع القصيدة حيث أرادوه أن يكون مناسباً ومتمشياً مع موضوع القصيدة ومع مَنْ تُقال، ولم تتسع لتشمل القصيدة كلها فيقيموا على أساسها دراسة لغوية شاملة.

---

[1] . دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني، ص (39).
[2] . أدب الدنيا والدين- الماوردي، ص (243).
[3] . تثقيف اللسان وتلقيح الجنان- ابن مكي الصَّقليّ، ص (197).
[4] . المصدر السابق، ص (198).
[5] . المصدر السابق، ص (201).
[6] . المصدر السابق، ص ص(202-203).

لهـــذا لـــم يكـــن بُـــدّ من إعطاء هذه القراءة مناخاً جديداً في عصرنا يتنفس داخله. فدعا النقاد المحدثون إلى اعتماد فكرة المقام في الدراسات الشعرية المعاصرة اعتماداً أوسع وأعمق. فنبهوا إلى الظـــروف والملابسات التي ترافق العبارة المنطوقة لينظروا في تصوير المقام ووصف المشاهد أو المواقف التي تحيا فيها الشخصية وإلى الكشف عن العلاقة التي تربط النصوص بشخصيات مؤلفيها ومحاولة رسم صورة دقيقة لها من خلال دراسة نصوصها وربطها بمقامها والظروف المحيطة بها. ومـــراعاة ملابســـات النص الأدبي وظروف نشأته سياسياً واجتماعياً وثقافياً على اختلاف الأزمنة والأمكنة وفي ضرورة تطويره –النص الأدبي– في إطار نسق جديد لتعدد القراءات؛ فالكلام فضاء مفـــتوح علـــى الـــتأويلات ومراعاة طبيعة المتلقين وتصوراتهم. لأنّ خطابه يصب على قدْرهم أو مقـــامهم. ثـــم إنّ النقد العربي معني بهم (المتلقين) ما دام المراد هو إقناعهم فلم يعد القارئ مجرد مستهلك آلي أو مستقبل سلبي إذ أصبح له في ضوء المقام دور في إعادة صياغة النص عند تلقيه أو بمعـــنى آخر لم يعد المتلقي ذلك المستقبل الذي يهتز طرباً لما يسمع أو يقرأ بل أصبح مُشاركاً في عملية التلقي.

جميع الحقوق محفوظة

ويدعـــو محمد مفتاح إلى تجنُّب الاكتفاء بدراسة نص واحد للشاعر واعتباره كياناً منغلقاً على نفســـه "وأنّه يجب موضعة نصه أو نصوصه مكانياً في خريطة الثقافة التي ينتمي إليها، وزمانياً في حـــيز تاريخـــي معيـــن. ثم ضرب مثلاً على مثل هذه الدراسة التي يطلبها مثل قصيدة ابن عبدون لشـــاعر أندلسي سبقتها قصائد في الغرض نفسه وتقدمتها حكايات عن الأمم البائدة، وأخبار تاريخية وعاصرَتْها وتلتها كذلك لهذا "يتعين قراءتها على ضوء ما تقدمها وما عاصرها وما تلاها"[1]

ويـــرى يوسف بكار أن "الصور في الجمل ليست إلا تجسيداً للتجربة أو للحظة الشعورية التي يعاينها الفنان"[2]

ثـــم يرى أن الوحدة العضوية للقصيدة هي "هيمنة إحساس واحد أو رؤية نفسية ذات لون واحد على العمل الفني كله"[3]. وهي وسيلة الناقد الأدبي في اكتشاف هذا الإحساس ومعرفته.

أما الخطابة فهي مقامية في نظر النقاد المحدثين فهي لم تخرج عن نظرة النقاد القدماء إذ تقوم على خصوصية المتلقين ومعرفة أحوالهم العاطفية من غضب وخوف ورحمة وما يصحبها من ألم

---

[1] . **تحليل الخطاب الشعري- محمد مفتاح، ص (125).**
[2] . **بناء القصيدة العربية- يوسف بكار، ص (374).**
[3] . **المرجع السابق، ص (374).**

ولذة حسب الأعمار والطبقات[1].

أخــيراً عليــنا أن نتنــبّه إلى أنَّ رُقي الخطابة مقترن بنمو الإحساس الأدبي والذوق الفني في الجماهــير لهــذا لا بُــد من رفع المستوى البلاغي والثقافي لجمهورنا وأنْ نُحسن خطابه لعلّه يُقبل عليــنا. وبهــذا يــتقرَّب النقد القديم من النقد الحديث إلا في بعض الأمور التي تأتي وفق متطلبات العصــر وثقافــته ورؤيته، فتأتي علومه مكمّلة ومتطوّرة . وهكذا فإن النظرية المقامية البراغماتية كفيلة بإمدادنا بمناهج للتعامل مع نصوصنا المعاصرة لا بد من تطويرها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1] . **في بلاغة الخطاب الإقناعي ، محمد العمري، ص (25).**

μ

المقـــام هـــو البؤرة التي يلتقي فيها المثل والنكتة والعبارة التأديبية، وعلاقتها بالأشخاص المعنيين بالخطاب.

فعلى المتكلم العمل على توظيفها وطرحها بالشكل المناسب إذا ما أراد بناء أول جسور التواصل بيـــنه وبيـــن مستمعيه وبما ينسجم والمقام. فالأمثال هي الأنغام اللغوية الصغيرة للشعوب ينعكس فيها "الشـــعور" و"التفكـــير" وعادات الأفراد وتقاليدهم على العموم"[1] والنكتة فكاهة المجالس، تدور على كل لســـان، وتـــرى بعضـــهم حيـــن يعجبهم أحد المتحدثين الفكهين يقولون إنه "ابن نكتة" دلالة على مدى إعجـــابهم بـــه[2]. والنكتة أكثر دلالة علينا وعلى نفسيتنا من كثير من الأدب الفصيح الجاد"[3]؛ لأنها من صميم الشعب وتنطق عن روحه ومزاجه بدون أي تصنع أو تكلّف. أما الأدب فيُطلق بوجه خاص على الكـــلام الـــذي يعبر عن الأفكار والمشاعر والتجارب الإنسانية في قالب فني يعجب ويوثّر[4]. وتضاف كلمـــة الأدب فـــتدلّ علـــى ما يستحسن فيما أضيفت إليه، وما ينبغي أنْ يكون عليه الأمر، يقال: أدبُ القضاء وأدب التعليم، وأدب السلوك، وأدب الحديث[5] وقال رسول الله ρ : "أدّبني ربي فأحسن تأديبي". ويقول عبد الملك بن مروان: "عليكم بطلب الأدب، فإنكم إنْ احتجتم إليه كان لكم مالاً وإنْ استغنيتم عنه كان لكم جمالاً".

ففـــي هـــذا الفصـــل سنتناول اللغة في مستوى يختلف عن المستويات الثلاثة السابقة. وإنْ كان لا ينقطع عنها؛ إذ هـــو يتفرع عنها في سياق "الخطاب اللغوي" ! والخطاب في هذا المستوى ليس جملة مـــن الأصـــوات يتلمس طبيعتها وكنهها. وإنما يتم النظر فيها وقد صيغت على هيئة ما وشكلت خطاباً ينبغي أن يتم ربطه إلى مبادئ تتعدى بُنية نظام اللغة إلى مبادئ مقامية براغماتية. ولا بد من التنبيه في هـــذا الفصل أننا لا نتحدث عن براغماتية واحدة بل عن براغماتيات متعددة يوحدها المقام. فقد تحدّثنا سابقاً عما قد يستقيم لنا تجوّزاً أن ندعوه البراغماتية النحوية والبراغماتية البلاغية والبراغماتية النقدية. وهنا سنتحدث عن البراغماتية الخطابية وهي براغماتية ذات خصوصية من نوع ما.

---

[1] . **الأمثال العربية القديمة- رودلف زلهايم، ص ص (13).**
[2] . **الفكاهة في مصر- شوقي ضيف، ص (6) ، ص (11).**
[3] . **المرجع السابق، ص (7).**
[4] . **ينظر مادة أدب: المعجم الكبير ، ص (141).**
[5] . **المرجع السابق، ص (141).**

فخصوصية المثل أنّ من شرطه على حدّ تعبير المرزوقي "ألا يغير عما يقع في الأصل عليه...، -ألا تــرى- قولهــم: "الصيفَ ضيّعتِ اللبن" لما وقع في الأصل للمؤنث لم يتغير من بعد وإن ضُرب للمذكر[1]. وقال التبريزي في تهذيبه: تقول: "الصيفَ ضَيّعْتِ اللبن" مكسورة التاء إذا خُوطب بها المذكر والمؤنــث والإثنان والجمع لأنّ أصل المثل خُوطبت امرأة[2]. فالمثل لا يختلف مقاله لاختلاف الأحوال والمخاطبين واختلاف الزمان والمكان.

أوليس من الضروري براغماتياً ومقامياً أن يوافق اللفظ أحوال المتمثلين به حديثاً ؟ فكما أن المثل فــي مقامه الأول تعبير حي يتناول حالاً عبّر عنها بالمقال المناسب الأليق لها، فكذلك المثل في مقامه الجديد المشابه للأول عندما يتناول حالاً أخرى لا بد أن يأتي مقاله ملائماً لها.

فلم كان ثابت اللفظ مع تغير حال المخاطب؟

ذلــك لأنَّ إطلاق قول المثل يكون ناهضاً من مقتضى الحال التي دفعت به أو مقتضى المقام الذي قيل فيه في أول مرة، فكان لا بد من استحضار نفس المقال الذي قيل دون تغيير. ففي هذا المقال إشارة تــتعلق بقصــته الأصــلية ومقامه الأول. وهو وإن مثل "مقالا" في مقام معين، فإنّ له فرادة في ثبات "المقال-النص" مع تغير المقامات اللامتناهية التي يضرب فيها على متغيّر في ظاهر عناصر المقام أو مضــرب المثل وثابت في جوهر المدلول المجرّد من المثل "المقال-النص" . أما خصوصية النكتة فــنجد أنّ بلاغة المقال فيها لا تتصل بفصاحته أو نوعه أو جنسه وتوافقه مع مقامه ولكن بكسر التوقع بقصد الإضحاك.

وخصوصــية خطــاب رسول ρ بأنه خطاب خالد أبد الدهر يتعالى على الزمان والمكان والعرق والحضارة بتجاوزه للعصور كلها. وهو خطاب غير محدود بقوم دون آخرين وببلدة دون أخرى.

أما العبارة التأديبية فتظهر خصوصيتها بخصوصية موقف طرفي الخطاب فيها.

---

[1] . **المزهر- السيوطي، ج1،ص (289).**

[2] . **مجمع الأمثال – الميداني، ج2، ص (434).**

المثل: دراسة مقامية

المثل: ثبات المقال وتحوّل المقام

يقــول أبو هلال العسكري "ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامة اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذْرة، والكلمة السائرة"[1] وقال : "لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقعَ في القلــوب، وأبقــى علــى الليالي والأيام من مثل سائر"[2]. والمثل في أصل كلامهم، بمعنى المِثل وهو النظــير، ثم قيل للقول السائر المُمَثَّل مَضْربه بمورده: مَثَل. أو كما قال المبرد: "هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول"، والأصل فيه التشبيه.. كقول كعب بن زهير:

كانت مَواعيدُ عُرقوبٍ لها مُثُلاً ومــا مواعيــدُها إلا الأباطيــلُ

فمواعيد عرقوب عَلَمَ لكل ما لا يصح من المواعيد"[3]

فالأمثال: فن من فنون القول التي تتردد على كل لسان، ولا يخلو منها كتاب دين من الأديان، ولا أدب شــعب من الشعوب، والأمثال أكثر ما تجري على لسان الفصحاء وتختلط بخطابة البلغاء وتدخل فــي نوادر الأدباء وبدائع الشعراء وتستخدم في مقام تزيين الكلام؛ لأنها "من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه وأفضــله؛ لقلّــة ألفاظها وكثرة معانيها ويسير مؤنتها على المتكلم مع كبير عِنايتِها وجسيم عائدتها.... ولها روعة إذا برزَت في أثناء الخطاب"[4] ولأنها "ممن يزيّن كتابتك"[5].

فاعتنى العرب بالأمثال، واستعملوها كثيراً، وضربوها في شتى المقامات والمناسبات.

وأقــبل العرب القدماء على أمثالهم جمعاً وتصنيفاً وشرحاً ورواية لقصصها؛ حتى كثرت كتب الأمثال العربية. ولهذا أصبحت الأمثال مادة أساسية يجد فيها الباحث ضالته من ناحية دلالة اللفظ على المعنى أو مــن الناحية التركيبية للجملة أو من ناحية دلالاتها الاجتماعية وغير ذلك. فأصبح المثل شاهداً لغوياً ونحوياً وأسلوبياً عند العلماء. وسيكون شاهداً مقامياً في هذه الدراسة.

---

[1] . جمهرة الأمثال- أبو هلال العسكري،ج1، ص (4).
[2] . الصناعتين- أبو هلال العسكري، ص (137).
[3] . مجمع الأمثال- الميداني، المقدمة، ص (7).
[4] . جمهرة الأمثال- أبو هلال العسكري،ج1، ص (5).
[5] . الرسالة العذراء- إبراهيم بن المدبر، ص (7).

يقول الحسن اليوسي في مقدمة كتابه "زهر الأكم في الأمثال والحكم":

"وكـــان الأقدمـــون بهذا الفن معتنين ولنوادِره ملقنين ومدوِّنين، يَردون مَواردَها، ويقتنصون شواردَها، ويقـــتطفون أزهارهـــا النضـــرة، ويتنسّـــمون نسماتِها العطرة، ويرتشفون ثُغورَها، ويقتبسون نورَها، ويَشـــيمون لمحـــاتِ تلك البوارق، ويَشمون بدُررها صفحات المَهارق، فلما طال العهدُ بأزمان العرب، وقضـــى مَـــنْ تناســـى أيامها كلّ أرَب ، تغلّبت العُجْمة على الألسنة والطباع، فخَلَت من قطينها هاتيك الـــرِّباع، وأصـــبحت حديـــثاً مهجوراً، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، وعادت أيامُها مَحضَ أوهام، فكأنها وكأنهم أحلام، وتقلص ضافي بَرْدها، وتكدّر صافي وردها، وذهبت المعارف والعوارف، وتقلّص ظِلُّها الوارف، وأمست رباعُ الأدبِ قفْراً، وراحة الخواطر منه صِفراً"[1]

ولأن حاجتـــنا الـــيوم إليها شديدة، كان لا بُدّ أن ننقل هذا التراث من الأقوال لتكون حياتنا أفضل وأجمل. وسيكون هذا من خلال قراءتها قراءة جديدة قراءة مقامية براغماتية.

لكـــوْن الأمثال أولاً من طيف الحياة وليست من ثمرات الصرف والنحو والمعجم ولأن جمالية الأمثال وإبلاغيـــتها لا تكمـــن في طرافة بنائها فقط، وإنما هي قائمة كذلك في بُعدها المقامي البراغماتي، فلا يكون المقال هنا إلاّ على قدْر المقام. ولأن الأمثال وقصصها لا تناقش مناقشة تاريخية، أو واقعية، فهي لـــم توضع على أساس التاريخ أو على أساس النقد المنطقي. ولأن ألفاظ الأمثال لا تتغير تذكيراً وتأنيثاً وإفـــراداً وتثنية وجمعاً. وأخيراً لأن الأمثال لا يمكن بحال فهمها دون معرفة مقامها أي دون الوقوف علـــى موردهـــا. يقـــول أبـــو هلال العسكري "وإنما يحتاج في معرفتها...إلى الوقوف على أصولها والإحاطـــة بأحاديـــثها"[2] وهذا هو الفرق بين المثل والحكمة، فالحكمة باعتبارها فكرة أخلاقية عامة لا تحتاج إلى مقام لتوضيحها أو حادثة تنيرها لأن معناها مستفاد من عبارتها.

فالدراسة المقامية البراغماتية للأمثال تستطيع أن تكشف عن أمور وقضايا ما زالت حبيسة الكتب. فالأمثال "مصابيح الأقوال" في مقامات ومواقف متجددة.

فَمِـــثل هـــذه الأمثال تُسعفنا بقول جاهز، حاضر في الذاكرة، ذي إيحاءٍ وقوة بيان. حدث فعلاً في الماضـــي، ومصـــدر قوته ليس إلا تمثله بمقام جديد، نتوصل به إلى المطالب القصية؛ لأنَّ للمثل –كما قـــال بعضـــهم– مـــوردا قيل فيه أولاً، سواءٌ أكان حقيقياً أم فرضياً، ومضرباً، وهو ما يُقال فيه بعده، فالغرض منه تشبيه الحال الثانية بالأولى ليفيد الكلام قوة ووضوحاً.

---

[1] . **زهر الأكم في الأمثال والحكم- الحسن اليوسي، م1، ص ص (13-14).**

[2] . **جمهرة الأمثال- أبو هلال العسكري، ج1، ص(5).**

وقال آخرون: المثل هو القول السائر أي الفاشي المُمَثَّل بمَضْربه، وهي الحالة المشبه بها التي أريدت بالكلام، وبمورده، وهي الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام.

وقـــال الراغـــب الأصفهاني: المثل عبارة عن قول في شيء يُشبه قولاً في شيء آخر بينهما مُشابهة، ليُبين أحدُهُما الآخرَ ويُصوِّرَه، نحو قولهم "الصيفَ ضيّعتِ اللبن" فإن هذا القولَ يشبه قولكَ أهْمَلت وقت الإمكان أمرك.[1]

إبلاغية المثل: المقال والمقام

قـــال إبراهيم النظام: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعـــنى، وحُســـن التشبيه[2]، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة"[3]. وقال ابن عبد ربه" الأمثال هي وشْيُ الكلام وجوهر اللفظ وحُلى المعاني"[4].

ويُلفت انتباهنا من خلال هذه الأقوال أن العلماء الذين عرضوا لتعريف المثل انقسموا إلى فريقين: فريق عُني بجانب المقام، فاهتم بإبراز الجوانب المتصلة به وأجملوها في إعتبار المورد والمضرب. وفـــريق عُني بجانب المقال فاهتم بإبراز الجوانب المرتبطة فيه من إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحُسن التشبيه.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وهكذا، تظهر في الأمثال خصائص الكلام البليغ في مبانيه ومعانيه، فيأتي المعنى بما يليق به من اللفظ. وتجد اللفظ واقعاً موقعه ومقامه غير نافر عنه فعلى قدر المقام يأتي المقال.

فالمـــثل يُلخص وصف تجربة أو حالة راهنة شبيهة في ظروفها بتلك الماضية، لذلك زخرت كتب الأمـــثال بأحاديث قدمت إلينا على أنها تؤطر المثل وتضبط الموضع والمقام الذي ضرب فيه وقيل فيه لأول مرة.

لهـــذا لا بـــد مـــن ذكر المواضع والمقامات التي تُتكلم فيها الأمثال، وتُضرب عندها "لأن الأمثال تتصرّف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جُل أساليب القول"[5] ونضعها بين أيدي القراء ليتمثلوا بها كما تمثل بها النبي ρ وصحابته من بعده وتخيرتها العرب وقدمتها العجم ونُطق بها في كل زمان على كل

---

[1] . مجمع مفردات ألفاظ القرآن -الراغب الأصفهاني، ص (482).
[2] . حُسن التشبيه لا يعني ضرورة أن يتضمن المثل شكلاً من أشكال التشبيه بل إن الحال التي ضرب بها المثل للمرة الأولى مِن قِبَل قائله تماثلها وتشابهها الحال الثانية التي يمر بها ضارب المثل بعد حين.
[3] . مجمع الأمثال- الميداني، ص ص (7- 8).
[4] . العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3، ص (68).
[5] . جمهرة الأمثال- أبو هلال العسكري، ج1، ص (4).

لســـان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها ولا عَمَّ عمومها، حتى قيل أسْيَر من مَثَل،

قال الشاعر:

مـــا أنت إلا مثـــل سائـــر يعرفه الجاهـــل والخابـــر[1]

"فصـــار المـــثل المضروب لأمر من الأمور –المقول في مقام معين– عندهم كالعلامة التي يُعرَف بها الشيء[2]".

ونعبّر عن المعنى المراد التعبير عنه بكلام وجيز مختصر يفي بالغرض من أقصر السبل؛ فيكون المـــثل "أعـــزُّ مِـــنْ بيْض الأنوق"[3] تعبيراً مختصراً في مقام الشيء العزيز البعيد المنال. مثلما تعتبر "مواعـــيد عـــرقوب"[4] علَماً لكل ما لا يصحّ من المواعيد. وقولهم "الحديث ذو شُجون"[5] في مقام الأمر الـــذي يتشـــعّب فيه الحديث ويتداخل أو الحديث يتذكر به غيره. وقولهم: "جاء بخُفَّي حُنين"[6] في مقام اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

وقولهم "حَصْحَص الحقُّ"[7] في مقام انكشاف الأمر بعد اكتنافه.

وقولهم: "تركُ الذَّنْب أيسرُ في التماس العُذْر"[8]، في مقام الاعتذار في غير موضعه.

وقولهم :"لكل جواد كبْوة" ، "لكل عالمٍ هفوة"[9] في مقام المعروف بالصدق يكذب مرة.

وفي مقام تعجيل الحاجة قولهم: "النفس مولعةٌ بحُبّ العاجل"[10]

وفـــي مقـــام تأخـــير الشيء وقت الحاجة إليه قولهم: "لا عِطْر بعد عَروس"[11] وفي مقام سوء المرافقة قولهم: "لا يجتمع سيفان في غِمد".

---

[1] . العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3، ص (68).
[2] . المثل السائر- ابن الأثير، ج1، ص (35).
[3] . العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3، ص (83)، فاللغويون أجمعوا على أن الأنوق تلتمس لبيضها الأوكارَ البعيدة، والجبال الشامخة والأماكن الوحشية، فلا يصل إليها سَبُعٌ ولا آدميّ كما قال الشاعر: وكنت إذا استودعْتَ سراً كتمته كبيض أنوق لا يُنال له وَكْرُ ، ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، ص (398).
[4] . مجمع الأمثال- الميداني، ص (7).
[5] . العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3، ص (83)، وينظر: مجمع الأمثال- الميداني، ج1، ص (351).
[6] . المصدر السابق، ص (117)، وينظر: مجمع الأمثال – الميداني، ج2، ص (40).
[7] . العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3،ص (83).
[8] . المصدر السابق، ص (84).
[9] . المصدر السابق، ص (83).
[10] . المصدر السابق، ص (117).
[11] . المصدر السابق، ص (111).

وفـــي مقـــام ســـوء الجوار قولهم: "الجار قبل الدار"[1] ومنه قولهم: "الرفيق قبل الطريق"[2] و "بعت جـــاري ولم أبع داري"[3] وفي مقام إنجازالوعد قولهم: "وَعْدُ الحرِّ فِعْل"[4] وفي مقام إذا سمعت العرب ما لا أصل له قالت ""حديث خرافة"[5] وفي مقام البطء قولهم "أبطأ من فند"[6] وفي مقام الحمق قولهم: "أحمقُ من دُغَّة"[7] وفي مقام الزواج السريع قولهم : أسرع من نكاح أم خارجة"[8] وفي مقام خلف الوعد قولهم: "أسمع جعجعة ولا أرى طِحْناً"[9] وفي مقام من أبصر شيئاً ذكّره بحاجة كان قد نسيها قولهم "ذكّرني فُوكِ حمـــاريْ أهلـــي"[10] وفـــي مقام اشتداد الأمر ومقام تجاوز الحد. قولهم "بَلَغ السَّيل الزُّبى"[11] وفي مقام المتفقين في الشدة قولهم "وافق شنّ طبقة"[12].

وفي مقام الأمر الظاهر المشهور قولهم: "إن يبغ عليكَ قومكَ لا يَبْغ عليكَ القمر"[13]

في الأمثال السابقة يحق للسامع أن يتساءل من هو عرقوب؟ ومن هو حنين؟ ومن هو دُغة؟ ومن هو خُرافة؟ ومن هي أم خارجة؟

ففـــي قولهم: "أعز من بيْض الأنوق" وقولهم "الصيف ضيعتِ اللبن" وقولهم "لا عِطْر بعد عروس" وقولهم "ذكّرني فوك حماريُ أهلي" وقولهم:"إن يبغ عليكَ قومكَ لا يبغ عليك القمر"...الخ، لا يمكن فَهْم معـــنى مفيد للتمثل به في المقام الجديد، فهذه الأقوال تضع السامع في حيرة لجهله مَوْردها لذلك تُسعفنا قصصها على التعرف على مقامها الذي قيلت فيه لأول مرة أو التي خُيّل إلى أصحاب هذه الكتب أنها قيلت فيها لأول مرة.

فأصـــل المـــثل "**مواعيد عرقوب**" : أنّ رجلاً من خيبر كان يهودياً وكان يَعِدُ ولا يفي فضرب به العرب المثل وقال أبو عبيد: أتى عرقوب أخاً يسأله فقال له عرقوب: إذا طلعت هذه النخلة فلك طلْعُها فلمـــا أتـــاه للعدَة قال: دعْها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها تصير زَهْواً فلما أزهت قال دعها

---

[1] . **العقد الفريد- ابن عبد ربه، ج3، ص (108).**
[2] . **المصدر السابق، ص (108).**
[3] . **المصدر السابق، ص (108).**
[4] . **المصدر السابق، ص (85).**
[5] . **مجمع الأمثال – الميداني، ج1، ص (346).**
[6] . **المصدر السابق، ص (206)، ص (243).**
[7] . **المصدر السابق، ص (389).**
[8] . **المصدر السابق، ج2، ص (132).**
[9] . **المصدر السابق،ج2، ص (285)، ويقال للذي يهرب ولا يقدر أن يغلب صاحبه. ينظر: المزهر – السيوطي، ج1، ص (290). والجعجعة: صوت الرحى والطحين الدقيق.**
[10] . **المصدر السابق،ج2، ص (3).**
[11] . **المصدر السابق، ج2 ص (158).**
[12] . **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال - البكري، ص ص (262- 263).**
[13] . **المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص (35).**

حـــتى تصـــير رطباً فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها ولم يعط أخاه منه شيئاً فصار مثلاً في الخلف.

أمـــا "**رجـــع بخفـــي حنين**" فأصله أن حنيناً هذا كان إسكافياً بالحيرة، وساومه أعرابي على خفين فاختلفا حتى أغضبه، فلما ارتحل الأعرابي، أخذ حنين الخفين، فألقى أحدهما على طريق الأعرابي، ثم ألقـــى الآخـــر على موضع على نفس الطريق، فلما مرّ الأعرابي بالخف الأول قال: ما أشبه هذا بخف حنين، ولو كان خفين لأخذتهما، ثم مر بالآخر فندم على ترك الأول فأناخ راحلته وانصرف إلى الأول، وقد كمن له حنين فأخذ الراحلة، وذهب بها، وأقبل الأعرابي إلى أهله وليس معه إلا خُفّا حنين، فصار مثلاً يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

والمـــثل "**لا عِطـــر بعد عروس**" أصله أنّ عروساً أهديت فوجدها الرجل تغِلة (أي رائحتها متغيرة) فقال لها: أين الطيب؟ قالت ادّخرته، قال : لا عِطْر بعد عروس.

أمـــا المـــثل "**ذكّرني فوكِ حماريْ أهلي**" فأصله أنّ رجلاً شاباً غزلاً خرج يطلب حمارين لأهله ، فمرّ علـــى امـــرأة متنقـــبة جميلة في النقاب، فقعد بحذائها وترك طلب الحمارين، وشغله ما سمع من حُسن حديـــثها، ومـــا رأى من جمالها في النقاب، فلما سفرت عن وجهها إذا لها أسنان مُكفهرة مختلفة، فلما رآها ذكَر حماريه فقال : "ذكّرني فوكِ حماريْ أهلي"؛ فذهب قوله مثلاً.

ومَـــوْرد مَثَل "**أبطأ من فند**" –وفند مولى عائشة بنت سعد بن أبي الوقاص– أنّ عائشة كانت قد أرسلت فندا ليأتيها بنار، فشاهد قوماً متجهين إلى مصر، فذهب معهم ومكث بمصر عاماً كاملاً، ثم رجع فأخذ بنارٍ وجاء يعدو لاهثاً إلى عائشة، فتعثر أثناء السير ووقع فقال: "تعست العجلة".

وقصـــة مثل "**أحمـــق من دُغَّة**" أنّ دغة هي بنت مغنج العجلية، كانت حاملاً، وأتاها الطلق فظنت أنهـــا تعاني ألماً في معدتها، فذهبت لقضاء الحاجة، فولدت! وصاح وليدها، فقامت مذعورة وأسرعت إلى أمها قائلة: "يا أمه هل يفتح الجُعر فاه ؟ فقالت : نعم ويدعو أباه.

وهرعت إلى الموضع الذي كانت فيه ووجدت ولدها!.

و"**أسرع من نكاح أمِّ خارجة**" وأم خارجة هي بنت سعد بن عبد الله، اشتهرت بجمالها. وقد تعددت حالات زواجها، تزوجها رجل من إياد، ثم خلعها منه ابن أخيها دَعْجُ بن عبد الله وتزوجها بعده عمرو بـــن تميم فأنجبت منه أسَيْد والعنبر والهجيم. ثم تزوجها بكر بن عبد مناة فأنجبت منه ليثاً والحارث، ثم تزوجها مالك بن ثعلبة فأنجبت منه غاضرة وعروة، وكان الخاطب يأتيها قائلاً: خطْبٌ فتجيب نِكْحٌ.

فضُــرب بهــا المثل لسرعة إجابتها وكثرة أزواجها فقيل أسرع من نكاح أمُّ خارجة. ويروى عنها أنها أشارت إلى رجل قائلة:

من هذا ؟

فأجاب ابنها : إخاله خاطباً.

فقالت: أخاف أن يجعلن أن نَحُلَّ.

وقولهــم "**الحديث ذو شجون**" أول من تكلَّم به ضَبَّة بن أدّ بن طابخَة بن إلياس بن مضر وكان له ابــنان أحدهما سَعْد والآخر سُعَيد، فنفرتْ إبل ضبة تحت الليل وهما معها، فخرجا يطلبانها، وتفرقا في الطلــب فوجدها سعد، وذهب سُعيْد فلم يرجع، فجعل ضبةُ يقول بعد ذلك إذا رأى سواداً تحت الليل : أسعد أم سُعَيْد؟ فذهب قوله مثلاً. ثم أتى على ذلك ما شاء الله لا يعلم سُعيْدٌ خبراً، فبينما ضبة سائر بعد زمــن مــع الحارث بن كعب في شهر حرام وهما يتحادثان إذ مَرّا على مَرْخَةِ بركان، فقال الحارث: أترى هذا المكان؟ فقال ضبة: نعم قال الحارث: لقيتُ فيه شاباً من هيئته كذا وكذا فقتلتُه.

وأخــذتُ بُرداً كان عليه من صفة البرد كذا، وأخذت سيفاً كان معه. فقال ضبة: ما صفة السيف؟ فقال الحارث: هاهو معي، فلما سمع ضبة صفة ابنه سعد وبرده قال : أرني السيف، فأراه، فأخذه ضبة فإذا هــو سيف ابنه، فقال ضبة : "الحديث ذو شجون" فذهبت مثلاً، وضرب الحارثَ بن كعب بالسيف حتى قتله، فلامه الناس على قتله في شهر حرام.

وأما قولهم: "**بلغ السيل الزبى**" –والزُّبى جمع زُبْيَة[1]–، أنّ الزُّبى موضع يتخذه الأسدُ لنفسه ، فيعمد الأسد إلى أعلى موضع وأرفعه، فيحتفر فيه لنفسه زُبْيَة لئلا يصل إليه الماء فلا يكاد يبلغه الماء إلاّ بعد الجهد، فإذا اشتد الأمرُ ضُربَ به المثل، ويُضرب لمِن جاوز الحد.

وقولهــم: "**وافق شنّ طبَقة**" قال ابن الكلبيّ: طبقة من إياد كانت لا تطاق، فأوقع بها شنّ بن قصي بــن دُعْميّ بن حرمله بن أسد بن سعد بن بزاز، فانتصفت منها، ونالت منها، فضربتا مثلاً للمتفقين في الشدّة وغيرهما.

وقولهم: "**أعز من بيْض الأنوق**" والمراد به الشيء العزيز البعيد المنال، والأنوق هو ذكر الرخم، والمقصــود ببــيض الأنوق أن ذكر الرخم كثيراً ما يحصن البيض فلا يمكن الوصول إليه لأن أوكار الأنوق تكون في قمم الجبال والأماكن البعيدة المنال. ومن جملة أمثالهم"إن يبغِ عليكَ قومكَ لا يبغِ عليكَ القمــر" والأصل فيه – كما قال الفضل بن محمد– أنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية

---

[1] . **الزبية : الرابية لا يعلوها الماء، والزبية أيضاً حفرة في موضع عال تغطى فوهتها فإذا وطئها الأسد وقع فيها.**

تراهـــنوا علـــى الشـــمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يُرى، وقالـــت طائفـــة: يغيب القمر قبل أنْ تطلع الشمس. فتراضوا برجل جعلوه حكَما، فقال واحد منهم: إنّ قومـــي يـــبغون علـــيَّ، فقال الحَكَم: "إنْ يبلغ عليكَ قومُكَ لا يبغ عليك القمر". وإذا أُخذ هذا المثل على حقيقته، من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التي قيل من أجلها، لا يعطي من المعنى ما قد أعطـــاه المـــثل، وذاك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عُرفت، وصارت مشهورة بين الناس، معلومة عندهم.

فالأمـــثال السابقة تحمل مقاماً وردت فيه أول مرة، يتكرر حدوثه بين الناس. فإذا ما أحسنا اختيار المثل وقوله في المقام الجديد, أدى إلى إقناع الآخرين بوجهات نظرنا بأقصر الطرق.

فقد نحتاج إلى كلام كثير حتى نصل إلى قوة الاقتناع، ولكن المثل بعبارته الموجزة وعباراته الواضحة ومعـــناه الدقـــيق خير مقال إذا أحسن إيراده في مقامه المناسب. فليس عجزاً أو قصوراً في لغة كلامنا ولكـــن لأن للأمـــثال ســـحرها في النفوس. وهي "زمامُ كلِّ معنى ومناطُ كل مبنى، ومنارُ كل مرمى، ومصـــباح كلّ ظلْما، وبها يَرْتاض كلُّ جَموح ويصبحُ المُنْبهم ذا وُضوح، وبها يعودُ الغائبُ مشهوداً بل المعدومُ موجوداً"[1]

فالمثل "أنجح مطلباً وأقرب مذهباً"[2] وهي "نافذة مفحمة" حين تُستعمل في المقام المناسب[3].

يقـــول الجاحظ:" لم يكن الناس جميعاً ليتطلعوا بها إلا لما فيها من الموقف والإمتاع"[4] كما أنها من جهة ثانـــية لها وظيفتها التي لا تُنكر، في الإقناع كما قال الثعالبي.[5] ومن هنا يأتي التسليم بمقالته، فكأن المـــثل أصبح قانوناً يحكم علاقاتنا الإنسانية والاجتماعية. فإبلاغية المثل وبراغماتيته تظهر لما فيه من قيمة دلالية مقامية تأثيرية إقناعية.

فوظـــيفة المـــثل الحجاجية قائمة على الإمتاع والإقناع اعتماداً على مبدأ منطقي هو علة الشبه وإنشاؤه إنشاء لمطابقة مقتضيات المقام. فهو يحفز على التأمل والعمل والتّسامي.

بـــل لقـــد حسمت الأمثال كثيراً من المشاكل المعقدة وحلت منازعات مستعصية ، ورفعت بعض المظالم من أصحابها.

---

[1]. **زهر الأكم في الأمثال والحكم- الحسن اليوسي،م1، ص (13).**
[2] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (145).**
[3] . **البيان والتبيين- الجاحظ، ج2، ص (180).**
[4] . **المصدر السابق، ص (180).**
[5]. **التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة- الثعالبي، ص (6) .**

وبسبب من ذلك قوي سلطانها على الناس عموماً إذ كانوا يرتضونها في شتى المواقف والمقامات لأنها تصدع بالحق وتحسم بالخلاف[1].

خرجـــنا بـــأن المـــثل يُضرب ويقال في حالات مشابهة لمَوْرده ومقامه الأصلي، كما يظل مثلاً يضرب، وإن جهل أصله ومقامه الأول، ولا يغير لفظه في أية حالة من حالات استعماله.

علـــى أن بعـــض الأمـــثال لـــو رجعنا إلى مقامها الأصلي الذي قيلت فيه لوجدنا أن مقالها في مقامها الأصلي هذا ، تفوق في روعته وبلاغته المقام الذي قيل فيه لاحقاً وإن جاء ملائماً له.

ويحضرني من هذه الأمثال قولهم: "**تجوع الحُرة ولا تَأكل بثدييها**"[2]

ويُضـــرب هـــذا المثل في مقام المرأة التي تصون عرضها وشرفها وإن آذاها الجوع. والتصور الذهني الذي يخامرنا في هذا المقام أن صاحبته امرأة تصون عفافها، وكأنها تصرخ بهذا القول بكل ما لديهـــا من قوة، إثر حادث تعرضت له، معلنة رفضها بَيْع جسدها. لكننا إذا رجعنا إلى المقام الأصلي لهذا المثل ، نجد أن قائله رجل وليس امرأة، هو الحارث بن سليل الأسدي، وقصة هذا المثل: "أن أول من قاله الحارث بن سليل الأسدي، وكان حليفا لعلقمة بن حفصة الطائي، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء، وكانـــت من أجمل أهل دهرها فقال: "أتيتك خاطباً، وقد ينكح الخاطب، ويدرك الطالب ويمنح الراغب" فقـــال له علقمة: "أنت كفء كريم، يقبل منك الصفو، ويؤخذ عنك العفو، فأقم ننظر في أمرك" ثم انكفأ إلى أمها فقال: "إن الحارث سيد قومه حسبا ونسبا وبيتا، وقد خطب إلينا الزباء، فلا ينصرفن إلا بحاجـــته" فقالت المرأة لابنتها: "أي الرجال أحب إليك الكهل الجماح الواصل المناح أم الفتى الوضاح؟ فقالـــت "بـــل الفتى الوضاح" وقالت: إنّ الفتى يغيرك، وإنّ الشيخ يميرك وليس الكهل، الفاضل، الكثير الـــنائل كالحديث السن الكثير المن" قالت: يا أماه: إن الفتاة تحب الفتى كحب الرّعاء أنيق الكلأ. قالت: أي بنيتي إن الفتى شديد الحجاب، كثير العقاب. قالت: إن الشيخ يبلي شبابي، ويدنس ثيابي، ويشمت بي أترابـــي، فلـــم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها، فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل، وخـــادم، وألـــف درهم فابتنى بها، ثم رحل إلى قومه، فبينما هو ذات يوم جالسٌ بفناء قومه، وهي إلى جانبه إذ أقبل الشباب من بني أسد يعتلجون، فتنفست الصعداء ثم أرخت عينيها بالبكاء فقال: ما يبكيك؟ فقالـــت: مالـــي وللشيوخ الناهضين كالفروخ. فقال لها : ثكلتك أمك "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها" ثم أردف: ومـــا أبكـــاك، لرب غادة شاهدتها، وسبية أردفتها، وخمرة شربتها فالحقي بأهلك فلا حاجة لي فيك.

---

[1] . **التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة- الثعالبي، المقدمة ص (5) .**

[2] . **مجمع الأمثال- الميداني، ج 1، ص (215).**

ومـــا العـــبارة التي قيلت إلا في مقام صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب أو مقام عزة نفس أحـــسّ أنـــه أخطأ في الزواج من فتاة جميلة، صغيرة السن.. وكانت نيته أن يرجعها إلى أبويها، فقال عبارته الشهيرة، وإن كانت ذهبت مثلاً في مقام شرف المرأة الحصينة وعفافها.

فـــبكاء الزباء أو ندمها لا يعني أنها قد تفرط في شرفها. ولا يقع جرح كبير على الزباء. فقول الحارث أكـــبر حجمـــاً من ندمها، فالندم أمر طبيعي تهجس به كل نفس ثم سرعان ما يزول، ما دام لم يؤد إلى فعـــل، واستوطن في النفس على مجرد الندم. ويقول حازم القرطاجني: "وقد يُتمثّل بالمثل على غير ما تمـــثّل به الأول. فربما حَسُن موقعه من الكلام الثاني أكثر من حسنه في الكلام الأول. فإن كان موقعه فـــي الكـــلام الأوّل، أحســـنَ عُدّ مورده في الكلام الثاني مسيئاً مقصراً"[1]. بقي أن نقول إننا نخرج من الأمـــثال إلـــى التعرف على طبقات الناس ومقامهم الاجتماعي، فلكل صنف من الناس أمثالٌ تشاكلهم"[2] يقول الماوردي: ولذلك علتان إحداهما "أن الأمثال من هواجس الهمم، وخَطَرات النفوس"[3]. والثانية "أن الأمـــثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها، فبحسب حالهم عليه، تكون أمثالهم ، فلهاتين العلتين وقع الفـــرق بيـــن أمثال الخاصة وأمثال العامة"[4] فلكل طبقة من الناس أمثالها المستخرجة من وقائع حياتها وذاكرتها.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1] . منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني، ص (40).
[2] . أدب الدنيا والدين- الماوردي، ص (246).
[3] . المصدر السابق، ص (247).
[4] . المصدر السابق، ص (247).

كمـــا أننا نستطيع أن نعرف حال السامع الذي تمثل بالمثل لأن من شروط المثل أصلاً أن تناسب حال السامع، لتكون أبلغ تأثيراً، وأحسن موقعاً.[1]

ولا شك أن هذه الأمثال تفيد في الاطلاع على المقام الاجتماعي والمقام الحضاري والمقام الثقافي والمقام السياسي والمقام الأخلاقي لحياة العرب سواء أكانت في الجاهلية أم في الإسلام.

فالأمـــثال معيـــن لا ينضـــب لمن يريد معرفة هذه المقامات، فهي تعتبر خلاصة خبرة وتجربة للظروف الاجتماعية والثقافية خلال تطورها عبر العصور المختلفة، فهي تجسيد لقيم وتقاليد ومعتقدات وسلوك الشعب الحقيقية.

فالمثل "بَعْرة" –وهو يُقال في مقام الشيء يُتَهاونُ به– يدلنا على أن المرأة في الجاهلية كانت تحتد على زوجها حين يتوفى حولاً كاملاً لا تبرح بيتها ولو كانت مضطرة، حيث كانت بعد انقضاء الحَوْل، تفتح باب بيتها وتلقي بَعْرة في وجه أول كلب، تراه مُدللة بذلك على أن احتمالها للعام لا يعدل أكثر من هذه "البعرة".

فهـــذا المَـــثل المتمثل في كلمة واحدة استطاع أن ينقل هذه الشحنة من العادات والقيم التي كانت سائدة آنذاك فلولاه لم يكن يتيسر لنا أن نعرف ذلك.

وخلدت الأمثال أسماء شخصيات عربية ما كانت لتخلد لولا ورودها في الأمثال مِثل قولهم "أجود مـــن حاتم"[2] وينسب إلى حاتم الطائي، وكان معروفاً بكرمه، والمثل وإن دل على الكرم، فهو من ناحية أخـــرى يُنسب إلى حاتم، ولولا سريان المثل، لكان حاتم اسماً عادياً لا يعلق كثيراً بالذهن وإنْ ورد في كتـــب التاريخ وكقولهم: "أندم من أبي غَبشان"[3] وهي أيضاً شخصية جاهلية من خزاعة يروى أنه أسلم قصـــي بن كلاب مفاتيح البيت الحرام وهو سكران، فطار بها من الطائف (وهو موضع اجتماعهم) إلى مكـــة، وقـــال: معاشر قريش: هذه مفاتيح بيت أبيكم اسماعيل ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم. وأفاق أبو غَبشان فندم فقيل أندم من أبي غَبشان. كما خلّدت أمثال أخرى أسماء أماكن عربية، وأخرى ســـنوات الحرب التي اكتوى المجتمع بنارها سنوات طوالاً مثل: "قَدْ وَقَع بينَهُم حَرْبُ داحِسٍ والغَبْراء"[4] و "يـــوم الهـــباءة"[5] و "يوم الفَروق"[6] ومنها ما يجسد الفضائل كالعزة والكرم والشجاعة والإيثار مِثل:

---

[1] . أدب الدنيا والدين- الماوردي، ص (247).
[2] . مجمع الأمثال- الميداني، ج1، ص (326).
[3] . المصدر السابق، ص (385).
[4] . المصدر السابق، ج2، ص (508).
[5] . المصدر السابق، ص (514).
[6] . المصدر السابق، ص (516).

"خـــير الغنى القُنوع وشر الفقر الخضوع"[1] و "خير العفوَ ما كان عن القدرة"[2] و "غنك خيرٌ من سمين غيرك"[3] ومنها ما يجسد النقائص كالبخل والشؤم والتسرع والحمق والطمع مِثل : "أطمع من أشعب"[4] و "أحمـــق مِنْ دُعّة"[5] و "أشأم من داحس"[6]. كما تُطلعنا الأمثال على المقام البيئي فهي انعكاس للبيئة التي نشـــأت عـــنها. فلم تقتصر الأمثال على الإنسان وحده فحسب، وإنما تعدته إلى البيئة المحيطة به مما تتعلق بالظواهر الأرضية كالصحارى والجبال والبحار والأنهار وما شابه ذلك.

والظواهـــر الســـماوية كالكواكـــب على اختلافها والشمس والقمر وشدة الحر وشدة البرد والثلج والأمطـــار وانحباسها وسني الخصب وسني القحط وغير ذلك مِثل قولهم: "أبهى من القمرين"[7] و"أبْرَدُ مِـــنْ جِرْبِـــياء"[8] و "أبْـــرَدُ مِـــنْ غِبِّ المطر"[9] و "بَرئت منه مَطَر السماء"[10] و "جاء بذاتِ الرَّعْد والصليل"[11] و "حَرُّ الشمس يُلجِئُ إلى مجلس سوء"[12] و "رأى الكواكب ظهراً"[13].

ولـــم تقف الأمثال عند هذا الحد، وإنما شملت الحيوانات التي تعيش في البلاد العربية أو خارجها الأَلـــيف منها والوحشية. والطيور والزواحف والحشرات والأسماك. والنباتات والجمادات مثل "أحول من ذئب"[14] و "أخدع من ضب"[15] و "أنجَرُ مِنْ أسد، ومِنْ صقر"[16] و"أبقى مِنَ النِّسْرِيْن"[17] و "أبلدُ من ثـــوْر، ومِنْ سُلحفاة"[18] و "أبقى مِنْ وَحْي في حَجَر"[19] و "أبْكَرُ مَنْ غُراب"[20] و"أبَرُّ من هرة"[21] و أبْصَرُ

مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

[1] . مجمع الأمثال- الميداني، ج1، ص (431).
[2] . المصدر السابق، ص (430).
[3] . فصل المقال- البكري، ص (405).
[4] . مجمع الأمثال- الميداني، ج2، ص (301).
[5] . المصدر السابق، ج1، ص (389).
[6] . المصدر السابق، ج2، ص (188).
[7] . المصدر السابق، ج1، ص (209)، يعني القمر والشمس.
[8] . المصدر السابق، ص (206)، الجربياء: اسم للشمال وقيل اسم ريح.
[9] . المصدر السابق، ص (205)، يعني : أبرد من غِبّ يوم المطر.
[10] . المصدر السابق، ص (177)، أي برئت من هذا الأمر ما كانت السماء تمطر، أي أبداً .
[11] . المصدر السابق، ص (314)، إذا جاء بشرّ وَعْر، يعني جاء بسحابة ذات رعد، والصليل: الصوت.
[12] . المصدر السابق، ص (371)، يُضرب في مقام الرضا بالدنيء الحقير، والنزول في مكان لا يَليق بك.
[13] . المصدر السابق، ج2، ص (37)، يُضرب في مقام اشتداد الأمر.
[14] . المصدر السابق، ج1، ص (404).
[15] . المصدر السابق، ص (457).
[16] . المصدر السابق، ص (206).
[17] . المصدر السابق، ج1، ص (209).
[18] . المصدر السابق، ص (209).
[19] . المصدر السابق، ص (209)، الوحْي: الكتابة والمكتوب أيضاً.
[20] . المصدر السابق، ص (210).
[21] . المصدر السابق، ص (204).

مِــنَ الوَطْــواطِ بالليل"[1] و "تركتْهُ تُغَنيه الجَرادتان"[2] و "جاءَ بإحدى بَنات طَبَق"[3] و"أجْرأ من ذُباب"[4] و "كافأني مكافأة التمساح"[5].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1] . مجمع الأمثال- الميداني، ج1، ص (203).
[2] . المصدر السابق، ص (231)، يُضرب لمِنْ كان لاهياً في نعمةٍ ودعَةٍ.
[3] . المصدر السابق، ص (293)، بن طبق: سُلحفاة تزعم العرب أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف، يُضرب هذا المثل للرجل يأتي بالأمر العظيم.
[4] . المصدر السابق، ص (324).
[5] . المصدر السابق، ج2، ص (314).

النكتة دراسة مقامية براغماتية

النكــتة فن من فنون الأدب. والأدب العربي حافل بها في عصوره المختلفة. وهي تحضر اليوم في خطابنا اليومي العادي عند سؤال بعضنا بعضاً: ما آخر نكتة؟

ومحاولة الكشف عن الأسباب الداعية إليها والآليات المتحكمة فيها سيكون هنا من خلال دراستها دراســة مقامية براغماتية, لأنها تثير قضايا في مستوى المرسل والخطاب والتلقي, ولأن المقام والحال يلعبان دوراً مهماً في فهمها.

فالنكــتة خطاب موجه من المرسل إلى مرسَل إليه في مقام معين. والغاية منها حمل المتلقي على الضــحك وتنشيط الذهن إذا مل الجد, وإطلاق الفرح الذي يدفع إلى التشويق, وغسل النفس من الملل. وربما تنطوي ضمناً على حُكم معين له غاية تستشف من المقام.

حال المُرسِل أو مقام المُرسل

فقــد تنبّه الجاحظ إلى أنّ وقع نكتة على المتلقي وردّ فعله يختلفان باختلاف الشخص الذي تجري على لسانه أو تنتج عنه. فالنكتة الباردة جداً قد تكون أطيب من النكتة الحارة جداً وذلك حسب مُرسلها: "ولــو أنّ رجــلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جمّين والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر[1] ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون. ولو ولّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنيــن وإلى ابن النوّاء وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد، وكمــا أنّــك لــو ولّدت كلاماً في الزهد وموعظة الناس، ثم قلتَ هذا من كلام بكر بن عبد الله المُزَنيّ وعامــر بن عبد قيس العنبريّ ومؤرق العجليّ ويزيد الرقاشيّ لتضاعف حسنه ولأحدث له ذلك النسَب نضــارة ورفعــة لم تكن له، ولو قلتَ قالها أبو كعبٍ الصوفيّ أو عبد المؤمن أو أبو نواسٍ الشاعر أو حسينُ الخليع، لما كان لها إلاّ ما لها في نفسها"[2] وقد جاء قبل ذلك قوله:

"وأحاديــث أُخــر لــيس لهــا شــهرة ولو شهرت لما كان فيها دليل على أربابها ولا هي مقيدةٌ أصــحابها، ولــيس يتوفرّ أبداً حسنها إلاّ بأن يُعرف أهلها، وحتى تتصّل بمستحقّها وبمعادنها واللائقين بها، وفي قطع ما بينَها وبين عناصرها ومعانيها سقوطُ نصف الملحة وذهابُ شَطر النادرة".[3]

---

[1] . جاء في الهامش أن هؤلاء يُعرفون بمزاحهم وروحهم العابثة.
[2] . البخلاء- الجاحظ، ص ص (7-8).
[3] . المصدر السابق، ص (7).

فالنكتة لا تُستملح من كل شخص، وإنما تُستملح من الشخص الفكه البارع في تمثيلها وتصويرها، شخص ذي مستوى ذكائي خاص من ذاكرة قوية وإدراك سريع وسرعة بديهة وتمكن من اللغة.

وقــد ذكرت كتب الأدب العربي أسماء كثيرين ممن اشتهروا بدعابتهم. ومن هؤلاء "أشعب" فقد وُهب روحاً مرحة ونفساً فكهة، فكان أظرف رجال العصر الأموي وما تلاه من عصور. وهو حاضر النكــتة دائمــاً حتى في لحظة موته. اشتُهر بحرصه وطمعه وكثرة سؤاله وإلحافه؛ وصار هدفاً لعبث الخلفاء والولاة والأمراء في عصر بني أمية، يتندرون بنوادره الغريبة في الطمع والتطفل.

كان أشعب غريب الشكل فهو أزرق، أحول، أقرع، كما كان يقوم بحركات غريبة، فيغير شكله، ويطيل وجهه، ثم يجعله مستديراً، ويتحكم بحركات أعضائه تحكماً مدهشاً.

وكان هذا الرجل حسن الصوت، من قراء القرآن، كما كان يغني وكأن صوته صوت بلبل.

ومن الشخصيات الفكهة شخصية "بهلول" الذي صار عنواناً للغفلة والحمق مع قدرة مدهشة على ملاحظــة دقــائق الأمور، فأتت حكاياته ضمن أخبار الأذكياء والمغفلين في آن واحد. وقد أورده ابن الجوزي في كتاب "أخبار الأذكياء" وأورده في جملة ما يسميهم "عقلاء المجانين"، فبينما الناس يعاملونه معاملة المغفلين، تدل حكاياته على فطنة وذكاء، فهو حافظ للقرآن، يعلم أين يستشهد بآياته.

ومــن الذيــن يتمتعون بالقدرة على الإضحاك: "جحا"، قيل إنه نصر الدين التركي وقيل إنه أبو الغصــن العربــي الغزاري، كما يقال إنه من أصحاب الحالات والكرامات من المتسترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة وفي شخصية "جحا" جملة من الصفات، منها الغفلة والبلاهة والحماقة والذكاء والطبع الساخر والاستهزاء.

وهكــذا نــرى أنه جمع بين المتناقضات، إلا أن الغالب عليه التغفيل كما يقول ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين. فمِثل تلك الشخصيات لها قدرة فذة على الإضحاك في أحرج المواقف، وخفة ظــل بحيث يولع الناس بهم ويضحكون بمجرد سماع أسمائهم، فكل قول وفعل يصدر عنهم هو مصدر للضــحك، وهكــذا نــرى أنَ مــثل هذه الشخصيات في تباين أحوالها وتناقض صفاتها والتي تترشّح للإضحاك نتاج لأحوال ومتغيرات وحركة اجتماعية في دورة الزمان وآفاق المكان.

مقام النكتة وموضعها

وللنكــتة مقــام يُتحرى في اختياره، ومقدار معين مضبوط من الضحك هو حاجة الإنسان إليه. فبهما يكون الضحك راقياً لا مجرد قهقهات مبتذلة.

قــال الجــاحظ "... وللضـــحك موضع وله مقدار، وللمَزْح موضعٌ وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصّر عنهما أحد، صار الفضل خَطَلا والتقصير نقصاً . فالناس لم يعيبوا الضحك إلاّ بقدْر، ولم يعيبوا المَدْح إلا بقدر"[1]

ويقــول: "وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر مِن إمتاع الجزْل الفخم من الألفاظ، والشريفِ الكريم من المعاني"[2]

وقــال في رسالته التربيع والتدوير: "إنّ لكل شيء موضعاً وقدراً، ولكل حال شكلاً، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه"[3].

فالمــزاح والضـــحك يستخدمان في مواقف ومقامات معينة لها طبيعة خاصة. فالحكماء والعقلاء اســتعملوه فــي أوقــات "كــلال أذهانهم، وتعب أفكارهم ليستجموا به أنفسهم، ويستدعوا به نشاطهم، ويــرّوحوا به عن قلوبهم خوفاً من ملالها وكلالها"[4] وقد دعا رسول الله ρ المؤمنين إلى إراحة قلوبهم كما يريحون أجسادهم، فالقلوب تتعب وتكل كالأجساد، وهي بحاجة إلى الراحة والاستجمام.

حيث قال عليه السلام: "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت"[5] وذلك "لما عليه النفوس من استثقال الحق والجد، واستخفاف اللهو والهزل"[6] فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها.

وقد كان رسول الله ρ يمازح أصحابه وزوجاته والعجائز كما كان "يضحك حتى تبدو نواجذه"[7] .

روي أن عجــوزاً جــاءت إلى النبي ρ وقالت: "يا رسول إني أدخل الجنة ؟ فقال عليه السلام: العجائز لا يدخلن الجنة".

وأراد رسول الله هنا أنه لا تبقى المرأة في الجنة عجوزاً، بل تكون في سن أربعة عشر[8].

ومــن مزاحه عليه السلام قوله لامرأة من الأنصار: الحقي زوجَك ففي عينه بياض، فسَعت المرأة نحــو زوجها مرعوبة. فقال لها: ماذا دهاك؟ فقالت : قال لي رسول الله إنّ في عينك بياضاً. فقال: إنّ في عيني بياضاً لا لسوء".[9]

---

[1] . البخلاء- الجاحظ، ص (7)، خطلاً : نقصاً وخطأ.
[2] . البيان والتبيين- الجاحظ، ج1، ص (145).
[3] . رسالة التربيع والتدوير- الجاحظ، ص (55).
[4] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (247).
[5] . العقد الفريد، ابن عبد ربه- ج6، ص (379).
[6] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (247).
[7] . العقد الفريد- ابن عبد ربه ، ج6، ص (379).
[8] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (247).
[9] . نهاية الأرب- النويري، ج4، ص (3).

وقــد روي أنّ رجــلاً ســأل ابــن عباس: أكان رسول الله ρ يمزح ؟ فقال: نعم، قال: فما كان مــزاحُه؟ قــال: كان مزاحه ρ أنه كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: البسيه واحمدي وجُري منه ذيلاً كذيل العروس"[1]

فكان رسول الله يمزح، لكنه لا يقول إلا الحق، لهذا نجد الفكاهة المروية عنه كلها من التورية أو الكناية.

وسُــئل النخعــي: هل كان أصحاب رسول الله ρ يضحكون : قال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

يقول علي بن أبي طالب: "روّحوا القلوب واطلبوا لها ظرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان"[2]

ويقول خالد بن صفوان الخطيب "لا بأس بالمفاكهة تخرج الرجل من حال العبوس"[3]

وهكــذا نــرى أنّ رســول الله علــيه السلام وأصحابه كانوا يضحكون حينما يَحسُن الإضحاك والضــحك. وكذلــك فعل الكتاب والأدباء فذهب أبو حيان التوحيدي إلى أنَّ النفس تَمَلُّ، مِثْل أنّ البدن يَكــلُّ، "وكمــا أنّ البدن إذا كلَّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا كلّت طلبت الرَّوْح، وكما لا بُد للبدن أن يســتمَّد ويســتفيد بالجَمــام.. كذلــك لا بُد للنفس من أن تطلب الرَّوْح عند تكاثُف المَلل الداعي إلى الحَرج.."[4]

وقد جعل التوحيدي مجلسه في الليلة الثامنة عشرة فكاهات ومجوناً فقال على لسان الوزير "تعال حتى نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإنّ الجِدَّ قد كدَّنا، ونال من قوانا، وملانا قبضاً وكرْباً".

ويقــول النويري في مقدمة الباب الذي عقده للمجون والنوادر والفكاهات والمُلح: هذا الباب مما تــنجذب النفوس إليه، وتشتمل الخواطر عليه، فإن فيه راحة للنفوس إذا تعبت وكلّت، ونشاطاً للخواطر إذا ســئمت وملّت، لأنَّ النفوس لا تستطيع ملازمة الأعمال، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال، فإذا عاهدتها بالنوادر في بعض الأحيان، ولاطفتها بالفكاهات في أحد الأزمان، عادت إلى العمل الجِدّ بنَشْطة جديدة وراحة في طلب العلوم مديدة"[5]

---

[1] . الإحياء- الغزالي، ج3، ص (129).
[2] . المستطرف في كل فن مستظرف- الأبشيهي، ج2، (232).
[3] . محاضرات الأدباء- الراغب الأصفهاني، ج1، ص (346).
[4] . الإمتاع والمؤانسة- التوحيدي، ج1، ص ص (27-28).
[5] . نهاية الأرب- النويري، ج4، ص (1).

والذي يتضّح لنا من خلال هذه الأقوال أنَّ النكتة تُقال لما عليه النفوس من استثقال الحق والجِدِّ، واستخفاف اللهو والهزل.

وإذن فالنكـــتة تستخدم في مقام كلال أذهانهم وتعب أفكارهم، ليستدعوا بها نشاطهم ويروّحوا بها عن قلوبهم.

وإذا استخدمت النكتة للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى، فمقامها هذا مذموم، وقد عاب الله سبحانه مُســـتعمله ومدح المعرض عنه. قال تعالى:(**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا**)[1]

وقـــد أوصت العلماء بتجنب هذا الفن من الهَزل، فقالوا : إياك والمُزاحَ فإنّه يجرّئ عليك السّفلة. وقالوا: المزاحُ السباب الأصغر" وقال أمير المؤمنين: ومَن كَثُرَ ضِحكهُ قلّت هيبته، ومَن مزح استُخف به"[2]. ويقول عليه السلام: "إياك وكثرة الضحك، فإنه يُميت القلب ويذهب بنور الوجه".

وكان عمر الخطاب يكتب إلى عماله يوصيهم "أن يمنعوا الناس من المزاح لأنه يذهب بالمروءة ويوغر الصدور"[3] وقال علي بن أبي طالب :-"إذا ضحك العالِم ضحكة، مجَّ من العلم مَجَّة"[4] ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : "اتقوا المزاح فإن حمقه يورث ضغينة"[5]. وقول أكثم بن صيفي وقد سار مثلاً : المُزاحة تُذهب المهابة"[6].

وقـــد ذكر الغزالي حادثة وبّخ فيها النبي ρ أصحابه لأنهم ضحكوا من أعرابي كان يمتطي جملاً صـــعباً لا يستطيع أن يقوده، فلما وقع الأعرابي عن ظهر جمله، وجدوه ميتاً فقالوا: يا رسول الله، إن الإعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك، فقال نعم، وأفواهكم ملأى من دمه"[7].

فهـــذه الأقوال تؤكد لنا أنّ الإسلام قد نهى عن المزاح، ونحن قد رأينا سابقاً رسول الله وصحابته يمزحون، فكيف يكون التناقض ؟؟!

أو بســـؤال آخـــر كـــيف نفسّر هذا مقامياً؟ ربما يكون حديث رسول الله الذي ذكره الغزالي يجيب عن تساؤلنا.

---

[1] . سورة لقمان- آية (6)، ينظر البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (247).
[2] . البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (248).
[3] . المستطرف في كل فن مستظرف- الأبشيهي، ج2، ص (262).
[4] . عيون الأخبار- ابن قتيبة، م1، ص (319).
[5] . مجمع الأمثال- الميداني، ج2، ص (34).
[6] . المصدر السابق، ص (339).
[7] . الإحياء - الغزالي، ج3، ص (128).

فـيُفهم مـن حديـثه علـيه السَّلام أنَّ المزاح والضحك الذي يقع في مقام السخرية والاستهزاء والاستهانة بالناس مذموم. والمزاح الذي يقال في مقام مطايبة الأصدقاء والتودد إليهم أمر غير مذموم، وهو من المباحات التي فعلها الرسول وصحابته.

يقـول الجاحظ: "فإذا ذممنا المزاح ففيه لعمري ما يُذم، وإن حمدناه، ففيه ما يُحمد"[1] و "لكل شيء موضع وليس شيء يصلح في كل موضع"[2] "والمزاح في موضعه كالجِدّ في موضعه"[3] كما أنّ "المنع في حقه كالبذل في حقه"[4]

وإذا بالغنا في المزاح، فتجاوز المقدار صار معيباً مذموماً، والمزاح داعية إلى مجاوزة القدْر" فما إنْ يـبدأ المـرء به حتى لا يعرف متى سينتهي، ومن ثم يقع في المحظور ويتجاوز الحدود، ويخاطر بفقـدان الأصـدقاء، فتفسد العلاقات الاجتماعية بين الناس. "وإن كان المزاح إنما صار معيباً، والهزل مذموماً، لأنّ صاحبه لا يكون إلا معرضاً لمجاوزة القدْر ومخاصمة الصديق"[5] وربما يكون عدم تجاوز المقـدار فـي المزاح منسجماً مع منهج الوسطية والاعتدال وهو مقام القيمة أو العُرف الاجتماعي في المرجع الثقافي.

جميع الحقوق محفوظة

والباحـث النفسـي والباحـث الأخلاقي يلتقيان ونظرة الجاحظ، فهما لا ينكران الضحك، ولكن ينكران علينا الضحك في مقامات معينة ومواضع محددة.[6]

فالضحك كفاكهة الطّعام تحلية واستطابة لا شبعٌ. وعندما يصبح هدفاً قائماً بحد ذاته تنقلب المتعة مَللاً.

لهـذا تجـري النكتة وتُصنع وتُطلب حُبالها، مِنْ غير ضيق بشيء بل رغبة في الجانب المشرق الباسم للحياة، لتجديد النشاط وراحة للنفوس إذا تعبت.

لكـنّ تفسـير فرويد يدفعنا بعيداً عن الجوانب المشرقة والتلقائية للضحك كظاهرة إيجابية منعشة ومجدّدة للطاقة.

فقـد ربـط النكتة بمبدأ اللاشعور تطبيقاً لمنهجه في تفسير الأحلام عن طريق الرغبات المكبوتة. فالنكـتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والتلفيق... والناس يقولون في الرجل إنـه يمزح أو يقولون إنه يحلم على السواء حين يريدون إعفاءه من المؤاخذة ولا يريدون الجِدّ معه في

---

[1] . **رسالة التربيع والتدوير – الجاحظ، ص (56).**
[2] . **المصدر السابق، ص (67).**
[3] . **المصدر السابق، ص (67).**
[4] . **المصدر السابق، ص (67).**
[5] . **المصدر السابق ، ص (66).**
[6] . **سيكولوجية الضحك- أحمد عطية الله، ص (353).**

المحاسبة والتحقيق. وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل. وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الأماني التي تفوته في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى، "فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صعوبة واحدة وهي تيسير الواقع والإعفاء من الكلفة والمشقة"[1]. وقد "أجمع كثير من الباحثين على أنّ الفكاهة هي خير أسلوب صحي سويّ في تفريغ الطاقة"[2]. وهكذا تصبح النكتة أحسن وسيلة للتعبير عن الرأي. فالأمم التي يعزّ عليها حرية القول هي التي تلجأ للنكتة. فمن خلالها يستطيع الناس أن ينالوا من ظالميهم وحكامهم لأنهم لا يستطيعون ذلك بالأسلوب المباشر الجِدي مخافة البطش أو التنكيل أو العقاب[3]. وهذا الرأي يقودنا إلى أنّ النكتة أحد الأساليب التي تستعين بها المجتمعات في مواجهة بعض مشكلاتها السياسية والاجتماعية. حتى لا تقع في دائرة الإحباط والسقوط. فلا سبيل أجدى من الفكاهة في تقويم مثل هذه المشكلات[4].

ورأي آخر شبيه به يرى أنّ الضحك إنما يقوم بوظيفة النقد والإصلاح باعتبار الفكاهة هنا وسيلة فعّالة لتحقيق ضرب من التغير الاجتماعي أو التقويم الاجتماعي، فتقوم بدور المصحح الاجتماعي والجزاء الاجتماعي والثأر السلمي والانتقام والقصاص[5].

بينما ذهب آخرون إلى أنّ الفكاهة "قد تسمح لنا بتحقيق ضرب من الانتصار، أو السيطرة على ما كان من قبل مبعث خوف أو رهبة في نفوسنا"[6].

بل لقد ذهب بعضهم إلى اعتبار النكتة سلاحاً[7] في عصور الضغط والخضوع للغاصب وثورة على الآخر.

وآخر رأى أنها أداة خاصة للباقة الاجتماعية، حيث يمكن من خلالها تلطيف غضب الآخرين وهجومهم السلبي، وتحويله إلى حالة إيجابية ونوع جديد من العلاقة المشتركة[8].

فهذه الأقوال تُفضي إلى أن النكتة لها وظائف متعددة ومواضع مختلفة: فهي من جانب مرحة تفيض بهجة وضحكاً، ولكنها في الوقت نفسه: ملاذ، ومهرب ومخرج، وتنفيس، وعزاء، واستنكار، وثورة، وتمرد، وسلاح في آن.

---

[1] . جحا الضاحك المضحك- العقاد، ص (61).
[2] . سيكولوجية الفكاهة والضحك- زكريا إبراهيم، ص (149).
[3] . الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها- الحوفي، ج2، ص (93).
[4] . المرجع السابق، ص (36).
[5] . الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك- محمد رجب النجار، عالم الفكر، م13، ع3، نوفمبر، ديسمبر، 1982م، ص (75).
[6] . سيكولوجية الفكاهة والضحك- زكريا إبراهيم، ص (149).
[7] . الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها- الحوفي، ج2، ص (101).
[8] . الفكاهة والضحك رؤية جديدة- شاكر عبد الحميد، ص (34).

والــذي نــراه هنا أنّ اللذة الكبرى التي يجدها المرء في النكتة: الضحك. فإذا كانت النكتة ثورة علــى الآخــر وتمرداً على المجتمع فلن تبلغ إذن غايتها لأنّ النكتة تحمل طابع العطف والطيبة[1] وإذا كانــت النكتة ثورة وتمرداً ومهرباً واستنكاراً... فلا بُد أنْ نشعر بشعور مؤلم، والضحك ليس بشعور مؤلــم. والنكتة السياسية التي ذهب المصريون يقولونها في الجنود والضباط وفي قلب القيادة لم تكن بديلاً لحالة الاكتئاب الجماعي التي خيمت كسحابة سوداء عليهم ودون أن تخفف من رغبتهم القوية في جلد أنفسهم عقاباً لهم على الهزيمة[2].

ويقــول الجاحظ : أول ما أذكر مِن خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه "دليل على حُسْن الحال وفــراغ البال...، والمزح لا يكون إلا مِن فضل غِنى والمزح جِمام ومحبة، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه، والمزح مُلِذّ وربما عرَّضك لألذَّ منه"[3].

فكيف يتوافق حُسْن الحال وفراغ البال مع التمرد على الآخر ؟!

وكيف يتوافق المزاح مع العزاء والاستنكار وهو المُلذّ ؟!

وكيف يتوافق مع المهرب والمخرج وأصحابه في رخاء، و"أصحاب الجِدّ في بلاء" ؟ فما العمل والجِد إلا وسائل للوصول إلى الراحة والسكينة وما الثورة والسلاح إلا كدّ وعمل وجد، والضحك لا يكون إلا بعد العمل والتعب. يقول الجاحظ في مقدمة كتابه البخلاء: "اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحّاء، ومــا يجــوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجِدّ، لأجعل الهزل مستراحاً، والراحة جماماً، فإنّ للجدّ كدّاً يمنع من معاودته، ولا بُدَّ لمن التمس نفعه من مراجعته"[4].

ناهــيك عن أنّ الضحك يبقى يقوم على السطحية والتعميم، فنحن نضحك من عيوب الغير طالماً أنّ هــذه العــيوب تظــل سطحية ولا يكون إحساسنا بها عميقاً وإلا تأثرنا بها وتنازعت نفوسنا نوازع التمرد والسخط والثورة والتي تنتهي بالقضاء على متعتنا[5].

إذن لماذا نضحك عند سماعنا نكتة ؟!

نضحك في النهاية لأنّ النكتة تفاجئ الناس. بما لم يتوقعوه، أو بسبب ما تحتويه من مفارقة. فهذه المفارقة أو المفاجأة لم تُسخطهم، ولم تثر فيهم إشفاقاً أو عزاء أو استنكاراً أو تمرداً أو تنفيساً أو مهرباً

---

[1] . **الضحك البحث في دلالة المضحك- هنري برجسون، ص (126).**
[2] . **النكتة السياسية- عادل حمودة ص ص (9- 10).**
[3] . **رسالة التربيع والتدوير- الجاحظ، ص ص (65-68).**
[4] . **البخلاء- الجاحظ، ص (1).**
[5] . **مفاهيم الفكاهة الفرنسية من خلال فنون الكوميديا- محمد علي الكردي- عالم الفكر، م13، ع3، نوفمبر، ديسمبر 1982م، ص (917).**

أو مـــلاذاً لأننا رددنا على عيوب الغير بالضحك. يقول الجاحظ: "ومتى أريد بالمزح النفعُ، وبالضحك الشيءُ الذي له جُعل الضحك، صار المزحُ جِداً والضحك وقاراً"[1].

النكتة مقام المفارقة

تقوم النكتة على المفارقة أو المفاجأة ووضْع الشيء في غير موضعه وقول الشيء في غير مقامه. والمفارقة أنواع: فقد تكون في الشكل وفي الحركة وفي الفعل وفي القول وفي الموقف[2].

فالنكتة تفاجئك : بفعل أو قول في غير مقامه، فيحدث الضحك من جراء هذا الانتقال.

وبعـــبارة أخرى النكتة تفاجئ الناس بغير ما يتوقعون، فصاحبها يرى ما ليس موجوداً، ويسمع ما ليس ملفوظاً، ويقول بما لا يوافق المقام.

"أي أنـــه يـــتلاءم مع ظرف خيالي محض بينما ينبغي أن يتكيف مع واقع راهن"[3] ويمكن تشبيه مفهـــوم المفارقـــة في جميع الأحوال "بسفينة ألقت مراسيها عندما تكون الريح وحركة المد والتيار من القـــوة، بحيث يستطيع كل منها أن يستدرج السفينة رويداً عن مراسيها"[4]. فالمفارقة دائماً في تضاد مع المقام والسياق، وتكون أشد وقْعاً عندما يشتد التضاد.

ويـــرى برجسون أنّ الضحك "ينشأ أساساً حينما يميل الجسد إلى الإنتصار على الروح أو حينما تتغلـــب عناصـــر الـــثقل على عناصر الخفة والرشاقة، وحينما تسيطر الشكلية والنمطية على جوهر الأشياء"[5].

وأشار كانط إلى أنه عندما يستمع المرء إلى نكتة، فإنه ينمي بداخله حالة خاصة من التوقع تتعلق بالانـــتظار إلـــى النقطة التي سيتغير الأمر عندها... حتى يتحول، حتى ينتج منه جديد؛ ثم، وعند حد ذروة النكـــتة يتبدد ذلك التنوع فجأة ويفضي الأمر كله إلى لا شيء. فنضحك. وليس كل مفارقة تؤدي إلـــى ضـــحك، فبعض المفارقات تكون مدعاة للحزن. فالمفارقة تؤدي إما إلى ضحك وإما إلى بكاء. ومصـــدر هـــذا التناقض فسّره لنا التوحيدي عندما قال: "سألت أبا سليمان عن الضحك ما هو ؟ فقال: الضـــحك قـــوة ناشئة بين قوتي النطق والحيوانية، وذلك أنه حال للنفس باستطراق وارد عليها. وهذا

---

[1] . البخلاء- الجاحظ، ص (7).

[2] . المفارقة، د. سي. ميوميك، ص ص (42-43). من مفارقات الشكل تحدثنا عن أشعب سابقاً وكيف كان شكله يشكل مفارقة، ينظر ص (149)، ومن مفارقات الموقف: نشّال محترف تُنشل نقوده أثناء قيامه آمناً بعمله المعتاد.

[3] . الضحك البحث في دلالة المضحك- هنري برجسون، ص (18).

[4] . المفارقة، د.سي. ميوميك، ص (43).

[5] . مفاهيم الفكاهة الفرنسية من خلال فنون الكوميديا- محمد علي الكردي، عالم الفكر، م13، ع3، نوفمبر، ديسمبر، 1982م، ص (916).

المعـــنى مـــتعلق بالنطق من جهة، وذلك الاستطراق إنما هو تعجب، والتعجب هو طلب السبب والعلة للأمـــر الوارد. ومن جهة تتبع القوة الحيوانية عندما تنبعث من النفس، فإنها إما أن تتحرك إلى داخل، وإمـــا إلـــى خارج. وإذا تحركت إلى خارج فإما أن يكون دُفعة فيحدث منها الغضب، وإما أولاً فأولاً باعتدال، فيحدث السرور والفرح. وإما أن تتحرك من خارج إلى داخل دُفعة فيحدث منها الخوف، وإما أولاً فأوّلاً فيحدث منها الاستهزال، وإما أنْ تتجاذب مرة إلى داخل ومرة إلى خارج فيحدث منها أحوال أحدثهـــا الضحك عند تجاذب القوتين في طلب السبب، فيحكم مرة أنه كذا ومرة أنه ليس كذا، ويسري في ذلك الروح حتى ينتهي إلى الغضب فتحرك الحركتين المتضادتين، وتعرض منه القهقهة في الوجه لكثرة الحواس، ويعلو الغضب واحداً واحداً منها"[1]

والذي يتضح لنا من خلال هذا القول أنّ الضحك مسألة شخصية، وحال من أحوال النفس تخضع لشـــعور الفرد نفسه وتنشأ عند سماعه للنكتة أو أي شيء طارئ يحدث تعجباً معيناً يستثير رغبته في البحث عن السبب في هذا الشيء الجديد الذي ورد على النفس وجعلها تتعجب وتُفاجأ.

والذي يراه التوحيدي أن القوى الحيوانية تتحرك حركة خاصة إما إلى الداخل وإما إلى الخارج.

فإذا تحركت إلى الخارج مرة واحدة حدث منها الغضب.

وإذا تحركت إلى الخارج شيئاً فشيئاً يحدث الفرح والسرور.

وإذا عادت النفس من حركتها الخارجية مرة واحدة إلى الداخل يحدث لها الخوف.

وقد تعود من الخارج شيئاً فشيئاً فيحدث منها الاستهزال.

وقـــد تظـــل الـــنفس مرة تتحرك نحو الداخل ومرة نحو الخارج، فتدرك ما في الأمر من أحوال وتناقضـــات تثـــير العجب. فتبدأ بالتساؤل: لعل السبب كذا بل لعله كذا. ومن هذه المفارقة بين ما هو موجـــود في الداخل وما يوجد في الخارج تضحك النفس –وهي أحد أحوال النفس– . ومن جهة أخرى قـــد تـــألم النفس–وهذا راجع للنفس الإنسانية–. فالضحك كما قلنا مسألة شخصية تخضع لشعور الفرد نفسه عند سماعه النكتة والتقاطه المفارقة.

ومن المفارقة نستطيع أن نعرف الأسباب التي أوجدت النكتة السياسية والنكتة الاجتماعية. فهنالك فجـــوة كبـــيرة بيـــن ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين ماضينا المجيد والموارد الغنية والإمكانات البشـــرية والآمال والأمنيات من ناحية وواقعنا الظالم المظلم، والفوضى السياسية والسلسلات المتتالية من الهزيمة والفشل واحدة بعد أخرى من ناحية ثانية، فمثل هذه المفارقة واضحة نعيشها يومياً.

---

[1] . **المقابسات – التوحيدي، ص (166).**

والشيء نفسه يُقال عن النكتة الاجتماعية. فأكثر ما يتنادر به الناس ويستجلبون به الضحك عيوب الغير، فقد كانت العرب إذا أرادت أن تضحك ضحكت من عيوب الغير لما فيها من مفارقة فتؤلف لها النكت بأسلوب أدبي وتلصقها بالآخرين.

فالبخـــيل مـــثلاً له أسلوب آخر مميز يفرده عن سائر نماذج الناس في تصديه للآخرين دفاعاً عن مذهب الجمع والمنع وهذا مما لا يوافق الآخرين.

وهـــذا ما أكّده برجسون عندما أرجع مبدأ الفكاهة الشخصية إلى عدم توافق الشخص بشكل ما مع المجتمع[1].

فيـــتحدث البخيل والمغفل والأحمق والسياسي... حديثاً لا يلائم الحالة الظاهرة ولا يوافق المقام. وكلما كان الحديث بعيداً عن الملائمة وأدل على الغفلة والحمق والبخل كان أبعث على الضحك.

والملاحـــظ أيضاً أنّ النكتة تناولت أكثر الفئات وقاراً كطبقة المعلمين والقضاة والفقهاء والمحدثين والوعـــاظ وأئمـــة المساجد والخلفاء، حيث كانت تصدر عنهم أقوال وأفعال لا تلائم ولا تناسب مقامهم الوظيفي.

جميع الحقوق محفوظة

فالنكـــتة تجعلهـــم يتحدثون حديث من يرى الصحة أو العدالة ليست بالأمر المهم ولا بُد أن تراعى الأشـــكال الظاهـــرية فـــي الحرفة أدق المراعاة حتى لكأنّ الناس وُجدوا من أجل المهنة، لا المهنة من أجلهم[2].

ومجمـــل القـــول أنّ قضايا الصراع الاجتماعي والصراع السياسي وعيوب الغير تصلح أن تكون مواضع ومواضيع للنكتة لما فيها من مفارقة، تتحول إلى قضايا أدبية تثير الضحك وتحقق المتعة.

ووجـــوه المفارقة التي تنجم عنها النكتة ضروب منها المفارقة اللغوية، والمفارقة الشكلية ومفارقة الموقف. ومن النكت القائمة على المفارقة اللغوية:

1. كان جحا يغني ويجري، فسألوه: "ما بالك تغني وتجري؟"

قال:" أحب أن أسمع صوتي من بعيد".

فالسؤال هنا " ما بالك تغني وتجري " لا يسوق إلى ذهننا رده المضحك.

2. وكانت له زوجتان، فجلس معهما يتسامر، وطاب لهما أن تحرجاه، فسألتاه: أيهما أحب إليه؟

قال: أنتما معاً حبيبتان إلى قلبي!

---

[1] . **مفاهيم الفكاهة الفرنسية من خلال فنون الكوميديا- محمد علي الكردي، عالم الفكر، م13، ع3، نوفمبر، ديسمبر، 1982م، ص (917).**

[2] . **الضحك البحث في دلالة المضحك- هنري برجسون، ص (41).**

قالـــتا: "لا، إنك لا تستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة، وأمامك هذه البركة نخيّرك في إغراق إحدانا بها، فمن مِنّا تلقي بها في الماء الآن" ؟

وحـــار فـــي أمـــره هنيهة، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها: " أذكر أنك تعلمت السباحة قديماً يا عزيزتي".

فنحـــن وقفنا في حيرة عما سيفعله خاصة بعد أنْ وضعته زوجتاه في وضع مُحرج، لكنه كعادته فاجأنا بقوله.

3. ومن المفاجأة بكلام غير متوقع:

أنّ عيســـى بـــن موســـى قال للعوام بن حَوْش: مَن أرضعتك، فقال له: ما أرضعتني إلا أمي. فقال له عيسى: قد علمت أنّ ذلك الوجه القبيح لا يصبر عليه سوى أمك[1].

فالســـؤال هنا عن المرضع لا يسوق إلى الذهن هذا التعليق الفكِه، وإنما يحتمل أموراً أخرى، فلما كان التعليق كذلك جاء مفاجئاً، فكان مُضحكاً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز رسائل الجامعية

4. وسأل بخيل امرأته عن اللحم. فقالت : أكله السَنوّر.

فوزَن السنوَّر ثم قال: هذا اللحمُ، فأين السنور؟[2]

وإنما نضحك هنا لا لبخله الشديد وإنما لأنه فاجأنا بكلام لا يلائم المقام.

5. سمع جحا رجلاً يقول: ما أحسن القمر! فقال :أي والله خاصة بالليل[3].

وقيل لمغفل: قد سُرق حمارك، فقال: الحمد لله الذي ما كنت عليه. [4]

ومـــن الكتـــب الفكهة كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" ألفه ابن مماتى (وكان قيّما على الشؤون المالية لديوان جيش صلاح الدين الأيوبي) ذكر فيه كثيراً من النكات في أهم قادة صلاح الدين الأيوبي فـــي مصر: قراقوش فصوّره بشيء من الغفلة والحمق حين يحاكم الناس في قضاياهم، فتتقلب أوضاع المتقاضـــين عنده، فيصبح الشاكون مشكوّين، والمشكُوُّون شاكين، فكأنّ دار القضاء أصبحت ملعباً من

---

[1] . **العقد الفريد، ابن عبد ربه- ج3، ص (232).**
[2] . **البخلاء، الجاحظ- ص (145).**
[3] . **أخبار الحمقى والمغفلين- ابن الجوزي، ص (39).**
[4] . **المصدر السابق، ص (164).**

ملاعب الهزل يذهب المصريون إليها للفرجة والترويح عن النفس بما يرون من أحكام هذا الحاكم من غباء وظلم، لأنه يخالف كل ما تواضع عليه الناس من منطق وفهم.[1]

ومن هذه النكات:

أنّ الشـــرطة جاءت قراقوش يوماً بأحد غلمانه وقد قتل نفساً محرّمة بغير حق. فقال اشنقوه. فقيل لـــه : إنـــه حدّادك الذي ينعل لك الفرس، فإن شنقته انقطعت منه، فنظر أمام بابه، فرآى رجلاً قفاصاً، فقال : اشنقوا القفاص "وسيبّوا" (اتركوا) الحدّاد.

وعلـــى هـــذا المثال تجري النكات "القرقوشية" ومنها: نكتة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حياً ليدفنوه وهو يصيح في النعش مستغيثاً بقرقوش، فلما سمعه قرقوش ترك المشيعين يمضون به وقال له: ويحك! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك!

وقـــيل إن جـــنديا نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهي حامل في سبعة أشهر. فصدمها الجـــندي وأســـقط حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده إلى قرقوش، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها إلى زوجها إلا وهي حامل في سبعة أشهر.

فنحن نضحك هنا لا للظلم الذي وقع على هؤلاء وإنما للمفارقة في النكتة فنرى في النكتة الأولى القاتل يـــبرأ، والـــبريء يقتل، وفي الثانية تصديق قرقوش للمشيّعين وتكذيبه للرجل الذي ما زال حياً مع أنه يكلمه، وفي النكتة الثالثة أن العقاب لم يأت على قدر الفعل، وإنّما كوفئ على فعلته.

فالباعـــث علـــى الضحك هو كل قول غريب لا يقع مقامه أو سلوك يجري على غير النهج المتبع عند الناس أي بسبب التحوّل المفاجئ من مقام إلى مقام في القول وفي الفعل وفي وجهة الشعور.

المتلقي والمقام الثقافي

والنكـــت تفـــترض مســـبقاً مرجعـــية معيـــنة حول مجتمع البخلاء والحمقى والمغفلين.. والمقام الاجتماعي والسياسي والديني .. في أذهان متلقيها، وإلا فلن يكون هناك وَقع لتلك النكت على المتلقي. فقـــراء العربـــية يجمعون –إن استثنينا حالات معينة– على أنّ نكت البخلاء للجاحظ ساخرة مضحكة. لكـــن هـــل ينطبق هذا الحُكم على غير قراء العربية، وبأننا إذا ترجمناها إلى لغات أخرى ستثير عند المتلقين لها الردود نفسها وتستدعي استجابات مماثلة لاستجاباتنا.

---

[1] . **في الشعر والفكاهة في مصر- شوقي ضيف، ص (11). وينظر : ص ص (92-99).**

هــذا التساؤل يقودنا إلى أنّ الكثير من الضحك يعتمد على الغموض البراغماتي المقامي والدليل علـــى ذلك أنها تُتَلقى بكيفيات مختلفة فيضحك البعض فيكون (المتلقي الضاحك) وقد تحدث أثراً مختلفاً عند آخرين فيكون (المتلقي الصامت).

ففك خطاب النكتة يحتاج إضافة إلى المعرفة اللغوية إلى معرفة ثقافية مرتبطة بعملية التخاطب.

والــذي نقولــه هــنا أنّ نوعية المعرفة التي تتطلبها النكتة تختلف باختلاف المقام، فقد تستدعي معــارف متصــلة بالسياســة أو العادات والتقاليد أو المتصلة بالدين أو بالقضاء أو الهندسة أو الطب، فالنكــتة التــي تحمــل هذه المواضيع لا تجد صداها في نفس متلقيها إلا إذا كان قد اطّلع على حذلقة أصحابها. فالنكتة على اختلاف أشكالها "لا بُد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها"[1]

فالنكــتة جــزء مــن الثقافة السائدة في المجتمع، مما يعني في آخر الأمر أنّ النكتة مسألة نسبية. وليس أدل على ذلك أن ما يراه شعب ما أو جماعة من الجماعات مثيراً للضحك قد يثير النفور أو حتى الأســى لــدى جماعــة أخرى. ويصح أن نقيس ذلك على الأفراد فنجري على ردودهم الأحكام نفسها المجراة على المجتمعات.

وهذا ما يدفعنا إلى الكلام عن براغماتية النكتة، فالنكتة لم تكن بمنأى عن الصراعات التي احتواها العصر بل هي تعبير مكثف لحقائق اجتماعية وثقافية وفكرية وسياسية حفل بها مجتمع ما.

ومــن هــنا تظهر المشاكل البراغماتية التي يواجهها المترجم عند ترجمة النكتة من العربية إلى الإنجليزية.[2]

ومــع هــذا، علــى الرغم من ارتباط النكتة بالمقام الثقافي فإنّ بعض النكت تتخطّى هذه الحدود البراغماتــية المقامــية. فالنكتة التي لا تحمل أية خصوصية ثقافية تنتشر بشكل واسع وتفهم من خلال متلقيها.

ومن الأمثلة التي توضّح ذلك:

1- توضــأ جحا، ولم يكفه الماء لإتمام وضوئه، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء، فقام يصلي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض..

فسألوه : "ما بالك تقف على رجل واحدة ؟

---

[1] . **حجا الضاحك المضحك- عباس محمود العقاد، ص (9).**

[2]. Semanticity, Pragmaticity, And Translatability of Jokes in North Jordan, Abdullah Shunnaq, Damascus UNIV. Journal – V16 – Number (1), 2000, P (71 -69) .

قال: الأخرى غير متوضئة!.

فمـــثل هذه النكتة تتضمن قضايا إسلامية، والذي لا يدرك هذه المعاني سيواجه صعوبة كبيرة في فهم المفارقة في النكتة إذا ما حاولنا نقلها إلى الإنجليزية مثلاً.

ومن هذا القبيل:

2- سكن جحا في دار، فشكا إلى صاحبها أنه يسمع قرقعة في سقفها.

قال صاحب الدار: لا تخف، إنه يسبح الله"

قال وهذا الذي أخشاه؛ تدركه رقة فيسجد علينا!.

النكتة: أحوال الأفراد والجماعات

لأنّ النكتة تتناول أحوال وعيوب الآخر وتصورها في قالب فكاهي ساخر قائم على المفارقة فهي مستخرجة من أحوال القائلين بها، فبحسب ما هم عليه تكون نكاتهم، فهي مرآة برزت من خلال أحوال الأفـــراد والجماعات الفكرية والنفسية. وتنبئ عن كثير من ألوان الأخلاق والعادات والعيوب، وترسم صـــوراً شتّى لأحوال المجتمع الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية. وهي من ناحية أخرى تدل على ذكاء قائلها ومعرفته بدخائل الآخر ونفسيته.

فلكل مجتمع نكاته وفنون ضحكه، وقد يشاركه فيها غيره من الشعوب أو ينفرد بها.

فمثلاً:

من خلال النكت التي كانت تدور حول القضاء في العصر العباسي، ندرك أن المجتمع كان يعاني مـــن وجـــود قضـــاة يجهلون أصول الدين وهم منْ أقرب الطبقات إليه. بحيث لم يكن أحدهم يميز بين القرآن والشعر؛

قيل "أحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي، فأنكر ولده ذلك. فقال أبوه: يا سيدي، أفتكون صلاة بغير قراءة؟

فقال الولد: إني أقرأ القرآن.

فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع

فقال:

علق القلب الربابـــا بعدما شابت وشـــابا

إن ديـــن الله حـــق لا أرى فيه ارتيـــابا

فقـــال أبـــوه: إنـــه لم يتعلم هذا إلا البارحة سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه. فقال القاضي: وأنا الآخر أحفظ آية منها هي:

فارحمي مضنى كئيباً قد رأى الهجر عـــذابا

ثم قال القاضي: قاتلكم الله، يُعلّم أحدكم القرآن ولا يعمل به[1].

وأمـــا فـــي نكـــات النحويين فنرى كيف كان النحوي المولع بالغريب –لا بالفصيح– ولعاً يجعله يخاطب كافة الناس دون تمييز، وفي مقام لا يلائمه.

كـــان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه، فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت فاجتمع علـــيه أولاده وقالوا له: ندعو لك فلاناً أخانا قال لا : إن جاءني قتلني. فقالوا نحن نوصيه أن لا يتكلم. فدعـــوه فلمـــا دخل عليه قال له: يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل الجنة وتفوز من النار، يا أبت والله ما شـــغلني عنك إلا فلان فإنه دعاني بالأمس فأهرس، وأعدس، واستبذخ، وسكبج وطهبج وأفرج، ودحج، وأبصل، وأمضر، ولوزج، وافلوذج، فصاح أبوه غمضوني فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي[2].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وعـــاد بعضـــهم نحوياً فقال ما الذي تشكوه قال حمى جاسية، نارها حامية منها الأعضاء واهية، والعظام بالية، فقال له لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية[3].

وفي نوادر ونكات المتنبئين، نرى أنّ هذه الظاهرة قد انتشرت في العصر العباسي وقد أصبحت من الكثرة بحيث كانوا موضوعاً للنكت والتندر.

أُتِيَ بامرأة تنبأت في أيام المتوكل فقال لها: أنت نبية؟

قالت: نعم

قال: أتؤمنين بمحمد. قالت : نعم

قال: فإنه ρ قال، لا نبي بعدي.

قالت: فهل قال لا نبية بعدي. فضحك المتوكل وأطلقها... [4].

---

[1] . **المستطرف في كل فن مستظرف- الأبشيهي، ج2، ص (319).**
[2] . **المصدر السابق، ص (320).**
[3] . **المصدر السابق، ص (320).**
[4] . **المصدر السابق، ص (323).**

وفـــي الوقت نفسه كثير من النكات التي تتضمن اتهامات الشعوب بعضها لبعض بعيوب معينة أو اتهامـــات أشـــخاص بعضـــهم لبعض لا ندري –لقلة معرفتنا بها– إن كانت صادقة أم كاذبة بريئة أم مغرضة؛

ويحضـــرني في هذا المقام نكات ابن مماتى في قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي في مصر فابن ممـــاتى صوّره حاكماً ظالماً أحمق حتى أصبح رمزاً لكل حاكم ظالم، مع أنّ هذه الشخصية كما يقول الـــتاريخ كانـــت بعيدة عن مثل هذه الصفات فقد صوره التاريخ قائداً ماهراً ومسؤولاً أميناً يتولى أمر مصر إذا غاب صلاح الدين في حربه مع الصليبين.

كما يحضرني في مثل هذا الموضع نكات الغباء التي تدور حول أهل إقليم بعينه وقد يكون الأمر في نسبة النكت الدالة على الغفلة إليهم بخلاف ما هم عليه شأن قراقوش.

"اتفـــق أربعة صعايدة على سرقة بنك، ووزعوا مهامهم حسب الخطة كالتالي: الأول يراقب الطريق... والثاني يقتحم البنك... والثالث يفتح الخزنة والرابع يبلغ البوليس.

ونستطيع أن نتمثل ونحن نضحك على مثل تلك النكات أنها تنبئ عن بعض مظاهر العلاقات بين الأشخاص وبين الشعوب.

فعلـــى المســـتوى العالمي فإن النكات التي تُروى على لسان البلجيكيين تعرفنا على حمقهم "تنهّد البلجيكي وقال: آه، حبذا لو كان بالإمكان بيع الحماقات، لأصبحنا جميعاً من أصحاب الملايين!"

سؤال: لماذا السيارات البلجيكية عريضة أكثر مما هي طويلة؟

جواب: لأن كل الركاب يودون الجلوس بالقرب من السائق!"

والـــنكات التـــي تـــروى عـــن الانجلـــيز تعرفنا على برودتهم" الأحد هو اليوم الذي يضحك فيه البريطانيون من القصص الجميلة التي تروى لهم يوم السبت!".

وأمـــا الإيطالـــيون فتدل على احتيالهم "أراد محام أن يثبت للمحكمة براءة موكله، فطلب استدعاء شـــاهد نفـــي، ثـــم سأله: هل صحيح أن ... وقبل أن يكمل عبارته، قاطعه الشاهد بقوله: أبداً هذا غير صحيح!"

أمـــا الاســـكتلنديون فتدل على بخلهم "تلقى رئيس تحرير إحدى المجلات رسالة من اسكتلندا يقول كاتبها: سيدي، إذا نشرتم أي نكتة مرة ثانية عن بخل الاسكتلنديين، فسأضطر في هذه الحالة إلى الكفّ عن استعارة مجلتكم من جارنا لقراءتها".

وأما النكات التي تروى عن الألمان فتدور على عسكريتهم "عامل ألماني الأصل يشتغل في مصنع بالولايـــات المـــتحدة، أراد أن يركّب عربة أطفال، فسرق من المصنع على مدى شهور القطع اللازمة لذلك. وفي نهاية أحد الأسابيع أخذ يعمل على تنفيذ مراده. بعد بضع ساعات جاء إلى زوجته مهرولاً: ماريا، كيفما ركّبت القطع، لا أحصل إلا على رشاش".

والنكات التي تُروى عن الأمريكيين تكشف عن محدوديتهم وعنجهيتهم: "كان الدليل السياحي يقف أمـــام ســـجن الباستيل مع مجموعة من السائحين الأمريكيين، حين قال: أترون الباستيل، السجن القديم الذي هاجمه الشعب في **1789**؟ نظر أحد الأمريكيين إلى العمود المنصوب وسط ساحة الباستيل وقال: يا لهم من مساكين، لقد كانوا محشورين كثيراً بداخله".

والـــنكات التي يتداولها الروس تُظهر كذبهم فهم لا يعرفون للصدق معنى: "كان فلاح روسي في أحـــد أيـــام الحرب يبكي ويندب سوء حظه على قارعة الطريق. وفيما هو كذلك مرّ به قسيس القرية، فســـأله عما به، فقال له: إنني أبكي بسبب ابني. قال له: وهل ابنك مريض؟ قال له: كلا، ولكني حائر في أمره، فإن قلت لولاة الأمور إنه دون سنه الحقيقية طلبوا مني أن أرسله إلى المدرسة، وإذا قلت إنه أكـــبر مـــن تلـــك السن، ألحقوه بالجيش. ففكر القسيس قليلاً، ثم قال له: ولما لا تعطيهم سنه الحقيقية، فصـــاح الفلاح، وقد بدت على وجهه دلائل البهجة والسرور وقال له: فكرة جميلة حقاً، يا أبانا، إني لم أفكر بذلك قط، فشكراً".

وهـــناك نكـــات تُظهر نظرة الغرب الدونية إلى الشعوب والثقافات غير الغربية، وتظهر بالمقابل العواطـــف المتناقضـــة لدى الشعوب الأخرى تجاه الغرب وحضارته الحديثة. "ذهب جنديان أمريكيان ليضـــعا باقـــة من الزهور على قبر زميل لهما قُتِلَ في كوريا، فوجدا هناك جندياً من كوريا الجنوبية يـــرش على قبر زميل له كمية من الأرز، وفقاً للعادة المتبعة هناك. وضحك الأمريكيان وقالا للكوري ســـاخرين: أتظـــن أنّ صاحبك سوف يذوق طعم هذا الأرز؟ فأجابهما الكوري: نعم، حين يشمّ زميلكما رائحة هذه الزهور".

وهكذا فبحسب أحوال الأفراد والجماعات تكون نكاتهم.

مقال النكتة

انتهينا في فصل البلاغة إلى أنّ الاستعارة أسلوب بلاغي يخلق إطاراً تواصلياً إقناعياً لم يكن متوقعاً، هدفه الإمتاع والتأثير.

والفرق بين النكتة والاستعارة أنّ الأخيرة تُظهر لنا التوافق الحميم بين اللغة والمقام، بينما النكتة اللفظية تظهر لنا عدم توافق بينهما يفاجئنا فنضحك. "فالنكتة اللفظية تكشف إذن عن "ذهول" مؤقت في اللغة وهي بهذا تضحك"[1]

فالنكتة التي تقوم على المفارقة: أسلوب بلاغي يخلق إطاراً تواصلياً لم يكن متوقعاً هدفه الإضحاك. والمقال لن يبلغ هدفه إلا إذا كان غير منتظر.

ومن ناحية أخرى،

تنبّه الجاحظ إلى مراعاة مقتضى الحال عند تحري الموضوع أو الغرض المتحدث عنه واختيار ما يلائمه ويناسبه من الألفاظ، وفي ذلك يقول: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء؛ فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل..."[2] وللفظ السخيف[3] مقام لا يجوز أن يُستعمل فيه غيرُه؛ منها حكاية النوادر والمضاحك "فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوا خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عن مستمعها، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها، فلم يكن على حاكيها عتب في سخافة لفظها"[4]. وقد ذهب الجاحظ في سبيل مطابقة الكلام لمقتضى حال النكتة إلى حدٍّ يجعله يدعو إلى اللحن ومجانبة الإعراب في مثل هذا المقام، وإذا أراد المرسِل إصلاح هذا الخلل ذهب بكثير من عناصر الإضحاك. وقد أشار إلى هذا في كتابه غير مرة، فهو يقول : "إنّ الإعراب يُفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يُفسِد كلامَ الأعراب. لأنّ سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورةُ، وذلك المخرجُ، وتلك اللغةُ، وتلك العادةُ. فإذا أدخلتَ على هذا الأمر– الذي إنما أضحك بسُخفه وبعض كلام العجمية التي فيه– حروفَ

---

[1] . **الضّحك، البحث في دلالة المضحك- هنري برجسون، ص (82).**

[2] . **البخلاء- الجاحظ، ص (302).**

[3] . **ومن مواضع ومقامات اللفظ السخيف أيضاً: في خطاب مَن لا يعرف غيره طلباً لإفهامه كما أنه ربما تكلف الإنسان لمن لم يحسن العربية بعضَ رطانة الأعاجم ليُفهمه. والسخيف من الكلام، هو كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدبوا ولم يسمعوا كلام الأدباء، ولا خالطوا الفصحاء. وذلك معيب عند ذوي العقول لا يرضاه إلا مائق جهول. إلا أنهم استعملوه في المقامات التي ذكرناها.**

[4] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (248).**

الإعــراب والتحقــيق والتثقيل، وحوّلته إلى صورةِ ألفاظِ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءةِ والنَّجابة، انقلب المعنى مع انقلاب لفظه، وتبدّلت صورتُه"[1]

ويقــول في موضع آخر: "ومتى سمعت –حفظك الله– بنادرة من كلام العرب فإياك أن تحكيَها إلا مــع إعــرابها ومخــارج ألفاظها، فإنك إنْ غيَّرتها بأن تلحَنَ في إعرابها وأخرجْتَهَا مخارجَ المولّدين والبلدييــن، خرجــتَ من تلك الحكايةِ وعليك فضل كبير. "وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوّام، ومُلحــة من مُلح الحُشوةِ[2] والطّغام[3]، فإياك وأن تستعملَ فيها الإعراب، أو أن تتخيّر لها لفظاً حَسناً، أو تجعــلَ لها من فيك مخرجاً سَرِيّاً، فإنّ ذلك يُفسد الإمتاعَ بها، ويُخرجها من صورتها، ومن الذي أردت له، ويُذهب استطابتَهم إياها، واستملاحَهم لها"[4]

ومــرة أخــرى يقول: "وإذا كان موضع الحديث على أنه مُضحِكٌ ومُلْهٍ، وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملتَ فيه الإعراب، انقلب عن جهته، وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبدلتَ السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وُضع على أن يُسرّ النفوس يكربُها[5]، ويأخذ بأكظامها[6]"

فعنصر الإضحاك عند إلقاء النكتة يعتمد على طريقة التلفظ بالكلام، وعلى النطق الذي ينحرف بالكلمة عــن صــورتها الحقيقــية. فعلينا أن نعطي النكتة حقها من الألفاظ وأن تُؤدى بطريقة مُشاكلة لطبعها، فيُستملح اللحن في حكايتها، وأنّ للّفظ السخيف موضعاً ومقاماً فيها.

---

[1] . البخلاء- الجاحظ، ص (302).
[2] . الحُشوة من الناس: رُذالتهم.
[3] . الطَّغام هنا: أراذل الناس وأوغادهم.
[4] . البخلاء- الجاحظ، ص (302).
[5] . يكرُب النفس: يحزنها ويغمُّها، والأكظام: جمع كظم بالتحريك: مخرج النفس من الحلق، ويأخذ بأكظامها: أي مخارج أنفاسها.
[6] . البخلاء- الجاحظ ص (302).

مقام العبارة التأديبية

هذا مقام خطاب مخصوص يتعين بتمايز طرفين في طبقتين أقرهما الاجتماع تنتظمان:

- الرسول وأصحابه
- الأب وأبناءه
- المعلم والتلميذ ... الخ

فللكـــلام شـــروط خاصة؛ فالكلام ليس مجرد "كلام". ووقوفنا على هذه الشروط الكلامية يبين لنا بجـــلاء، لمن يريد أنْ يتعمّق أنّ هناك حضارة، أو ثقافة خاصة تتصل بالكلام وأصوله؛ فحياة المجتمع وعقـــائده ونظمـــه الاقتصادية وعاداته وتقاليده والمؤثرات التي تنبعث من البيئة الجغرافية والتاريخية والفلســـفية والسياســـية تشترك في تكوين الكلام وأسلوبه. هذا من جانب، ومن جانب آخر، في الكلام صـــفات المتكلم ففيه تتجلى نفسيته وأخلاقه وطباعه وخصائصه، وفيه تتمثل أفكاره وتصوراته، معدنه وجوهره ووجدانه وضميره.

لهـــذا فخطـــاب الرسول إلى أصحابه، والأب إلى أبنائه والمعلم إلى تلميذه لا يتّخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة.

فالأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية والدينية والثقافية.

ثم إنّ وصْفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدّب أو كلام غير مؤدب يُعتبر وصفاً جمالياً أخلاقياً نابعاً من اعتقاداتنا الاجتماعية والدينية.

فالعـــبارة التأديبـــية إنمـــا جـــاءت لـــتلائم بين حاجات الفرد وضروراته وبين حاجات مجتمعه وضروراته فتوفق بين الفرد والمجتمع، والفرد والبيئة والفرد والتقاليد وموازين الأخلاق والقيم. وتمكّن للانسجام بين الفرد والبيئة المادية والبيئة الأدبية والروحية.

وهي تتخذ لكل ذلك وسائل تخرج من صميم المجتمع.

أولاً: خطاب الرسول وأصحابه

هو خطاب توجه به الرسول ρ إلى الإنسان دونما تحديد لزمان ومكان أو لعرق وحضارة. وهذا الاســـتيعاب لجمـــيع العصـــور قد تجلّى بتميز الخطاب النبوي بكل ما في شأنه أن يؤمّن لهذا الحديث مخاطـــبة الإنسان أينما كان. ولما كان خطاب النبي معاصراً لكل زمان؛ هذا لا يعني غير أنه خطاب يســـتوعب "العصـــور المعرفية" لحضارة النوع الإنسانية قاطبة إلى يوم القيامة. ناهيك عن بلاغة هذا

الخطـــاب الذي يرمي إلى أعلى مدارج الكمال البشري في حُسن التأتي للمعاني بأدق ما يمكن أنْ تؤديه المفـــردات والجمل من دلالات ومعانٍ تقع في النفوس موقعاً بالغاً من التأثير مالا تنقضي عجائبه ولا يذهب بروائه ورونقه كثرة الترداد وتغير الزمان وتغير المكان.

فاستطاع النبي –عليه السلام– أنْ يجعل من كلماته المنتقاة بدقة متناهية ذات تأثير إبلاغي قلَّ أن تـــتوافر لشـــخص غيره. فهو الذي بعثه الله في قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ولا بد لهم من لسان أفصح من ألسنتهم لينقادوا له ويخضعوا.

ولعـــلّ التأثـــير الكبـــير الذي أحدثه النبي في نفوس مستمعيه مردّه إلى معرفته العميقة لبُنيتهم النفسية؛ فلا يأتي كلامه إلا بما يروق السامع. فكان ρ يخاطب أصحابه في المناسبات بما يناسب مقام كل مجلس، فيتكرر الحديث بصُور كل منها يؤدي الغرض في موضعه، وربما سُئل المسألة غير مرة، فيجيـــب كل سائل بما يراه مُوافقاً حاله، فتأتي الألفاظ الدائرة حول المعنى العام الواحد مختلفة باختلاف الخصوصيات. قال رسول الله ρ : "نحن معاشر الأنبياء أُمِرنا أنْ نُكلِّم الناسَ على قدْر عقولهم".

مثال هذا حديث البخاري: "إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى فَمَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ... " فقد نقص من تمام الحديث كما تثبت الروايات المختلفة قوله عليه السلام: "فمن كانت هجـــرته إلـــى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله" قبل "ومَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها" وتفسير هذا؛ عندما علم رسول الله مِن السائل أنه أراد الدنيا، أو عرض إلى شيء من معانيها ابتدأ بهذا اللفظ. فاخـــتلاف حـــال السامع وبيئته يترتب عليه اختلاف في اللغة. قال الخطابي: "وقد يتكلم ρ في بعض الـــنوازل بحضـــرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متســـاوية، ولـــيس كلهـــم يتيسر لضبط اللفظ وحصره، أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يُستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد".[1]

فلـــم يكـــن الناس على مستوى واحد من الفهم والفِقْه وهذا الأمر كان ملحوظاً لدى البخاري فهو يعقـــد بابـــا يسميه باب من خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أنْ لا يفهموا،[2] وفيه يقول علي بن أبي

---

[1] . غريب الحديث- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، ص (ب).
[2] . صحيح البخاري،ج1، في باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

طالـــب –رضي الله عنه– : "حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّب اللهُ ورسولُهُ"[1]. ففي هذا القول اعتراف بالمستويات المتباينة في المعرفة والفهم فيجب على المتكلم أن يراعي هذا الأمر.

علـــى أنَّ جمالـــية الأثر في خطاب رسول الله لا تكمن في بعده البلاغي فقط وإنما هي قائمة في أدب خطابه فالطابع العام للعبارة التأديبية في خطاب رسول الله ρ لم يكن دينياً محضاً ولا كان دنيوياً محضاً وإنما كان دينياً ودنيوياً معاً. فقد كان يرمي إلى إعداد النشىء لعملي الدنيا والآخرة.

حدّثـــنا رجل من بني عامر: أنّه استأذن على النبي ρ وهو في بيته فقال: أألج ؟ فقال النبي – عليه السلام– لخادمه:

اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان، فقل له: قُل : السلام عليكم، أأدخل؟[2]

فصفة السلام:

أفضلها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يليها: السلام عليكم ورحمة الله.

يليها: السلام عليكم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ودلـــيل ذلـــك ما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– أن رجلاً مر على رسول الله ρ وهو في مجلـــس فقال: السلام عليكم، فقال "عشر حسنات"، فمر رجل آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله، فقال "عشرون حسنة"، فمر رجل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: "ثلاثون حسنة".[3]

ويكون الرد بضمير الجمع وإن كان المسلم واحِداً ؛ فيقال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وجـــاء في أحاديث صحيحة ما رواه جابر بن سليم الهجيمي –رضي الله عنه– أنه قال : أتيت النبي ρ فقلت: عليك السلام. فقال "لا تقل عليك السلام" ولكن قل: السلام عليك"[4]. وعند أبي داود بلفظ: "أتيـــت النبي ρ فقلت : عليك السلام يا رسول الله . قال "لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى"[5]

---

[1] . صحيح البخاري، ج1، في باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.
[2] . آداب اللسان- ماجد البنكاني، ص (301).
[3] . رواه الترمذي (2689).
[4] . رواه الترمذي رقم (2722)، وقال "حديث حسن صحيح".
[5] . سنن أبي داود، حديث رقم (5209).

فدلّت الأحاديث على كراهة الابتداء بـــ (عليك السلام).

أمـــا السلام على الأيقاظ في موضع فيه نيام ، قال رسول الله –عليه السلام– : "فيجيء من الليل فيسلم تسليماً لا يوقِظ نائماً ، ويُسمِعُ اليقظان.."[1]

وفـــي هـــذا أدب نـــبوي رفيع، حيث يُراعى في هذا المقام حال النائم فلا يكدر عليه نومه، وفي الوقت نفسه لا تفوت فضيلة السلام.

ولا يقـــل المســـتأذن (أنـــا) إذا قيل مَنْ هذا؛ وسبب ذلك أنّ قول المستأذن (أنا) ليس فيه تعريف بالمستأذن، فالإبهام باقٍ على حاله، وقوله (أنا) لم تفد شيئاً. وكراهة ذلك تؤخذ من حديث جابر –رضي الله عنه– قال :"أتيت النبي ρ في دَيْن كان على أبي، فدققتُ الباب، فقال : "مَن ذا"؟ فقلت : أنا . فقال: "أنا أنا. كأنه كرهها.[2]

ولا بـــأس أن يقول المستأذن : أنا فلان. فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: خرج النبي ρ إلى المسجد وأبو موسى يقرأ، فقال : "مَنْ هذا" ؟ فقلت أنا بريدة جُعلتُ فداك. فقال: "قد أعطي –الأشعري– مزماراً من مزامير آل داود".[3]

ولا يُقال هذا "زمان أقشر" أو "الزمن غدار" أو "يا خيبة الزمن الذي رأيتك فيه".

قال ابن عثيمين، هذه العبارات التي ذكرت في السؤال تقع على وجهين:

الوجـــه الأول أن تكون سباً وقدحاً في الزمن فهذا حرام، ولا يجوز، لأنّ ما حصل في الزمن فهو من الله عـــز وجل، فمن سبّه فقد سبّ الله، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي : يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهر وأنا الدهر. بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار".

والوجـــه الثاني أنْ يقولها على سبيل الإخبار فهذا لا بأس به، ومنه قوله تعالى عن لوط، عليه الصلاة والسلام: **(وقالَ هَذا يَومٌ عَصِيبٌ)**[4]

أي شديد، وكل الناس يقولون : هذا يومٌ شديد. وهذا يوم فيه كذا وكذا من الأمور وليس فيه شيء.

وأما قول: "زمانٌ أقشَر" أو " الزمن غدار" فهذا سبّ لأن الغدر ذم لا يجوز. وأما قول: "يا خيبة الزمـــن الـــذي رأيتُك فيه" إذا قصد خيبتي أنا، فهذا لا بأس فيه، وليس سبّاً للدهر، وإن قصد الزمن أو اليوم فهذا سب له فلا يجوز.[1]

---

[1] . رواه مسلم (2055)، وهو جزء من حديث طويل.
[2] . رواه البخاري (6250) ومسلم (2155).
[3] . أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (793).
[4] . هود- آية (77).

وقول : " هذا حرام علي" أو "حرام علي إن لم أفعل كذا" لا يجوز أن يوصف شيء بالتحريم إلا أنْ يكــون شــيئاً حــرّمه الله أو رسوله، وذلك أنّ وصف شيء غير محرم بالحرمة –ولو على سلامة النــية– فيه تعدٍ على جناب الربوبية، وفيه إيهام بأن ذلك الشيء محرم وهو ليس كذلك. والأسلم للمرء في دينه أن يبتعد عن هذا اللفظ.[2]

ولا يقــول المسلم عندما ينسى آيات من القرآن الكريم: نَسيت، ولكن يقول : أنسيت. ففي حديث ابن مسعود قال رسول الله ρ : " ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي"[3].

فكراهية قول نسي آية كذا وهي كراهة تنزيه وأنه لا يكره قول أنسيتها وإنما نهي عن نَسيتها لأنه يتضمن التساهل فيها والتغافل عنها.

وللمســلمين آداب كثــيرة مستفادة من الحديثِ الشريفِ تحتذى في مقام الأكل والفراغ منه، وفي مقــام دخــول الخــلاء والخروج منه وفي مقام دخول المسجد والخروج منه وفي مقام رؤية الهلال، وهبوب الريح، وسماع الرعد، والمصيبة والفزع والغضب...الخ

فكانــت مــثل هذه العبارات الآنق والأمثل لأنها خرجت من رسول أدّبه ربه، متجاوزين بها ما يجري عليه سواء الناس.

فــيكون قولهــم في مقام الأكل: "بسم الله" فعن عمر بن أبي سلمة –رضي الله عنه– قال : كنتُ غلاماً في حجر الرسول ρ وكانت يدي تطيش في الصَّحفة فقال لي رسول الله ρ : "يا غلامُ سَمِّ الله، وكــل بيميــنك، وكل مما يليك"[4]. فما زالت تلك طعمتي بعد واختار النووي في أذكاره أنّ الأفضل أنْ يقول " بسم الله الرحمن الرحيم، فإن قال: بسم الله كفاه وحصلت السُنة"[5]

ثــم حمد الله تعالى بعد الفراغ من طعامه أو شرابه، فقد روى أنس بن مالك أنّ رسول الله ρ قال: "إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمَدَه عليها، أو يشرب الشَّربة فيحمَدَه عليها"[6]

---

[1] . فتاوى العقيدة- محمد بن صالح عثيمين، ص ص (746-747).
[2] . فتاوى العقيدة- محمد بن صالح عثيمين، ص ص (695- 698).
[3] . رواه البخاري، (5039).
[4] . رواه البخاري، (5376).
[5] . الأذكار- النووي، ص (334).
[6] . رواه مسلم، (2734)، والترمذي (1816).

وقد تعددت ألفاظ الحمد عنه ρ بعد الفراغ من طعامه وشرابه. ومنها: عن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قـــال رسول الله ρ : "مَنْ أكل طعاماً فقال: الحمد الله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه"[1]

ويستحب للداخل عند دخول الخلاء أن يقول: "بسم الله" لما رواه علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ρ : "ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: بسم الله"[2] ، ويسن له أنْ يقول : "أعوذ بالله من الخبث والخبائث" فقد روى عبد العزيز بن صهيب أنه قال: سمعت أنساً يقول: كان النبي ρ إذا دخل الخلاء قال "اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث"...[3]

وعند الخروج من الخلاء يقدم الرجل اليمنى ويقول:

"غفرانك"، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ρ إذا خرج من الغائط قال: "غفرانك"[4].

وفـــائدة هـــذه الاستعاذة "الالتجاء إلى الله عز وجل من الخبث والخبائث، لأن هذا المكان خبيث، والخبيث مأوى الخبثاء، فهو مأوى الشياطين فصار من المناسب إذا أراد دخول الخلاء أن يقول: أعوذ بالله من الخبث والخبائث حتى لا يصيبه الخبث وهو الشر، ولا الخبائث وهو النفوس الشريرة.

ويســـتحب للداخل إلى المسجد أن يقول: "اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آل محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك"، وإذا خرج يقول: "اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آل محمد، اللهم إني أسألك من فضـــلك" تأسياً بالنبي ρ عند دخوله المسجد وعند خروجه منه. فعَن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عـــنهما، قالا: قال رسول الله ρ : "إذا دخل أحدُكُم المسجدَ فليقل: اللهم افتح لي أبوابَ رحمتك، وإذا خرج فليقل: "اللهم إني أسألك من فضلك"[5]

ويكون قولهم في مقام هبوب الريح "اللهم إني أسألك خيرَها وأعوذ بك من شرها" وفي مقام رؤية الهـــلال: "الله أكـــبر، اللهـــم أهِلَّـــهُ علينَا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام والتوفيق لما تُحب ربنا وترضـــى، ربُّـــنا وربُّك الله" . وفي مقام الفزع "لا إله إلا الله"، وفي مقام المصيبة "لا حول ولا قوة إلا بـــالله" و "إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها"، وفي مقام الغضب

---

[1] . رواه الترمذي، (3458).
[2] . رواه الترمذي، (606).
[3] . رواه البخاري، (142).
[4] . رواه الترمذي، (7).
[5] . رواه مسلم ، (713).

"أعــوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وفي مقام سماع الرعد " سبحان الذي يُسبح الرعدُ بحمْده والملائكة من خيفته"، وفي مقام لُبس الثوب الجديد "اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخيْر ما صُنع لــه وأعــوذ بــك مِــنْ شَره وشَرِّ ما صُنع له" . وفي مقام الذكر بعد نزول المطر "مُطِرنَا بفضل الله ورحمــته" وفي مقام الدعاء للمتزوج "بارك الله لك، وبارك عليك وجمع بينكما في خير"، وفي مقام مَنْ أتاه أمر يسرُّه "الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات"[1] ...الخ.

فأذكار النبي ρ تعبير لساني أديب عن إحساس القلب عن كل موقف –مقام– من مواقف الحياة، فالنبي –عليه السلام– لا يقول كلمة إلاّ كان إحساس قلبه بها كبيراً، فهو لا ينطق عن الهوى.

والاهــتمام بقــول هــذه العبارات في مقامها اللائق بها إنما للوصول إلى ما نسميه بتنفيذ المقال واجتــيازه الأطــر القولــية والسمعية إلى التأثير والفعل والتغيير . فترداد الأذكار على ألسنتا تجعلنا براغماتييــن حيوياً وتلقائياً لأننا نعيش قيمة هذه الأذكار بنتائج تأثيرها علينا إن لم يكن بنتائجها الفعلية، فهي تُفكرنا بربنا.

ففي مقام المصيبة، يقول المسلم: "لا حول ولا قوة إلا بالله" كأنه لا يُريد أن يكون ضعيفاً إلا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم في الضعف أمامه.

وأنت عندما تقول في مقام سماع الرعد "يا ساتر يا رب" فأنت لنْ تستشعر الأمن والطمأنينة وجلال الله في ذلك المقام.

بيْد أنك لو قلت "سبحان الذي يُسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته" ستستشعره.

ومِــثْل ذلك عند رؤية الهلال، فلو قلت : "يا سلام ما أجمله" أو "يا سلام على قُدرة الله" ، صحيح أنّ قلــبك ســيتحرك وربمــا قلــت لو أنّ الأحبة معي، لكنه لن يتحرك باتجاه رباني. لأنك لنْ تحقق الإحساس الذي يريده الله منك في تلك اللحظة. فالشعور الصحيح الذي تحسه عند رؤية الهلال لا بُد أنْ يُعــبِّر عنه بالمقال الصحيح ألا وهو : " الله أكبر، اللهم أهِلَّهُ علينَا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام والتوفيق لما تُحب ربنا وترضى، ربُّنا ورَبُّك الله".

فالعلاقة بيننا وبين القمر في هذا الكون هي علاقة عُبودية لله، فهذا الإحساس هو الذي يريده الله منا أن نحسه في مثل ذلك المقام.

---

[1] . **ينظر: الأذكار للنووي.**

وعـــند نَظَر المرء إلى المرآة سيتحرك أيضاً قلبه لكنْ باتجاه خاطئ فهو سيُعجَب بمنظره وشكله. فكان لا بد من تحرك أمثل للقلب، فنتذكر جمال الأخلاق وذلك عند قولنا "اللهم كما حسّنت خلقي حَسِّن خُلقُي".

"فاللسان تُرجمان اللب، وبريد القلب، والمبينُ عن الاعتقاد بالصحة والفساد"[1]. يقول الشاعر:

إنّ الكـــلام لفي الفؤادِ وإنَّمـــا جُعِلَ اللسانُ على الفؤاد دليلاً[2]

فهـــذه الأحاديـــث والأذكار تقيم توازناً بين القوى الإدراكية والقوى الشعورية حتى تُلامس النفس وتلبـــي حاجاتها من الفائدة الفكرية والمتعة الوجدانية. وهي خلاصة التربية الإسلامية، تُسهم في تهذيب الأجـــيال، وتقويـــم الأخلاق وإرشاد الناس إلى الطريق المستقيم ومن هذا الخطاب تميز المسلمون في جميع شؤونهم وتأكدت خصوصيتهم.

ويشـــبه الخطـــاب، فـــي هـــذا المقام، أن يكون مما يحسمه طرفان: الملقي وهو النبي ρ والنص، أما الطرف الثالث فهو ممتثل مستجيب !

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثانياً: خطاب الأب وأبنائه

تُعتـــبر الوصـــايا لازمـــة من لوازم المعّمرين تُستبان عندما يصبحون قاب قوسين أو أدنى من الموت. وهي مادة غنية لدراسة خطاب موجه من أب لأبنائه دراسة براغماتية.

فهل كان خطابه خطاب شدة وخشونة أم خطاب ترغيب أم خطاب ترهيب أم خطاب نفي ونهي؟ أم خطاب أمر؟ أم خطاب استنكار؟ وهل كان خطابه موجهاً نحو غاية معنية ؟

إنّ خطـــاب الوصية العربية يكاد يكون واحداً، يجمعه هَمّ مُشترك هو الرضا والإيمان. وخطاب الوصية خطاب أمر يتضمن حِكَماً وأخباراً. أخبار تدور حول شؤون الدنيا. وحكمة هي خلاصة الثمرة الفكرية والاجتماعية التي اكتسبها الأب في حياته.

أو بعبارة أخرى هي (صفوة مختارة من القول في شؤون الدنيا والدين)[3]

يـــبلغها الأب لأبـــنائه بأسلوب موجز مؤثر. "يبصرونهم فيها بحياتهم، وبتليدهم الذي صار إليهم، وقد صاروا إليه"[4].

---

[1] . **البرهان في وجوه البيان- ابن وهب الكاتب، ص (63).**
[2] . **المصدر السابق، ص (64).**
[3] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، المقدمة، ص (ق).**
[4] . **المصدر السابق، ص(ق).**

قال أُسَيِّد بن أوسٍ التميمي يوصي أولاده:

"يـــا بَنـــيّ إني رأيتُ مُطَّلَعاً تزايَلت حجارتُه، وقد رأيته أمْلس ليس فيه صَدْعٌ، ورأيت الدَّهر قَلَّ الصُّـــخور، فليقترب بعضكم من بعض في المودة، ولا تتَّكلوا على القرابة، فإنَّ القريب مَن قَرُبَ نفسُه، والأمور بَدواتٌ".[1]

وأوصى سعد العشيرة بَنيه لما حضرته الوفاة، فقال:

"يـــا بَنيّ، اتقوا إلهكُم بالليل والنهار، وإياكم وما يدعو إلى الاعتذار، ودعوا قفْو[2] المحصنات تسلم لكم الأمهات، وإياكم والبغي على قومكم تَعُمُرْ لكم الساحات، ودعوا المِراء والخصام تسْلَمْ لكم المروءة والأحـــلام، تحبَّبوا إلى العشائر تَهَبْكُم العمائر، وجودوا بالنوال تَنْمُ لكم الأموال، وإياكم ونكاح الوَرْهاء[3] فإنهـــا أدْوَأ الداء، وأبعدوا من جار السوء داركم، ومن قرين الغيّ مزاركم، ودعوا الضغائن فإنها تدعو إلى التباين، ولا تكونوا لآبائكم ضُرَّاراً، حيّاكم ربكم ، وسدّد أمركم"[4]

وجمع الحارث بن كعب بنيه حين حضرته الوفاة، فقال:

"يا بَنيّ، عليكم بهذا المال فاطلبوه أجْمَلَ الطلب، ثم اصرفوه في أجمل مَذهَب، فَصِلوا به الأرحام، واصـــطَنِعوا مـــنه الأقوام، واجعلوه جُنّة[5] لأعراضكم تَحْسُنْ في الناس قَالَتُكُم[6]، فإن بذْلَه تمامُ الشرف، وثبات المروءة وإنه ليُسَوِّد غير السيّد، ويؤيّد غير الأيِّد[7] حتى يكون عند الناس نبيلاً نبيهاً، وفي أعينهم مَهيباً؛ ومن اكتسب مالاً فلم يصل به رحماً، ولم يعطِ منه سائلاً، ولم يصُن به عِرضاً بحث الناس عن أصـــله، إن كان مدخولاً[8] هَرَتوه[9] وهتكوه، وإن لم يكن مدخولاً ألزموه دَنيّة، وأكسبوه عِرْقاً لئيماً حتى يُهَجّنوه به"[10]

وأوصى هُبَيْرَة بن صخر الكلبيّ، فقال:

---

[1] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، ص (74).**
[2] . **قفو المحصنات: أي قذف الزوجات زوراً وبهتاناً.**
[3] . **المرأة الورهاء: الحمقاء.**
[4] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، ص (122).**
[5] . **الجُنة بالضم: أي الوقاية.**
[6] . **المراد سيرتكم.**
[7] . **الأيد: هو السيد.**
[8] . **المدخول: في عقله دخل.**
[9] . **هرتوه: أي طعنوا فيه وذموه.**
[10] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، ص (122).**

"يـــا بَنـــيّ ويا عشيرتاه، أوصيكم بتقوى الله والصبر على المَضَض، ففيه الفوز، لا فَوْزَ القِسِيّ، حـــافظوا علـــى الحُرَم، فإن الهلاك في الغفلة عنها، والفشل في التخاذل، غيظُوا العدو بإظهار السرور وإبداع الأمور، واذكروا المجامع والمواسم يأمن سِرْبكم، فإن المحافظة أمْن، وإنما المعسكر لمن صبر، وليُحيّكم ربكم".[1]

وأوصى مضرّس بن ربْعيّ ابنه فقال:

"يا بُنَي، إنّ الأسف مرض، والطمع لؤم، واليأس عجز، فاسْلُ عما فات، واحرص فيما تستقبل، وفكّر ثم قدِّر، ثم احضر"[2]

وأوصى أبو قيس بن صِرمة فقال:

"لا تـــنْكِلوا عـــن العـــدو، ولا تبخلوا عن الصديق، وجازوا ذا النعمة، وتمسَّكوا بحرمة الجار، وتباذلوا، وقدّموا أهل العِيّ، وأوفوا بالعهد، وإياكم والبغي، فإنه أقوى سلاح عدوكم"[3]

ولما حضرت المهلب الوفاة جمع بنيه فقال:

"أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإنّ صـــلة الـــرحم تُنسِـــىء في الأجل، وتُثري المال، وتجمع الشَّمل، وتكثر العدد، وتُعْمِرُ الدار، وتعز الجانب،وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم، فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذِلّة ..."[4]

يا بنيَّ، قومكم، قومكم، إنّه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم...

يا بنيّ، اتقوا الجواب وزلّة اللسان... يا بنيَّ ، سوِّدوا أكابركم وأعزوا ذوي أسنانكم تَعظموا بذلك..."

فمـــن الأمـــثلة السابقة نرى أن "أسلوب الأمر" و"أسلوب النداء" : (يا بَنيّ) احتلاّ مكاناً بارزاً في خطـــاب الأب لأبـــنائه، وَجَـــريا كثيراً على ألسنة الآباء؛ وذلك للحصول على قدْر أكبر من الإبلاغية والتأثـــير وتعديـــل الســـلوك المطلوب. والنواحي البراغماتية المقامية هي فقط التي تحدد هذا المعنى المقصود للمتكلم في مثل هذا الخطاب.

فما هو الأثر الذي يحققه "أسلوب الأمر" ويحققه "أسلوب النداء" في خطاب الآباء لأبنائهم؟؟

أســـلوب الأمر دائماً ينطوي عنه التنفيذ والطاعة : ليحثوا بالقول على فعل أو يردعوا بالقول عن فعل.

---

[1] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، ص (128).**
[2] . **المصدر السابق، ص (133).**
[3] . **المصدر السابق، ص (133).**
[4] . **المصدر السابق، ص ص (141، 142).**

وأسلوب الأمر أحسن ما يستعمل من الأساليب اللغوية في مثل هذا المقام لمناسبته:

أولاً: حال المتكلم به من موقع الأعلى سلطة (خطاب أب لابنه).

ثانياً: أسماع ونفوس متلقيه وحسن موقعه لديهما لأنه صادر من أعلى سلطة محببة إلى النفس.

ومثل هذا الأسلوب –أسلوب الأمر– لا يُقبل قوله ولا يُنفّذ أمره، ولا تأثير له في النفس ولا وقع إلا من خلال معرفة المقام الذي قيل فيه ومعرفة حال قائله. فهذا خطاب موجه من أب أصبحت حياته في نهاياتها، يوصي أبناءه فيودِعهم نتائج تجربته ليحظوا برضا الله وسعادة الدنيا. فهو خطاب يعطي للمتلقي إمكان الإحساس بالثقة في المتكلم وخاصة عندما سُبق بأسلوب التحبب أسلوب النداء (يا بَنيّ).

فإذا كان "الأمر" من قبل مَنْ هو أقلّ منزلة فلن يُنفّذ ولن يُقبل والمحمود من الكلام ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به إلى الاستثقال. وفعل الأمر فيه من الرصانة ما هو واضح لكنه إذا صَدَر مِمّن هو أقلّ منزلة فإنه يُستثقل ويُستقبح.

وكل ما يُستحسن ويستقبح فإنّ له اعتبارات شتى بحسب المواضع والمقامات وما يليق بواحد منها، وبحسب الأغراض والأحوال وتباين المقاصد.

وفعل الأمر يَحسُن في موضع خطاب مَن هو أعلى سلطة ويقبح في موضع من أقل سلطة، ومن هنا تظهر براغماتية "أسلوب الأمر" وبراغماتية هذا الخطاب وتظهر من أصالة هذه الوصايا وإصابتها وتواتر رواياتها، ووضوح عباراتها ومدلولها"[1]

وتظهر من خلال هدفها الأول والمباشر: أن يحثوا العقول على فعل. لهذا نرى أن الأساليب البيانية من استعارة وتشبيه –والتي هدفها التأثير في النفس قبل كل شيء– لم تظهر في مثل هذا الخطاب.

ثالثاً: خطاب المعلم والتلميذ

يحرص التلميذ في خطابه مع معلمه على مراعاة مقام معلمه العلمي ومراعاة حاله.

---

[1] . **المعمرون والوصايا- أبو حاتم السجستاني، المقدمة، ص (ق).**

فعلـــى التلمـــيذ أن يُحسِـــن خطابه مع معلمه أو شيخه بقدر الإمكان ولا يقول له : (لِمَ) و (لا) و (أين موضـــعه) وشبه ذلك.[1] وليتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه ولا يليق خطابه به مثل: (إيش بك) و (فهمت) و (سمعت) و (تدري) (يا إنسان) ونحو ذلك.

وكذلـــك لا يحكـــي له ما خوطب به غيره مما لا يليق خطاب الشيخ به وإن كان حاكياً مثل، (قال فلان لفلان أنت قليل البر) أو (ما عندك خير) وشبه ذلك[2].

بل يقول إذا أراد الحكاية ما جرت العادة بالكناية به مثل : قال فلان لفلان–الأبعد قليل البر– وما عند البعيد خير – وشبه ذلك.

ومـــن المخاطبة الجميلة؛ حدث أبو عثمان المازني قال: رأيت الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيـــد اللغوي فقبّل رأسه وجلس بين يديه. وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة. وأبو زيد اللغوي كان من أئمة الأدب. وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب[3].

ولا ينبغي للطالب أن يكرر سؤال ما يعلمه ولا استفهام ما يفهمه فإنه يضيع الزمان وربما أضجر الشيخ، قال الزهري: إعادة الحديث أشد من نقل الصخر، وينبغي أن لا يقصر في الإصغاء والتفهم أو يشـــتغل ذهـــنه بفكر أو حديث ثم يستعيد الشيخ ما قاله؛ لأنّ ذلك إساءة أدب، بل يكون مصغياً لكلامه حاضر الذهن، لما يسمعه من أول مرة.[4]

وليـــتحفظ من مفاجأة الشيخ بصورة رد عليه، فإنه يقع ممن لا يحسن الأدب من الناس كثيراً مثل أن يقـــول الشيخ له: (أنت قلت كذا وكذا)، فيقول: (ما قلت كذا)، ويقول له الشيخ: (مرادك في سؤالك كذا) أو (خطر لك كذا) فيقول: (لا) أو (ما هذا مرادي)، أو (ما خطر لي هذا) وشبه ذلك[5].

بـــل طـــريقه أن يتلطف بالمعاشرة عن الرد على الشيخ، وكذلك إذا استفهم الشيخ استفهام تقرير وحـــزم كقولـــه: (ألـــم تقـــل كذا) و (أليس مرادك كذا) ، فلا يبادر بالرد عليه بقوله: (لا) أو (ما هو مـــرادي)، بـــل يســـكت أو يوري عن ذلك بكلام لطيف يفهم من الشيخ قصده منه، فإن لم يكن بد من تحرير قصده وقوله: فليقل : "فأنا الآن أقول كذا" و"أعود إلى قصد كذا" ويعيد كلامه، ولا يقل الذي قلته أو الذي قصدته ليضمنه الرد عليه[6].

---

[1] . **تذكرة السامع والمتكلم- بدر الدين الكناني، ص (101).**
[2] . **المصدر السابق، ص (102).**
[3] . **المصدر السابق، ص (102).**
[4] . **المصدر السابق، ص (106).**
[5] . **المصدر السابق، ص (104).**
[6] . **تذكرة السامع والمتكلم- بدر الدين الكناني، ص (104).**

وعلـــى التلميذ أنْ لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره، ولا يسارقه فـــيه ولا يظهر معرفته به أو إدراكه له قبل الشيخ، فإن عرض الشيخ عليه ذلك ابتداء والتمسه منه فلا بأس.[1]

وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه –أي كلام كان– ولا يسابقه فيه ولا يساوقه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم، ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه أو مع جماعة المجلس.[2]

وإذا صادف الشيخ في طريقه بدأه السلام، ويقصده بالسلام إن كان بعيداً و لا يناديه ولا يسلم عليه مـــن بعـــيد ولا من ورائه، بل يقرب منه ويتقدم عليه ثم يسلم، ولا يشير عليه ابتداء بالأخذ في طريق حـــتى يستشيره ويتأدب فيما يستشيره الشيخ بالرد إلى رأيه، ولا يقول لما رآه الشيخ وكان خطأ : (هذا خطأ) ولا (هذا ليس برأي)[3].

بـــل يُحسن خطابه في الرد إلى الصواب كقوله: يظهر أن (المصلحة في كذا) ولا يقول : (الرأي عندي كذا) وشبه ذلك[4].

وإذا ردّ الشيخ عليه لفظة وظن أنّ رده خلاف الصواب أو علمه كرّر اللفظة مع ما قبلها لينتبه لها الشـــيخ أو يأتي بلفظ الصواب على سبيل الاستفهام فربما وقع ذلك سهواً أو سبق لسان (لغفلة) ولا يقل (بـــل هي كذا) بل يتلطف في تنبيه الشيخ لها، فإن لم ينتبه قال : (فهل يجوز فيها كذا) فإن رجع الشيخ إلـــى الصـــواب فـــلا كـــلام وإلا ترك تحقيقها إلى مجلس آخر بتلطف لاحتمال أن يكون الصواب مع الشيخ.[5]

فنلاحظ هنا كيف أنّ التلميذ يخاطب معلمه وَفْق حاله التي يعيشها أو يمر بها فإذا سمع الشيخ يذكر حكمـــاً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال متعطش إليه فرح به كأنه لم يسمعه قط.[6]

قـــال عطـــاء: إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه، فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شـــيئاً. وعنه قال: إنّ الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأني لم أسمعه ولقد سمعته قبل أن يولد. فإن سأله الشيخ عن الشروع في ذلك عن حفظه له فلا يجب بـــ (نعم) لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه ولا يقل (لا) لما فيه من الكذب.

---

[1] . **المصدر السابق، ص ص (104- 105).**
[2] . **المصدر السابق، ص (107).**
[3] . **المصدر السابق، ص ص (111 - 112).**
[4] . **المصدر السابق، ص (112).**
[5] . **المصدر السابق، ص ص (124 - 125).**
[6] . **المصدر السابق، ص ص (104- 105).**

بل يقول : أحب أن أسمعه من الشيخ أو أن أستفيده منه أو بعد عهدي أو هو من جهتكم أصح فإن علم من حال الشيخ أنه يؤثر العلم بحفظه له مسرة به أو أشار إليه باتمامه امتحاناً لضبطه وحفظه أو

لإظهار تحصيله، فلا بأس باتباع غرض الشيخ ابتغاء مرضاته وازدياد الرغبة فيه.[1]

وينبغـــي أنْ لا يخاطـــب شيخه بتاء الخطاب وكافه، ولا يناديه من بُعد بل يقول (يا سيدي) و (يا أســـتاذي) وقـــال الخطيب: يقول (أيها العالم) و(أيها الحافظ) ونحو ذلك، و (ما تقولون في كذا) و (ما رأيكم في كذا) وشبه ذلك.

ولا يسميه في غيبته أيضاً باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه، كقوله: (قال الشيخ أو الأستاذ كذا) و (قال شيخنا) أو (قال حجة الإسلام) أو نحو ذلك.[2]

ولا ينبغي للشيخ أو المعلم أن يقول للطالب: (هل فهمت) إلا إذا أمن من قوله (نعم) قبل أن يفهم، فـــإن لـــم يأمن من كذبه لحياء أو غيره فلا يسأله عن فهمه، لأنه ربما وقع في الكذب بقوله (نعم) لما قدمـــناه مـــن الأسباب، بل يطرح عليه مسائل كما ذكرناه، فإن سأله الشيخ عن فهمه فقال: (نعم)، فلا يطرح عليه المسائل بعد ذلك إلا أن يستدعي الطالب ذلك لاحتماله خجله بظهور خلاف ما أجاب به[3].

وهـــذا خطـــاب موجه من الغزالي إلى تلميذه إجابة عن بعض مسائل توجه بها إليه، لازم خدمة الغزالي واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه، فكتب إلى شيخه استفتاء وسأله مسائل، والتمس نصيحة ودعاء فكتب الغزالي رسالة (أيها الولد) إليه لخصّ فيه آراءه المتعلقة بالمقصود الأقصى من الدين.

يقـــول الغزالـــي: "أيهـــا الوَلَد، إني كتبتُ في هذا الفصلِ مُلتَمساتِك فينبغي لك أنْ تعمَلَ بها ولا تنساني من أنْ تذكرَني في صالح دعائِك"[4]

"أيها الولد، اسمعْ مني كلاماً آخَرَ وتفكَّر فيه حتى تَجِدَ خَلاصاً".[5]

"أيها الولدُ، لا تكُن مِنْ الأعْمالِ مُفلساً ، ولا مِنْ الأحوالِ خالياً، وتيقَّن أنَّ العِلْمَ المجَرَّدَ لا يَأخُذُ باليَد"[6].

"ولـــو قـــرأتَ العِلْمَ مائة سَنَةٍ، وجمعْتَ ألفَ كتابٍ، لا تكونُ مُسْتَعِداً لِرحمةِ الله تعالى إلا بالعمل، "وأنْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى".[7]

---

[1] . تذكرة السامع والمتكلم- بدر الدين الكناني، ص (105).
[2] . المصدر السابق، ص (89).
[3] . المصدر السابق، ص (53).
[4] . أيها الولد- الغزالي، ص (63).
[5] . المصدر السابق، ص (61).
[6] . أيها الولد- الغزالي، ص (11).
[7] . المصدر السابق، ص (13).

"أيهـــا الولدُ، كَمْ مِنْ ليالٍ أحْيَيتَها بتَكْرار العِلم، ومُطالعَةِ الكُتُب، وحرَّمتَ على نفسِك النَّوْمَ؟ لا أعْلَمُ ما كـــان الباعثُ فيه ؟ إنْ كان نيْلَ عَرضَ الدنيا وجَذبَ حُطامِها وتحصيلَ مناصبها والمباهاة على الأقران والأمـــثال، فويَل لك ثُمَّ ويْل لك. وإنْ كان قصدُك فيه إحيـــاءَ شريعةِ النبي ρ وتهذيب أخلاقِكَ وكَسْر النفس الأمارةِ بالسوء، فطوبى لكَ ثُمَّ طوبى لك"[1].

"أيها الولد، العِلمُ بلا عَمَل جُنون، والعملُ بغير عِلْمٍ لا يكون"[2]

أيها الولد، عِش ما شِئت فإنك مَيّتٌ، وأحبِبْ ما شئتَ فإنك مُفارقُهُ، واعملْ ما شئتَ فإنكَ مَجزيٌّ به".[3]

"أيها الولدُ، إذا عَلِمتَ هذا الحديثَ، لا حاجة إلى العِلم الكثير. وتأمّل في حكاياتٍ أخرى، وذلك أنَّ حاتماً الأصَمَّ كانَ مِن أصحاب الشَّقيق البَلْخِيِّ، رَحْمةُ اللهِ تعالى عليهما، فسأله يوماً قال: صاحَبْتَني مُنذُ ثلاثين ســـنةً مـــا حَصَّـــلْت فيها ؟ قال حَصَّلْتُ ثمانِيَ فوائدَ مِن العِلم؛ وَهيَ تكفيني منْه، لأني أرجو خَلاصي ونجاتي فيها. فقالَ شقيقٌ ما هي؟ قال حاتمٌ الأصمّ:

(الفـــائدة الأولى) أني نظرتُ إلى الخلْق فرأيتُ لكُلٍّ منهم مَحبوباً ومعشوقاً يحبُه ويَعشَقُهُ، وبعضُ ذلك المحـــبوبِ يصاحبُه إلى مَرض الموتِ، وبعضُهُ إلى شَفير القَبْر، ثم يرجعُ كُلُّه ويترُكُهُ فريداً وحيداً ولا يدخُلُ معَهُ في قبرهِ منهم أحَد، فتفكّرتُ وقلتُ: أفضلُ محبوب المرءِ ما يدخُلُ في قبره ويُؤانِسُهُ فيه، فما وجدْتُـــهُ غَـــيْرَ الأعمـــالِ الصالحةِ فأخذْتُها محبوباً لي لتكونَ سِراجاً لي في قبري، وتُؤانِسَني فيه ولا تترُكَني فريداً"[4]

والـــذي نـــراه هـــنا أنّ براغماتـــية هذا الخطاب تعكس بوضوح الخلفية الدينية للمتكلم فهو يعظ الآخرين وينصحهم ويوجههم إلى السبيل التي وجد هُوَ في سلوكها الحق والاطمئنان. هذا من جهة.

ومـــن جهة أخرى؛ لما كان غرض خطابه النصيحة والوعظ والإرشاد جاءت أقواله تتراوح بين أســـاليب الطلـــب والأمـــر والنهـــي والخبر، ومثل هذه الأساليب لا نستطيع أنْ نفهم دلالتها الوعظية والإرشـــادية إلاّ من خلال المقام الذي قيلت فيه ومعرفة حال متكلمها، فهذا خطاب موجَّه من معلم إلى تلمـــيذ أي هـــو خطاب مِنْ مقام علمي أعلى إلى مقام أدنى منه، ومن مقام رجل يصلح الاقتداء به. ثم جـــاء أسلوب النداء "أيها الولد" ليخدم هذا الغرض فيدل أيضاً على حال المتلقي، فإنه يعني متحدثاً إليه أدنـــى هـــو (الولد) الذي يُطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع) والذي يطلب النصيحة من معلمه،

---

[1] . **المصدر السابق، ص (17).**
[2] . **المصدر السابق، ص (19).**
[3] . **المصدر السابق، ص (19).**
[4] . **المصدر السابق، ص (31).**

بقـــي أن نقول إن هذا الخطاب تضمّن نفيا ونهيا؛ لأنه يريد أن يبني عالماً مثالياً تسود فيه السعادة ويعم فيه النعيم في عالم مليء بالصراعات والمعاناة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وصفوة القول:

علينا أن نُميز بين نوعين من العبارات التأديبية:

أولاً: عـــبارات تأديبـــية ارتبطت بمبادئ وسنن في المخاطبات ذكرها لغويون ومختصون متى خالفها مُخالف نسبوه إلى قلة الفهم ونقص العلم ومثل هذه العبارات تتغير من عصر إلى عصر.

ثانياً: عبارات تأديبية تتخطى الزمان والمكان، وهي أذكار رسول الله ρ وأحاديثه.

أمـــا الأولـــى: فيُقصد بها إلى المسايرة والمجاملة وإقامة العلاقات الاجتماعية فيما بينهم . أي مراعاة تيسير عملية التواصل بين المتكلم والمستمع وتحقيق الإمتاع الراقي.

وأما الثانية: فيُقصد بها ذِكْر ربّنا في كل موقف من مواقف الحياة. فهي ذِكْر باللسان وإحساس بالقلب.

وإنني ألمح في مثل هذه العبارات فائدة في دراسة اللغة على الأساس المقامي البراغماتي.

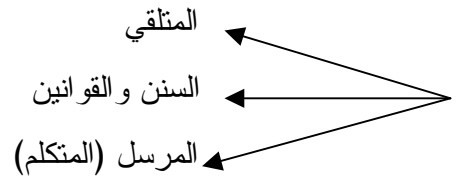

ونحن من خلالها نستدل على الطبقة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي الذي يشغله المتلقي ومعرفة أحوالـــه. أمـــا العبارة التأديبية في الأذكار والأحاديث النبوية فنستدل منها على الانتماء الديني للمتكلم، وعلـــى حالات الإنسان الانفعالية من إعجاب وفرح وغضب وألم وأرق، فكل ذِكْر يعطي ظلالاً للحالة النفسية للمتكلم.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن جهة أخرى نستدل على القيم الدينية والثقافية المتجلية من خلال السنن والقوانين وعلى نوعية الأدب السائدة في عصر من العصور.

فهذه العبارة التأديبية ثمرة من ثمرات حضارة ومدنية، تختلف بتنقل الأحوال، وتغير العادات فما يصلح الآن لأن يُطلـــق علـــيه الحديـــث المهذب، ربما أصبح نوعاً من الخروج عن آداب اللياقة، فقد تحدث تغـــيرات ضـــخمة في الأفكار والعادات وفي قواعد السلوك والآداب العامة. "وإنما يَذكر كل إنسان ما بلغه الوُسْعَ من آداب زمانه، واستحسن بالعُرف من عادات دهره".[1]

وعلى الإنسان "أن يعرض ما تقدم على حُكم زمانه وعادات وقته، فيُثْبت ما كان موافقاً، وينفي ما كان مخالفاً، ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة... ثم يُعبِّر عن ذلك كله بما كان مألوفاً من كـــلام الوقت، وعُرْف أهله، فإن لأهل كل وقت في الكلام عادة تُؤْلف، وعبارة تُعْرَف، ليكون أوقع في النفوس وأسبق إلى الأفهام".[2]

---

[1] . **أدب الدنيا والدين- الماوردي، ص (305).**
[2] . **أدب الدنيا والدين- الماوردي، ص (305).**

تعليم اللغة مقامياً

هــذه الدراســة تُتــيح لنا إمكانية تطبيق نتائجها في مجال التعليم. فبعدما تَبيّن لنا ما للمقام من أهمية في معرفة أسرار التراكيب اللغوية وأحوال المخاطبين، والدور الذي يلعبه في تشكيل المعنى؛ لا بُد للمناهج المدرسية أنْ تُوليه عنايتها. خاصة أنّنا نشكو من ضعف مستوى متعلمي اللغة العربية. وتعثّر تراكيبها في ألسنة أبنائها وأقلامهم. فكثيراً ما نجد بعض المتكلمين عندما نراجعه في المعنى الذي يقصده يُبادرك بالقول: "أنا لم أقصد إلى ذلك" وإنما "أقصد كذا". ولربما احتاج إلى اعتذار عن خطأ بَدَرَ منه، أو التماس حاجة فلا يجد سبيلاً إلى التعبير عنه فينصرف لسانه إلى غيره.

فكيف تتم عملية تلقّي وإعادة إنتاج الخطاب التربوي مقاميّاً ؟؟

ونحن هنا نتساءل من موقع شاهد العِيان الذي قُيّض له أنْ يُتابع المناهج اللغوية المدرسية وعن انعكاساتها اللغوية الاجتماعية على الطلاب.

فعلى الرغم من التقدم الكبير الذي حصل في ميدان البحوث اللغوية اللسانية، فإنّ عملية التعليم والــتعلم ما زالت ترتكز على الجوانب الشكلية للغة –والتي لا ننكر دورها– ولم تأخذ حظاً ملحوظاً مــن ثمــار اللســانيات الحديثة كالبراغماتية المقامية التي تُعطي اهتماماً للمعنى في الاستخدام[1] أي تتعامل مع اللغة في مستوى واقعي تطبيقي[2].

وقــد قــادت هذه الطريقة إلى انتقال ملحوظ في الاتجاه من خلال علم اللغة بعيداً عن "المقدرة والكفاية" باتجاه "الأداء والإنجاز" .

ولقد رُحِّب بهذا الانتقال من وجهات نظر مختلفة[3]. ونرحّب بهذا الانتقال في التدريس ومناهج اللغة العربية.

فجيلــنا المعاصــر يحــتاج إلى فلسفة لغوية جديدة، يُجيد فيها فنّ القول واستخدام اللغة استخداماً صــحيحاً، فيســتطيع أنْ يــتحدّث بكــلام بليغ في كلّ مناسبة مقتضاة وفي كلّ مقام يجد نفسه فيه. ويستطيع أنْ يُعبّر عن مُراده ومقصوده في أي غرض شاء.

فــرْبط النحو بالعامل والحركات الإعرابية في مناهج اللغة العربية جعل أبناء العربية يتخبطون فــي خيط معاقد النحو وفصوله، متخبطين في إتقان فروعه وأصوله. وحَصْر البلاغة واختزالها في

---

[1] . Principles of Pragmatics by Geoffrey N .Leech, P(14).
[2] . Ibid , P(2).
[3] . Ibid , P(4).

البحـــث عن الصور والوجوه البلاغية والزخارف والصنعة جعلهم يفقدون القدرة على استخدام اللغة كأداة تأثير.

وعلمـــاء الـــنحو قدماء ومحدثين فهموا النحو فَهْما يتّفق مع ما انتهت إليه البراغماتية المقامية. فرسموا طريقاً جديداً للبحث النحوي يتجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب.

فمنه انطلقت تحليلات القدماء للنص اللغوي، حيث أسهم المقام في توجيهه واختيار التركيب أو المقـــال المناســـب له. فَوَصل القدماء إلى أنّ معنى الجمل في اللغة العربية لا ينحصر في صيغها الشكلية والصورية من استفهام وأمر ونهي ونداء. فالمعنى في مثل هذه الأساليب يُصبح مُتعذّراً إذا اكتفينا فيه بمعلومات الشكل وحده.

فإذا قلنا مثلاً: هل يمكنك فتح النافذة؟

فـــلا يمكن الإجابة عن السؤال (نعم) وكفى، فالاستجابة هنا هي القيام بالفعل وليس الإجابة عن السؤال المطروح.

فكيف يعرف الطالب أنّ هناك طلباً مُضمنّا في صيغة السؤال؟

إنّ كمّاً هائلاً من المعرفة المقامية التي يشارك فيها المتحاوران لا بد منه، لكي يؤدى"الفعل الكلامي" على الوجه الصحيح.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

فمـــن خـــلال المقـــام يتم تدريب الطلاب على فَهْم أسلوب الاستفهام وأسلوب التمني، وأسلوب الـــنداء، وأسلوب الأمر وأسلوب النهي، في أسهل صورة، لأنّ أسماء الاستفهام تخرج عن معانيها الحقيقـــية إلـــى معـــانٍ أخرى مثل (التمني، التهكم، التوبيخ، الوعيد، التقرير، التكذيب، الاستبطاء) وأسلوب الأمر يخرج عن معناه الحقيقي إلى معاني (التهديد)، التعجيز، التسخير الإهانة).

وأسلوب التمني إلى معنى (التهديد، التعجيز، التّحدي).

وأسلوب النداء إلى معنى (الإغراء).

وتوفـــية هذه المعاني حقّها تستدعي طريقة في العَرض والتقديم غير طريقتها التي تُعرض في مناهج التعليم.

يقــول الســكاكي: "مــتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل، تولّد منها ما ناسب المقام"[1].

وقوله: لا يتضح المعنى في مثل تلك الأساليب اتضاحه "إلا بالتعرض لمقتضى الحال"[2]

فعبارة "ليتك تحدثني"[3] إذا قيلت في مقام طلب الحديث من صاحب غير مطموع في حصوله. امتنع إجراء التمني إلى معنى السؤال.

وإذا قلت:

"هــل لــي مــن شفيع؟[4] في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع الاستفهام إلى معنى التمني.

وإذا قلــت: "أتفعــل هذا ؟[5] في مقام لِمَن بُعثِت تراه يؤذي الأب، امتنع توجه الاستفهام وتوجه إلى معنى الإنكار والتوبيخ والتعجب.

أو فــي قولــك: "ألم أؤدب فلاناً ؟[6] امتنع الاستفهام في مقام العلم بتأديبك له وهو حاصل إلى معنى الوعيد والزجر.

فــإذا ســألت "أما ذهبت بعد ؟[7] في مقام لمن بُعِث إلى مهمة وأنت تراه عندك امتنع الاستفهام إلى معنى الاستبطاء والتحضيض.

وإذا سألت: ألا أعرفك؟[8] في مقام معرفتك به، امتنع معنى الاستفهام إلى معنى الإنكار والتعجب.

وإذا ســألت: "مــا هذا ؟ " "ومَنْ هذا ؟"[9] في مقام معرفتك امتنع الاستفهام إلى معنى الاستخفاف والتحقير.

وفي قولك: "أي رجل أنت؟"[10] في مقام معرفتك به، يمتنع الاستفهام إلى معنى التعجب.

وإذا قلت لمن جاءك: أجئتني ؟"[11] ، امتنع المجيء عن الاستفهام إلى معنى التقرير.

---

[1] . مفتاح العلوم- السكاكي، ص (416).
[2] . المصدر السابق، ص (256).
[3] . المصدر السابق، ص (416).
[4] . المصدر السابق،، ص (416).
[5] . المصدر السابق، ص (416).
[6] . المصدر السابق، ص (416).
[7] . المصدر السابق، ص ص (416، 417).
[8] . المصدر السابق، ص (417).
[9] . المصدر السابق، ص (424).
[10] . المصدر السابق، ص (424).
[11] . المصدر السابق، ص (417).

وفي قولك: "هل تهجو إلا نفسك؟"[1] في مقام مَنْ يهجو أباه مع حكمك بأنّ هجو الأب ليس شيئاً غير هجو النفس يمتنع الاستفهام إلى معنى التوبيخ والإنكار.

وإذا قلــت في مقام مَنْ يدّعي أمراً ليس في وسعه: "افعله"[2] ، امتنع معنى الأمر إلى معنى التعجيز والتحدي.

أو قولــك لعــبْد في مقام شَتْم مولاه، وأنك أدّبته حقّ التأديب أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد: "اشتم مولاك"[3] يمتنع معنى الأمر بالشّتم إلى معنى التهديد.

وإذا قلــت لعبد في مقام "لا يمتثل لأمرك": "لا تمتثل لأمري"[4] امتنع النهي وهو طلب ترك الامتثال إلى معنى التهديد.

وإذا قــال المبــتهل إلى الله "لا تكلني .. إلى نفسي"[5] امتنع النهي إلى معنى التضرع والدعاء. وإنْ استخدم النهي في مقام حق المساوي الرتبة أفاد معنى الالتماس[6].

أما في قولك: "اللهم اغفر وارحم"[7] فيمتنع الأمر إلى الدعاء.

والأمر إذا استخدم في مقام الإذن كقولك "جالس الحسن"[8] خرج إلى معنى الإباحة.

وإذا قلــت: لِمَــنْ أقبل عليك يتظلّم، يا مظلوم"[9] امتنع معنى النداء إلى معنى الإغراء بمعونة قرينة الحال أو معرفة المقام.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

فدَمْــج علــم الــنحو بعلم المعاني، أو مَزْج معطيات علم النحو بمعطيات علم المعاني يتحقق؛ باســتخدام اللغة استخداماً مقامياً، تندغم فيه سلامة التركيب وجماله وإصابة المعنى في آنٍ معاً. ولم يخرج المحدثون عن هذا الاتجاه؛ فإبراهيم مصطفى يرى أنَّ البحث النحوي ينبغي أن يمتد فيتناول المعانــي البيانــية كما يتناول الأشكال الإعرابية[10]. وتمام حسّان يتساءل لِمَ لَمْ يحاول واحد منهم أنْ يمــزج أحــد العلميــن بالآخــر ليخرج منهما بدراسة نحوية تُعنى بالتركيب كما تعنى بالتّحليل[11].

---

[1] . **مفتاح العلوم- السكاكي، ص (416).**
[2] . **المصدر السابق، ص (417).**
[3] . **المصدر السابق، ص (417).**
[4] . **المصدر السابق، ص (417).**
[5] . **المصدر السابق، ص (429).**
[6] . **المصدر السابق، ص (429).**
[7] . **المصدر السابق، ص (428).**
[8] . **المرجع السابق،، ص (428).**
[9] . **المصدر السابق، ص (417).**
[10] . **إحياء النحو- إبراهيم مصطفى، المقدمة.**
[11] . **اللغة العربية معناها ومبناها- تمام حسان، ص (330).**

أما نهاد الموسى فقد تكلّم عن منطقة "الأعراف" بين النحو والبلاغة وانتهى إلى أنّ المقام يُمثل نقطة التقاء مشترك بين أعمال النحاة وأعمال البلاغيين[1].

فعلم المعاني هو نوع من النحو المقامي على مستوى الكلام الأدبي.

فمِثل هذه الأقوال كان هدفها الوصول إلى الطريقة التي يُمكِن بواسطتها أنْ يصبح للنحو العربي "مضمون".

إن هذه المقولات جديرة بأن تكون صُوى يهتدي بها القائمون على تعليم العربية في تصحيح ألسنة الطلاب على وفق مقتضيات التواصل السليم لأنها تحدّد منهجاً واضحاً وطريقة جديدة في العلاج يقوم على نظرية المقام ويمثل شرطاً إضافياً في جعل الأداء اللغوي التربوي فعّالاً وظيفياً.

وخاصة أنّ الدرس اللغوي النحوي في مناهج اللغة العربية ما زال قائماً على أساس نظرية العامل والحركات الإعرابية. وهذا ما أشار إليه نهاد الموسى فقال" وحتى النحو ... لا تستوي له في المناهج المدرسية ماهية منسجمة محددة وهو –لدى الطلبة– أبواب في الفاعل والمفعول به والتمييز والحال.. ركاماً مختلطاً تائهاً"[2].

"فالمناهج الموضوعة لا تعرف لنفسها مبدأ مطرداً ثابتاً تُحكّمه فهي لا تحتكم –مثلاً– إلى مبدأ وظيفي في تصنيف القواعد وفقاً لقيمتها العملية ونسبة شيوعها، وهي لا تنبثق من نظرية في التبويب معروفة"[3] و"غلبة الإعراب على كتب النحو المدرسي واتخاذه منطلقاً في التبويب قد أدى في معظم الكتب المتداولة إلى تمييع صورة التراكيب وتشتيتها، وأسهم في تصعيب المسألة النحوية على التلاميذ"[4].

والذي نراه أنّ تعليم القواعد والتراكيب مقامياً يقتضي توجيه تعليم النحو على نحو يصبح الطلاب معه يجدون أبواباً مستقلة في مقام الاستفهام عن الزمان وعن المكان... وفي مقام النداء ومقام التمني ومقام الأمر وفي مقام النهي. ومعانيها المجازية الناتجة عن اختلاف المقامات –كما قدّمنا– يجدون أبواباً مستقلة للتقديم والتأخير والحذف والتأكيد، كما يجدون أبواباً مستقلة في المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول به فالتدريس النظري لا يعكس علاقة وثيقة تربطه بالاستخدام الفعلي للغة. والدرس الذي يُخطّط في ضوء علم النحو الشكلي لا يُمكن أنْ يُنافس في فائدته الدرس الذي

---

[1] . الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، م4، ع1، 1985م، ص (28).

[2] . مقدمة في علم تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، س1، ع1، 1982، ص (35).

[3] . المصدر السابق، ص (35).

[4] . الأساليب مناهج ونماذج في تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، ص (190).

يُخطَّــط في ضوء تدريس اللغة في مقامات حقيقية ذات دلالة ومعنى لدى الطالب وكيف يتعامل مع هــذه المقامــات في حياته الشخصية والعملية. ولعلّنا لو فعلنا ذلك لجعلنا لِتَعلُّم النحو عندهم، معنى مقامياً اتصالياً تأثيرياً مُقنعاً.[1]

وقد طرح نهاد الموسى أمثلة تُبيِّن كيف يكون المقام الذي تُستعمل فيه اللغة عنصراً ضرورياً في تمام المعرفة بها. ومطلباً أساسياً في إتقان استعمالها.[2]

مِثال:

هَــبْ أنك أردت أنْ تنادي رجلاً اسمه "سعيد"، يعمل "معلما"، ولَدُه الأكبر اسمه "صلاح"، فإننا يمكننا أن نصوغ جملة النداء على أنحاء مختلفة:

فإذا كان المتكلم زميلاً لــ "سعيد" في مثل سنه أو أكبر منه والعلاقة بينهما متينة، فإنه يمكن أنْ يناديه قائلاً: يا سعيد، فإذا كان قريباً منه: ناداه بقوله: سعيد.

فإذا كانت العلاقة بينهما رسمية، أو كان أصغر منه سنّاً فإنّه قد يُستهجن منه أن يناديه قائلاً : يا سعيد، ويكون أليَقَ أنْ يناديَه بكُنيته : يا أبا صالح.

فــإذا كــان تلمــيذاً من تلاميذه ناداه هكذا: يا أستاذ سعيد، أو أستاذ سعيد. ولو أنّ تلميذاً نادى أســتاذه باسمه مجرداً هكذا: سعيد، لما أدرك الأستاذ أنه هو المقصود بالنداء، أو لحَوَّلَ التلميذ إلى مَجْلس تأديبيّ.[3].

والــذي نلاحظه هنا أنّ جُمل النداء السابقة جميعاً صحيحة في ضوء قواعد النظام اللغوي في العربــية وأحكــام الــنداء، في ذِكر الأداة وحذفها، وإعراب المنادى العلم المفرد ببنائه على الضم، وإعراب المنادى المضاف بنصبه بالألف إذا كان من الأسماء الخمسة... الخ.

ولكــنَّ صحة الاستعمال هنا تتوقف على عنصر آخر غير لغوي يتعلق بالمقام الثقافي والمقام الاجتماعي[4].

فالحقــائق المحــيطة باللغة والمتمثلة في وضع المتكلم وسنه وعلاقته بالمخاطب وقُربه منه أو بُعــده عنه والمقام الذي يجري فيه الخطاب يتدخل في استعمالنا للغة وتعتبر مراعاتها شرطاً أساسيا

---

[1] . **الأساليب مناهج ونماذج في تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، ص (191).**
[2] . **اللغة العربية في سياقها الاجتماعي- نهاد الموسى، ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها، ج2، جامعة القدس المفتوحة، ص (61).**
[3] . **المصدر السابق، ص (62).**
[4] . **المصدر السابق، ص (63).**

فـــي حُســـن استعمالنا لها[1]. وعلى هذا فخطاب مَنْ يقاربك في السِّن غير خطاب مَنْ هو أكبر منك سناً، وخطاب القريب غير خطاب الغريب"[2]

ورأى نهـــاد الموســـى أنّ مشكلتنا في عدم إتقان استعمالنا للغة وتعليمها لا تكمن في الدرس الـــنحوي فقط وإنما تمتد في جميع مقررات اللغة العربية. "فبنية –تلك– الكتب ومحتواها كان يعوم ويضـــيع"[3]، حيث كان واضعو مناهج اللغة العربية "يأخذون ببعض المعطيات التربوية والنفسية ولكـــنهم يغفلـــون "بنية اللغة" فتضيع ملامحها، ولا تعود عناصرها متعينة معلومة تسير وفق خطة محسوبة ولا يجري تعليمها على أصل متسق"[4].

فتعليم اللغة لا يتم إلا في ضوء نظرية لغوية[5] فلعلّ النظرية المقامية هي القاعدة العلمية والرؤية الشـــمولية والتي تنبثق من اللغة نفسها، هي التي أراد نهاد الموسى أنْ يصدر عنها واضعو مناهج اللغة العربية ومؤلفو كتبها وراسمو تعليمها[6].

"فالعلاقـــة بيـــن اللغـــة العربية والمحيط الذي تُسْتَعْمَلُ فيه، وكيف يكون وضع المتكلّم، وحال المخاطب والموقف –المقام– الذي تستعمل فيه اللغة من المطالب الضرورية في إتقان استعمالنا للغة وتعليمها"[7].

فقـــد يلتقـــي اثـــنان فـــي أحد مجالس التعزية، ويكونان صديقين قديمين لم يلتقيا منذ زمن، أو يـــتعارف اثـــنان فـــي ذلك المجلس ويأنسُ كلٌّ منهما إلى الآخر، فيقولان عند الوداع مُشيرين إلى ارتـــياحهما لِتَجَدُّد اللقاء، أو للتعارف المستجد: فرصة طيبة، وقد يحدث أن يقولا ذلك بحضور أهل الفقـــيد فتكون العبارة نابية غير موفقة[8]. لأنها لا تناسب مقام التعزية. فخطأ الرجل لم يكن نحوياً أو صرفياً أو نطقياً وإنما مقامياً.

مكتبة الجامعة الأردنية

---

[1] . اللغة العربية في سياقها الاجتماعي- نهاد الموسى، ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها، ج2، جامعة القدس المفتوحة، ص (63).
[2] . المصدر السابق، ص (67).
[3] . مقدمة في علم تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، س1، ع1 ،1982م، ص (36).
[4] . المصدر السابق، ص (38).
[5] . تعليم النحو بين النظرية والتطبيق- تمام حسان، المناهل، ع8، س4، (1397هـ / 1977م)، الرباط، المغرب، ص (114).
[6] . مقدمة في علم تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، س1، ع1982،1م، ص (55).
[7] . اللغة العربية في سياقها الاجتماعي- نهاد الموسى، ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها، ج(2)، جامعة القدس المفتوحة، ص (57).
[8] . المصدر السابق، ص (67).

ولمـــا كانـــت اللغـــة مقامـــات، وأنّ هذه المقامات قد تكون مقامات نفسية كما يمكن أنْ تكون اجتماعـــية أو علمـــية أو أدبية؛ فأقترح أنْ نَطْرَح مبدأ "لكل مقام مقال" في مناهج اللغة العربية من المـــرحلة الابتدائية حتى المرحلة الثانوية. فقد تمّت معالجة المقام من قبل البلاغيين المتأخرين على نحو تقعيدي تعليمي (إذا كان المقام كذا فالمقتضى كذا).

فـــلا بـــد أنْ يتعرَّف الطالب من خلال مناهجه على المقامات التي يكون فيها الإيجاز، والتي يكون فيها الإطناب والإسهاب وفي أيُّها يكون الهَزل وفي أيها يكون الجِّد.

وماذا يقول في مقام الشكر ومقام التهنئة ومقام التعزية وفي مقام الحمد ومقام الشكر وفي مقام الســـؤال ومقـــام الطلب ومقام الأمر ومقام الدعاء وفي مقام الاستعتاب ومقام التودد وماذا يقول في مقام المدح ومقام الفخر ومقام الذم ومقام الهجاء ومقام الترغيب ومقام الترهيب، وماذا يقول في مقام الدعاء والاستعطاف والترجي.

وفـــي أي مقام يستطيع أن يُنشئ الطالب الاستعارة والكناية والتشبيه وكيف يستطيع أن يتعرّف أحوال قائلها من خلال الأساليب البلاغية.

جميع الحقوق محفوظة
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقـــد تُتَّخذ للمبتدئين مثلاً، تدريبات خفيفة مباشرة تجعلهم يستعملون المقال المناسب في المقام المناسب، كما رأى نهاد الموسى في أي المواقف–المقامات– نقول: [1]

- تصبح على خير
- صباح الخير
- شكراً
- عفواً
- هنيئاً
- رحمكم الله
- أحسنت
- لا بأس
- كل عام وأنتم بخير
- الحمد لله على السلامة
- إلى اللقاء ... الخ

---

[1] . **اللغة العربية في سياقها الاجتماعي- نهاد الموسى، ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها، ج2، جامعة القدس المفتوحة، ص (95).**

فمـــن خلال تعليم اللغة مقامياً يكتسب الطالب من اللغة ما يكفيه لاستعمالها استعمالاً صحيحاً نطقـــاً وأبنـــية ومفـــردات، وتراكيب، وأعاريب، وتعبيرية في الأداء وبياناً عن المعاني[1]. فيستطيع الطالب أنْ يُقدّم نفسه إلى مجتمع جديد تقديماً واضحاً، وأن يكتب عن نفسه فقرتين أو ثلاثاً –دون عناء عند تخرجه– حين يتقدم بطلب إلى إحدى الشركات، يطلب عملاً[2].

بـــل إنّ تعلـــيم اللغة مقامياً سيحل إشكالية فصل اللفظ عن معناه والتي هي"أحد أبرز المظاهر الســـلبية التي تهتز بها صورة التحصيل اللغوي لدى الطالب العربي"[3]. فاللفظ والمعنى لا يمكن أنْ يســـمو أحدهما دون سمو الآخر، فالألفاظ عناوين معانيها. ففي ضوء المقام لا بُد من ظهور هذين العنصرين معاً في كل مقام من مقامات تعليم اللغة.

وتعلـــيم اللغة مقاميا سيسوق المفردات الجديدة في دروس اللغة العربية في مقامها المناسب لها فـــلا تخرجن كلمة حتى يعرف المتكلم مقامها فيختار اللفظ الذي هو "أخص به وأكشف عنه وأتم له" وبالتالـــي فإننا عندما نقول عن شخص إنه يعرف معنى كلمة ما، فإننا نعني أنّ هذا الشخص يعرف كيف يستخدم هذه الكلمة في مقام معين، ويجعلها جزءاً من معجمه اللغوي يستحضرها مع كل مقام جديد، فهذا الاستخدام هو الذي يحدد معناها.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وإذن يســـتقيم لنا أن نتخذ لمناهج اللغة العربية شعاراً يمثل "عنواناً" في مثل مقام استعماله لدى أهل الزمان: لا تسأل عن معنى الكلمة أو الجملة وإنما اسأل عن المقام الذي قيلت فيه.

ولعـــلّ تعلـــيم المفـــردات اللغوية مقامياً سينأى بأبناء العربية كما يقول نهاد الموسى –عن أنْ يســـتعملوا الألفاظ "استعمالاً فضفاضاً عائماً،...، يهدر ما يكون لكل لفظ من خصوصية، وظلال لا يشركه فيها لفظٌ آخر"[4].

ولمّـــا كان من منهجية الدراسة أنْ تقوم على مفهوم يقضي بأنّ اللغة ينبغي أنْ تُدرس على أنها أداة تأثير إلى جانب وظيفتها التعبيرية والتواصلية، كان لا بُدّ أنْ نعتمد المقام وما يجب أن يُقال فيه لبلوغ هذا الهدف.

---

[1] . **اللغة العربية في سياقها الاجتماعي- نهاد الموسى، ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها، ج(2)، جامعة القدس المفتوحة، ص (69).**
[2] . **المصدر السابق، ص (96).**
[3] . **مقدمة في علم تعليم اللغة العربية- نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، س1، ع1، 1982م، ص (49).**
[4] . **المصدر السابق، ص (52).**

وأخيراً نقول إن تعليم اللغة مقامياً طموح يسهل مناله والتكامل معه عند جعل المقام أداة تربوية طيعة بيد المدرسين والطلبة. ومن ثم نأخذ على عاتقنا تطويره ليصبح أكثر ملائمة لمعالجة المشاكل اللغوية.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ونسأل الآن

ماذا يمكن للبراغماتية المقامية أن تَهبَ خطابنا المعاصر ؟

هل تستطيع البراغماتية المقامية أنْ تقود عمليات التغيير والتحديث في خطابنا ؟

فنحـــن نـــدرك بحـــس طبيعـــي أن المتكلم العربي بحاجة إلى صياغة خطاب ملائم للمرحلة التاريخية التي يعيشها، ومناسب من الزاوية اللسانية، خاصة بعد أنْ أضحى التداخل المعرفي السمة اللازمـــة للمعـــرفة الراهنة، وأصبح العالم يعيش مفهوم "القرية الكونية" و مفهوم "عصر السماوات المفتوحة".

فهـــذا التداخل والتواشج أثْرا بصفة بالغة على مفهوم المقام، ودوره في علم الخطاب حيث أنّ المتكلم العربي صار مُطالباً بأنْ يكون أكثر معرفة من غيره بالعديد من الاستراتيجيات والمعارف وطـــرق أســـاليب إجـــراء القول في مختلف المقامات والظروف وأمام تَغَيُّر المخاطبين وأحوالهم. فالمقـــام الخطابـــي قد اتسع، والمخاطبون تعدّدت القيم المشكّلة لوعيهم ولوجهات نظرهم. وتغيرت أحوالهـــم وتعدّدت مصادر المعرفة لديهم والخطاب من غير مُتَلق يتذوقه، ويتأثر به ويتمثّله لا قيمة له، بل لعلّ المتلقي هو المحدّد الوحيد لصوغ الخطاب.

فالخطـــاب لا تكون عناصره مجرد إجراءات تهدف إلى الوصول إلى أذهان مستمعيه بأي ثمن أو بـــأي وسيلة، فكل خطاب معاصر يسعى إلى تغيير وضْع معيّن، أو تدعيم آخر، أو اتخاذ موقف تجـــاه قضـــية مـــا. وكل هذه الاعتبارات تتطلب تغيير الشكل والأسلوب في كل مرة تبعاً لمجموع الشروط الخارجية المؤطرة لعملية إنتاج الخطاب.

فلا تواصلَ ممكنٌ إذا كان الخطاب مجرد عبارات لغوية لا ينتظمها جامع مقامي.

ولا تأثـــير ممكـــنٌ إذا لـــم يراع أحوال مخاطبيه النفسية والاجتماعية من جهة ومستوياتهم الثقافية والمعرفية والإدراكية من جهة أخرى في كل مرة، فَهُم مَنْ يقنصون العبارة العذبة، وهُم مَنْ نتوجه إليهم بخطابنا.

ولم تعد اللغة مجرد أداة للتعبير والتواصل والتخاطب، وإنما أصبحت اللغة وسيلتنا للتأثير على العـــالم. ومقام الكلام هو الذي ينتج تأثيراً خاصاً في عقل المتلقي. فالكلام في غير مقامه وفي غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به.

لهـــذا لا بُـــد للمتكلم من تحري التعبير ولا يكتفي بأنْ يتطلّع في كلامه إلى التعبير المفهم عن غرضـــه فما يُميّز متكلم من آخر ليس القيم التي يسلّم بها بقدر ما يتميز بالطريقة التي يُقدم بها تلك

القيم، فيزداد المعنى المقصود في نفس متلقيه ألقاً وارتفاعاً أو فقراً وانحطاطاً من خلال هذه الطريقة أو الأسلوب الذي سوف يقدمه في المقام المناسب. لأنّ الخطاب سيكون قد بلغ ذروته التأثيرية والإقناعية التي تسمح للمتكلم عندها الانسحاب تاركاً للمتلقين الحرية في تشكيل قناعاتهم ورؤاهم.

باختصار : إنّ مراعاة المقام تُكسب المتكلم القدرة على التأثير ويوفر له شرطاً مهما من شروط الخطاب، ويَضمن له سلامة الطرح وكل خطاب لا تأثير فيه فهو خطاب عَدَميّ !

لهذا فإنّ خير منهج نتّبعه هو فتح البلاغة العربية على العلوم المعرفية المعاصرة خاصة علوم الاتصال (المرئية والمسموعة) وإعادة قراءة الموروث البلاغي ضمن شروطنا الحضارية المعاصرة وتطعيمها بالنظريات اللسانية الحديثة خصوصاً البراغماتية. وتسليط الضوء أكثر على مقولتهم (لكل مقام مقال) ثم الاهتمام أكثر بالمتلقي وبرؤاه المستقبلية وتوجهاته الراهنة وكذلك بمتغيراته النفسية والاجتماعية والمعرفية التي تحكم نسقه الاعتقادي وتحركاته الفعلية. فهذا أمر ضروري ومُلِح نظراً لما تحمله بلاغتنا العربية داخل طبقاتها من ثراء وفكر.

فإعادة وضع موضوع البلاغة بصورتها الحية إلى جانب القواعد يمكن أنْ يُسهم في بناء تَلَقّ جديد ومثمر للخطاب العربي. وللثقافة العربية بمختلف فروعها. فالأمة إذا أحسنت خطابها تُقبل عليك.

وأخيراً نقول : لم يَعُد بوسعنا إهمال القضايا المقامية البراغماتية والعلاقات القائمة بين المتكلمين والمتلقين؛ لأنّ المقام خير آلية يتسلّح بها المثقفون والمفكرون والسياسيون .. الخ

في عصرنا الحاضر، من أجل تبرير مواقفهم وتمرير خطاباتهم. والتحضّر اللائق للمقام بجميع أشكاله من أهم المراحل الخاصة في بناء أول جسور التواصل المقنع بينهم وبين متلقيهم. فَضْلاً عن أنه سيهيء المتلقين أكثر للانخراط في الطرح.

ونشير هنا إلى أنّ الخطاب المعاصر مطلوب منه تحسين أسلوبه وتجميل عبارته من خلال السعي إلى امتلاك ثقافة بلاغية كما امتلكها الخطاب العربي القديم، حيث كان خطاب بيان وبلاغة وشعر يعتمد وسائل عديدة من الإيقاع الموسيقي والصورة البيانية وتحسين الكلام بواسطة المحسنات البديعية من سجع وطباق وجناس.

وفي الوقت نفسه يُطلب من المجتمع أن يتحّسن لغوياً وثقافياً، وأنْ يطور من آلياته المعرفية وأنماطه الحضارية فهذا سيؤدي حتماً إلى رفع مستويات متكلميه ومتلقيه وإجادتهم فنّ القول. ومنه يصبح المجتمع قادراً على خلق قراء ومتلقين مؤهلين فكرياً ومعرفياً لتلقي (شفرات) خطابه.

وعندها يصبح خطاب الإنسان العربي في مستوى الألسنة واللغات والحضارات القائمة.

وحسبُنا في هذا المقام أن نذكر كتاب الحجَّاج إلى عبد الملك بن مروان: بنى عبد الملك بن مروان باباً من أبواب المسجد الأقصى بالبيت المقدس، وبنى الحَجَّاج باباً إلى جانبه، فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك. فتطيَّر لذلك: وشق عليه. فبلغ ذلك الحجّاج، فكتب إليه كتاباً : "بلغني كذا وكذا، فليهنأ أمير المؤمنين؛ أنّ الله تقبّل منه، وما مثلي ومثله إلا كابني آدم إذ قرَّبا قُربانا فتُقبّل من أحدهما، ولم يُتقبّل من الآخر" فلما وقف عبد الملك على كتابه سُري عنه[1].

وهذا معنى غريب استخرجه الحجّاج من القرآن الكريم استطاع من خلاله أن يُصوّر حالاً جديدة، وهو من المعاني المناسبة واللائقة في مثل ذلك الموقف.

فثقافة الحجّاج –المتكلم– العالية بمعاني القرآن أمدّته بمثل القول الذي قاله. وفي الوقت نفسه ثقافة عبد الملك –المتلقي– عالية لأنه فهم مقصد الحجاج فسُرّي عنه.

فنحن بحاجة إلى متكلم ومتلقّ ببلاغة الحجّاج وعبد الملك بن مروان.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

[1]. **المثل السائر- ابن الأثير، م1، ص (309).**

خاتمة

وهكذا تُشكل فكرتا "مقتضى الحال" و "المقام" عند علماء العرب القدماء منطلقاً في إعادة النظر في الدراسات النحوية والبلاغية والنقدية الأدبية، تخلص إلى صياغة نظرية جامعة هي "النظرية المقامية".

فليس جمع هذه الفصول تحت نظرية مقامية جمعاً تعسفياً نظرياً توجهه ثقافة مرتبكة، بقدر ما هو وعْي عملي بقوة هذه النظرية وإمكانية تحويلها إلى نسق شمولي تقرأ الثقافة العربية بمختلف تفرعاتها والخطاب العربي وإعطاء فعل القراءة مناخاً جديداً يتنفس داخلها، تحثنا على أنْ ننقل البحث في المعنى من ساحة الألفاظ والتراكيب وما يتعلق بها إلى ساحة المقام وما يجب أو يحسن أنْ يُقال فيه.

وقد حاولت هذه الدراسة أنْ لا تقع في مجال العرض والتقديم والترجمة للنظرية البراغماتية ضمن سياقات ومقامات ونصوص عربية، فما جاء به سيبويه وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي يمكننا الإفادة منه في تطوير نظرية مقامية يمكن أن تكون استمراراً للبراغماتية عند الغرب.

فكان من أبرز ما انتهت إليه هذه الدراسة من نتائج أنها كشفت لنا عن ثراء المنحى المقامي البراغماتي في مباحث اللغة العربية:

* أنّ البراغماتية: دراسة العلاقات بين اللغة والمقام، تلك العلاقات القائمة على فهم اللغة، فَفَهْمْ لفظة يتطلب أكثر من مجرد معرفة معاني الكلمات الملفوظة في تركيب. فقبْل كل شيء فَهْمُ لفظة يتطلب الاستنتاج الذي يربط ما يُقال بما يفترض أن يعني أو بما قيل من قبل: أو بعبارة أخرى إنّ فهم لفظة يتطلب: معرفة قصد المتكلم ومعرفة الظروف المحيطة بالكلام وحال المتكلم. فالمتكلم يراعي حال السامع على مستويين:

1. مستوى المقام وهو مستوى ثابت أي أن الإنسان يكون دائماً في مقام واحد منها. والمقام هنا إما مستواه الاجتماعي أو العقلي أو الخُلقُي.
2. مستوى الحال وهو مستوى عارض يأتي ويذهب، والحال شعور نفساني وأمزجة لا سيطرة للإنسان عليها، إلا أن القلب يصل إليها بالذوق من غير أن يكون له قدرة على جلبها أو دفعها، وتكون هذه الأحوال عادة متقابلة فهنالك حال الفرح والحزن وحال الرجاء والخوف ..الخ.

وقد كان الحال والمقام مرتكزان من مرتكزين العرب القدماء في الدراسة يمثلان منهجاً شاملاً متكاملاً.

* فاللغـــة بمفرداتها وعباراتها وجملها لا تكمن عند الإنسان في نهاية الأمر في مجرد كونها نسقاً صـــورياً وتركيبـــياً ودلالياً ... إنها مجموع ما يصاحبها من ظروف وملابسات وأحوال ومقامات تكـــون حاضـــرة فـــي كل تواصل بين الأفراد كالضحك والبكاء والإشارة بجميع أشكالها: كالتعبير بحركات الرأس وملامح الوجه .. فالكلام فضاء مفتوح على كل التأويلات بدون المقام الذي قيل فيه لهذا لا بد من معرفته حتى يحيلنا على قراءة المعنى.

* والأســـاليب البلاغية هي أفانين في التعبير توفرها اللغة للمتكلم، والمقام هو المدخل الرئيسي في دراســـة هـــذه الأساليب والمفتاح الصحيح للكشف عن خصائصها، فالتفاوت بين هذه الأساليب ليس تفاوتاً في بناء اللغة وإنما هو تفاوت في درجة التفكير وعمق الرؤية، بل هي مواقف خاصة فكرية واجتماعـــية وســـلوكية تصـــوغ حالة يعيشها الكاتب أو الشاعر أو يقفها حيال الأشياء. وهي أصلاً أســـاليبُ للإبلاغ والتبليغ كما أنها تشكل دعامة أساسية من دعائم التأثير والإمتاع والإفهام والإقناع؛ فهي تثير المشاعر وتمتع القلوب وتلمس الأحاسيس وتشد الأسماع وتستميل النفوس، كما يصدق هذا علـــى البديع الذي يهتم بمقام تحسين الكلام وتزيينه؛ فالجمال الذي يوجد في الاستعارة والكناية من حيـــث دقة التعبير ولطفه لا يقل عن الجمال الذي يوجد في الطباق والجناس. والبديع قبل كل شيء تفكير نقدي حول الطريق الذي يجب أنْ يمر به الشاعر أو الخطيب أو الكاتب للوصول إلى الإبداع الفني. ودراسة البديع مقامياً سيُظهره لنا من خلال بعدين:

1. بُعد تحسين المعنى.

2. بُعد تزيين اللفظ.

ومـــن هـــنا تكـــون للمتلقي لذتان: الأولى دلالية إذ يلتقط المعنى المخفيّ وراء تشابك صوتي شكلي. والثانية: صوتية موسيقية يُحدثها التناغم الذي يوجده السجع والجناس... .

وإذن يصح تَعلُّم أساليب البيان والبديع مقامياً، فهي الوسيلة الفضلى لمعرفة القصد أو بلوغه، فهـــي تقـــدم لنا نوعية خاصة من المعرفة ، معرفة تجعل الإنسان يمزج الإدراك العقلي بالإحساس وهي أرفع مستويات الخطاب اللغوي، تؤدي في النهاية إلى انتهاض المتلقي بالعمل والتغيير.

* والـــنحاة الأولـــون لم يقفوا بالنحو عند تغير أواخر الكلام لتغير العوامل بل كانوا يفاضلون بين الأساليب ويبينون لكل تركيب موضعه ودرجته ومقامه، فغاية النحو لا تقتصر على معرفة الصواب

والخطـــأ في ضبط أواخر الكلمات فقط بل صارت مهمة النحو الربط بين المعنى المراد والمقام في ضوء النظرية المقامية، بل إنّ كثيراً من دروس النحو لا يمكننا فهم خواصها التركيبية وتمييزها إلا بـــربطها بمقامهـــا التـــي توظف فيه من مثل : درس النداء، والاستفهام والنهي، والأمر والضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة... فكان نحو المقام إلى جانب نحو الإعراب.

على أنّ هذا التمييز بين نحو اللغة ونحو المقام لا يُفضي إلى القطيعة بينهما، ولا شك أنّ كل منهما مكمـــل للآخـــر، فرغم هذا الاختلاف فهما متضامنان؛ فنحو المقام هو الغرض المقصود الذي أراد المتكلم أنْ يتحدث عنه، وهذه الأغراض لا يُعبر عنها إلا من خلال اللغة والألفاظ وضبط أواخرها. ناهـــيك عـــن أنّ قوانيـــن الـــنحو في جوهرها قواعد ذهنية وعادات عقلية تصف مزاج أهل اللغة، وطرائقهم في التفكر، وبذلك نستطيع معرفة أحوال الأمة العقلية والروحية من نظامها النحوي.

* والمقـــام الحضاري في مرحلة ما من مراحله التاريخية هو الذي يولد أشكال الأدب: من (شعر وخطابـــة ورســـالة)، ويدفع المتلقي إلى التجاوب معها واستيعابها باعتبارها نتاجاً من نتاجات تلك اللحظة الحضارية، فالمقام عملية تاريخية حضارية ثقافية اجتماعية دينية تثير المبدع والمتلقي على السواء ويُفرَض عليهما–بوعي أو بغير وعي منهما– استجابة لمقتضياته وانخراطاً فيه.

فبراغماتـــية الشـــعر تظهر من خلال أنّ الشعر يختلف في نفس قائله بحسب اختلاف أنماطه وطـــرقه، ويخـــتلف بحســـب اختلاف الزمان وما يوجد فيه مما شأن القول الشعريّ أن يتعلّق به. ويختلف بحسب اختلاف الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف أو يختلف بحسب الأحوال وما تصلح له وما يليق بها وما تحمل عليه، ويختلف بحسب اختلاف الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعانـــي، ويخـــتلف بحسب ما تختص به كل أمة من اللغة المتعارفة عندها الجارية على ألسنتها. وجملـــة الأمر في ذلك أن الشاعر أو الكاتب أو المتكلم ينظر إلى الحال الحاضرة، ثم يستنبط لها ما يناســـبها مـــن المعانـــي؛ فمصدر أدبية الأغراض الشعرية نابع من ضرورة الملاءمة بين الغرض الشـــعري والألفـــاظ المستخدمة، فالأدبية في هذا الموضع تقتضي لفظاً ملائماً للمقام، وتتجلى أدبية المطالع، مثلا، من خلال مراعاة الشاعر آداب مجالس الملوك وأحوالهم النفسية ومناسبات القول.

والشـــيء نفسه يقال على الخطابة والرسالة، فللشعر والخطابة والرسالة اعتبارات في الأزمنة والأمكـــنة والأحوال؛ فالنصوص لا تسري داخل وعاء مغلق، بل داخل مقام من العوامل المختلفة. وبالتالـــي لا يمكـــن تلقي الأدب العربي القديم كمقام إنتاجي وحيد منسجم، بل ينبغي مراعاة مقاماته المرتبطة بالظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك لهذا كان من الضروري إعادة

الـــنظر في تاريخ الأدب وفي تلقيه، وبالتالي ضرورة تطويره في إطار نسق جديد لتعدد القراءات، ومراعاة مختلف المقامات الخاصة بالزمن وبطبيعة المتلقين وبتصوراتهم فهذا سيسهم في بناء تلق جديد ومثمر للخطاب العربي وللثقافة العربية بمختلف تفرعاتها.

* والبراغماتية المقامية تشكل مدخلاً هاماً لدراسة بعض القضايا مثل الأمثال والنكت دون الالتفات إلى أصولها اللغوية، أو علاقاتها الاشتقاقية، أو تغيراتها الصوتية. فالمثل يعبر عن معنى خاص وقع فـــي مقـــام يتكرر حدوثه بين الناس ثم يستعملون تلك الكلمات نفسها عندما تأتي مناسبة تشبه المقام الـــذي قيل فيه تلك الكلمات لأول مرة. فيُتمثّل به بسبب إصابة قائله في المعنى واللفظ، ويضمنونه كلامهـــم بنية الاحتجاج والاستدلال والاختصار والتزيين، فهي أقنع للمتلقي وأوقع في نفسه وأشفى لغلـــيله، وتؤدي جمالاً وسحراً وروعة وخلابة. ومن ناحية أخرى تظهر براغماتية الأمثال في أنها مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب حالهم تكون أمثالهم.

وتقوم النكتة على مقام المفارقة أو مقام المفاجأة ووضع الشيء في غير موضعه وقول الشيء فـــي غـــير مقامـــه، فالنكـــتة تفاجئك: بفعل أو قول في غير مقامه، فيحدث الضحك من جراء هذا الانـــتقال، وتتفاوت الأسباب الداعية إلى الضحك قوة وضعفاً بحسب مقدار اتساع المفارقة ومعرفة المقام الثقافي، فكلما اتسعت المفارقة والمعرفة ازدادت حدة الرغبة في الضحك ضعفاً وإلحاحاً.

والـــنفس الإنســـانية مجبولة على التماس مراح الحياة، بعد الانتهاء من ساعات جدّها اليومي، والخلو إلى طلب الترفيه وضحكة تروح عن القلب وتذهب العبوس، والنكات مرآة صافية برزت من خلالها أحوال المجتمعات وتجسدت فيها القيم الاجتماعية والثقافية والحضارية.

وللكلام شروط خاصة فالكلام ليس مجرد "كلام" فخطاب الرسول ρ إلى أصحابه، والأب إلى أبنائه والمعلم إلى تلميذه لا يتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة. فالأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية والدينية والثقافية، ثم إن وصفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام غير مؤدب يُعتبر وصفاً جمالياً أخلاقياً نابعاً من اعتقاداتنا الاجتماعية والدينية.

والعـــبارة التأديبية إنما جاءت لتلائم بين حاجات الفرد وضروراته وبين حاجات مجتمع وضروراته فتوفق بين الفرد والمجتمع، والفرد والبيئة والفرد والتقاليد وموازين الأخلاق والقيم وتمكّن الانسجام بين الفرد والبيئة المادية والبيئة الأدبية والروحية.

فخطاب النبي ρ إلى الإنسان خطاب بليغ خالد يتعالى على الزمان والمكان والعرق والحضارة وهـــو خطـــاب يســـتوعب "العصور المعرفية" لحضارة النوع الإنسانية قاطبة إلى يوم القيامة وهو

خطـــاب يراعي أحوال سامعيه ومقاماتهم. فأذكار النبي ρ وأحاديثه تعبير لساني أديب عن إحساس القلـــب عن كل مقام من مقامات الحياة، والاهتمام بقول هذه العبارات في مقامها اللائق بها إنما هو للوصـــول إلى ما نسميه بتنفيذ المقال واجتيازه الأطر القولية والسمعية إلى التأثير والفعل والتغيير. فـــترداد الأذكـــار على ألسنتنا تجعلنا براغماتيين حيوياً وتلقائياً لأننا نعيش قيمة هذه الأذكار بنتائج تأثيرها علينا إن لم يكن بنتائجها الفعلية؛ فهي تذكار دائم بآداب عُلْويّة.

أمـــا خطاب الأب إلى أبنائه في وصاياه: فهو خطاب يجمعه هَمّ مشترك هو الرضا والإيمان. وهـــو خطـــاب يتضمن حكماً وأخباراً؛ أخباراً تدور حول شؤون الدنيا، وحكمة هي خلاصة الثمرة الفكـــرية والاجتماعية التي اكتسبها الأب في حياته. وهو خطاب أمر من أب لأبنائه، وأسلوب الأمر لا يُقـــبل قوله ولا يُنفذ أمره، ولا تأثير له في النفس ولا وقع له إلا من خلال معرفة المقام الذي قيل فيه ومعرفة حال قائله، ففعل الأمر يحسُن في موضع خطاب من هو أعلى سلطة (الأب) ويقبح في موضع مَن هو أقل سلطة (الابن) ومن هنا تظهر براغماتية أسلوب الأمر وبراغماتية هذا الخطاب. وتظهـــر مـــن خـــلال هدفهـــا الأول والمباشر: أن يحثوا العقول على فعل، ناهيك عن أنّ مثل هذا الخطاب (خطاب الأب لابنه) يُعطي المتلقي إمكان الإحساس بالثقة في المتكلم وخاصة عندما يُسْبَق بأسلوب التحبب –أسلوب النداء– (يا بَنيّ).

وخطاب المعلم إلى تلميذه: يحرص التلميذ في خطابه مع معلمه على مراعاة مقام معلمه العلمي ومـــراعاة حالـــه فلا يخاطبه إلا بما يليق به وبمقامه. وخطاب المعلم لتلميذه خطاب نصيحة ووعظ وإرشـــاد وهو خطاب تتعاقب فيه التعابير تارة بالطلب، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالخبر. ومثل هـــذه الأســـاليب لا نستطيع أن نفهم دلالتها الوعظية والإرشادية إلا من خلال المقام الذي قيلت فيه ومعـــرفة حـــال متكلمها فهذا خطاب موجه من معلم إلى تلميذ: أي هو خطاب من مقام علمي أعلى إلـــى مقام أدنى معرفة وعُرْفاً، ومن مقام رجل يصلح الاقتداء به إلى تلميذ يطلب النصيحة. وتظهر براغماتية هذا الخطاب أيضاً في أنه خطاب يتضمن أحياناً نفياً ونهياً لأنه يريد أن يبني عالماً مثالياً.

وأخيراً خرجنا من هذا الفصل بنوعين من العبارات التأديبية:

1. عـــبارات تأديبـــية ارتبطـــت بمبادئ وسنن في المخاطبات مثل خطاب المعلم وتلاميذه –ذكرها مختصـــون مـــتى خالفهـــا مُخالف نسبوه إلى قلّة الفهم ونقص العلم، ومثل هذه العبارات تتغير من عصر إلى عصر.

2. عــبارات تأديبــية تتخطى الزمان والمكان، وهي أذكار رسول الله ρ وأحاديثه. وهكذا فالعبارة التأديبية تخضع لـــ (المتلقي، والسنن والقوانين، والمتكلم).

* وقد اكتسبت (فكرة مقتضى الحال) ومقولة (لكل مقام مقال) في القديم طابعاً تعليمياً؛ لما للمقام من أهمية في معرفة أسرار التراكيب اللغوية وأحوال المخاطبين والدور الذي يلعبه في تشكيل المعنى. لهــذا جــاءت هذه الدراسة تدعو إلى إمكانية تطبيق نتائجها في مجال التعليم بإعادة إنتاج الخطاب الــتربوي مقامــياً وأن تُولــي المناهج المدرسية المقام عنايتها خاصة أنّنا نشكو من ضعف مستوى متعلمــي اللغة العربية واضطراب تراكيبها وأعاريبها على ألسنة أبنائها وأقلامهم. فجيلنا المعاصر يحــتاج إلى فلسفة لغوية جديدة، يُجيد فيها فنّ القول واستخدام اللغة استخداماً صحيحاً، فيستطيع أن يتحدّث بكلام بليغ في كل مناسبة مقتضاة وفي كل مقام يجد نفسه فيه، فمناهج اللغة العربية ما زالت تعتــبر اللغة مجموعاً من المفردات وقواعد نحوية وصرفية تنطلق منها فتسرع في تحفيظ الطلاب القواعد النحوية والصرفية الحاضرة؛ ومع هذا فعفوية التعبير بطريقة سليمة لا تزال حقيقة شاخصة فــي حياة معظم الناس لهذا لا بد من استثمار النظرية المقامية لمعالجة مثل هذه المشاكل اللغوية في إصلاح وتعديل مناهج اللغة العربية ثم نأخذ على عاتقنا تطويرها وفقاً لهذا المطلب الحيوي، ولتنمية الحــس والجمال والتأثير والإمتاع والإقناع لأنها ستساهم في انتقال اللغة من (الميدان الحفظي) إلى (المــيدان التواصلي) ناهيك عن أنّ تعليم اللغة مقامياً أقوى حضوراً وأقدر على الاستجابة لمتطلبات العصر.

في كل المقولات الأدبية والنقدية والبلاغية والنحوية كان المتلقي حاضراً والاهتمام به متزايداً ومطــرداً. وكانت الغاية به وبطبقاته ومستوياته فائقة وكبيرة، فعلى المتكلم إذا أراد أنْ يكون خطابه منســجماً مــع مســتوى متلقــيه؛ عليه أن يعي أولاً مقام متلقيه وأحوالهم من جهة ثانية فالمقامية البراغماتية تستخدم أنظمة اتصال لتسويق الخطاب الجديد من أجل خطاب ناجح وناجع معاً وللحفاظ على ميثاق التواصل بين المتكلمين والمعنيين.

لــم تعد اللغة مجرد أداة للتعبير والتواصل والتخاطب، وإنما أصبحت اللغة وسيلتنا للتأثير على العــالم، ومقام الكلام هو الذي ينتج تأثيراً خاصاً في عقل المتلقي. فالكلام في غير مقامه وفي غير حيــنه لا يقع موقع الانتفاع به. لهذا فالخطاب المعاصر مطلوب منه تحسين أسلوبه وتجميل عبارته من خلال السعي إلى امتلاك ثقافة بلاغية كما امتلكها الخطاب العربي القديم وفي الوقت نفسه يُطلب مــن المجــتمع أن يتحسّن لغوياً وثقافياً، وأنْ يطور من آلياته المعرفية وأنماطه الحضارية ويبلور

أفكـــاره ويصـــوغ معانـــيه في صورة لفظية مطاوعة للمعنى منسجمة معه. وعندها يصبح خطاب الإنسان العربي في مستوى الألسنة واللغات والحضارات القائمة.

هذه هي بشكل مجمل "المقامية" التي طرحها العرب المتقدمون حاولنا من خلال ما طرحناه في هذه الدراسة عنها أن نُبيّن بعض صلاتها بالبراغماتية.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المصادر والمراجع:

- إبراهيم سلامة – **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط**2**، (**1371**هـ/**1952**م).
- إبراهيم بن المدبر – **الرسالة العذراء**، تحقيق زكي مبارك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط**1**، (**1350**هـ/**1931**م).
- إبراهيم مصطفى– **إحياء النحو**، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، (**1937**م).
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت **850**هـ) – **المستطرف في كل فن مستظرف**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد (ت **637**هـ) – المثل **السائر في أدب الكاتب والشاعر**، حققه وعلّق عليه محمد محمد عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1419**هـ/ **1998**م).
- أحمد الطريسي – **تحليل الخطاب الشعري "من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب"**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط**1**، (**1987**م).
- أحمد عطية الله – **سيكولوجية الضحك**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (**1947**م).
- أحمد المتوكل – **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دار الثقافة، ط**1**، (**1405**هـ/ **1985**م).
- أحمد محمد الحوفي – **الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها**، مكتبة نهضة مصر بالفجالة (**1375**هـ/**1956**م).
- أحمد مطلوب – **البلاغة عند السكاكي**، مكتبة النهضة، بغداد، (**1964**م).
- امرؤ القيس، حندج بن حجر (ت **180**ق.هـ) – **ديوان امرئ القيس**، دار صادر، بيروت، (**1377**هـ/ **1958**م).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم (ت **256**هـ) – **صحيح البخاري**، القاهرة، مطبعة بولاق (**1893**م).

- بشير يموت– **شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام**، المكتبة الأهلية، بيروت، ط**1**، (**1352**هـ/**1934**م).
- البكري، أبو عبيد الأوبني – **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**، حققه وقدّم له إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (**1391**هـ/ **1971**م).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت **279**هـ) – **جامع الترمذي**، مراجعة صالح بن عبد العزيز بن محمد، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.
- تمام حسان – **اللغة العربية معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط**3**، **1985**م.
- التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (ت **400**هـ):
  - **المقابسات** – تحقيق وتعليق حسن السَّندوبي، دار المعارف، سوسة، تونس، ط**1**، **1991**م.
  - **الإمتاع والمؤانسة** – أحمد أمين، أحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت **429**هـ):
  - **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق وشرح وفهرسة قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط**1**، (**2003**م).
  - **التمثيل والمحاضرة**، تحقيق وشرح وفهرسة قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط**1**،(**2003**م).
- جابر عصفور:
  - **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط**3**، (**1992**م).
  - **مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، (**1978**م).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت **255**هـ):

– **البخلاء**، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجري، دار المعارف، مصر، (**1958**م).

– **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، ط**2**، (**1380**هـ/ **1960**م).

– **التاج في أخلاق الملوك**، تحقيق ونشر دار الفكر، بيروت، (**1375**هـ/ **1955**م).

– **رسالة التربيع والتدوير**، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت،

– الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت **471**هـ):

– **أسرار البلاغة**، تحقيق هـ.ريتر، استانبول، وزارة المعارف، ط**2**، (**1954**م).

– **دلائل الإعجاز**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1422**هـ/ **2001**م).

– الجرجاني، علي بن محمد (ت **816** هـ) – **التعريفات**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (**1357**هـ/ **1938**م).

– الجرجاني، القاضي أبو العباس أحمد بن محمد الثقفي (ت**482**هـ) – **المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء** ويليه كتاب **الكناية والتعريض الثعالبي**، تصحيح محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط**1**، (**1326**هـ/ **1908**م).

– جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت **319**هـ) – **نقد الشعر**، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، مكتبة المثنى بغداد، (**1963**م).

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت **392**هـ) – **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (**1371**هـ/ **1952**م).

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت **597** هـ) – **أخبار الحمقى والمغفلين**، دار زاهد القدسي، القاهرة.

- أبو حاتم السجستاني، سهل بن محمد بن عثمان (**864** م) – **المعمرون والوصايا**، تحقيق عبد المنعم عامر، دار الكتب العربية، (**1961**م).

- حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن (ت **1285**م) – **منهاج البلغاء وسـراج الأدبـاء**، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط**3**، (**1986**م).
- حمـادي صمود – **التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس**، منشورات كلية الآداب، منوبة، ط**2**، **1994**م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت **808** هـ)– **مقدمة ابن خلدون**، طبعة دار الشعب.
- أبـو داود، سـليمان بـن الأشعث السجستاني (ت **275**هـ) – **سنن أبي داود**، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (ت **502**هـ):
– **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، حققه وضبط نصوصه وعلق حواشيه عمر الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان (**1420**هـ/ **1999**م).
– **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق نديم مرعَشلي، دار الكاتب العربي، (**1392**هـ/ **1972**م).
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت **463**هـ) – **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**2**، (**1422**هـ/ **2001**م).
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت **384**هـ) – **النكت في إعجاز القرآن** "**ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز**"، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة.
- زكـريا إبراهـيم – **سيكولوجية الفكاهة والضحك**، مكتبة مصر، الفجالة، دار مصر للطباعة، د.ت.
- الزمخشـري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت **538**هـ) – **الكشاف** ، تحقيق وتعلـيق ودراسـة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، وشارك في تحقيقه فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط**1**، (**1418**هـ/ **1998** م).

- السّــبكي، بهــاء الدين أبو حامد أحمد بن علي (ت **773**هــ) – **عروس الأفراح في شــرح تلخيص المفتاح**، تحقيق خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط**1**، (**1422**هــ/ **2001**م).
- سعد مصلوح:
  – **العربية من نحو الجملة إلى نحو النص**، "**ضمن الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية**"، جامعة الكويت (دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون معلماً ومؤلفاً ومحققاً)، إعداد وديعة طه النجم، وعبده بدوي، (**1410**هــ**1990**م).
  – **مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية**، "**ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي**"، ع **59**، المجلد الآخر، النادي الأدبي الثقافي بجدة، (**1990**م).
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي (ت **626**هــ)– **مفتاح العلوم**، حققه وقــدّم له وفهرســه عــبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1420**هــ/ **2000**م).
- ســيبويه، عمــرو بن قنبر (ت **180**هــ) – **الكتاب**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت **911**هــ):
  – **الإتقان في علوم القرآن**، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
  – **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر، مصر.
- شاكر عبد الحميد – **الفكاهة والضحك رؤية جديدة**، مطابع السياسة، الكويت، (**1423** هــ/ **2003**م).
- شكري عياد – **اللغة والإبداع**، القاهرة،(**1988**م).
- شوقي ضيف:
  – **الفكاهة في مصر**، دار المعارف، (**1985**م).
  – **في الشعر والفكاهة في مصر**، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- صــلاح فضل – **بلاغة الخطاب وعلم النص**، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط**1**، (**1996**م).

- ابـــن طباطبا، محمد بن أحمد (ت **322هـــ**) – **عيار الشعر**، شعر وتحقيق عباس عبد الســـاتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1402**هـــ/ **1982**م).
- عائشة عبد الرحمن – **الإعجاز البياني للقرآن**، دار المعارف، القاهرة، (**1971**م).
- عادل حمودة – **النكتة السياسية**، دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع، ط**4**، (**1992** م).
- عـــباس محمود العقاد – **جحا الضاحك المضحك**، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، د.ت.
- عبد الجبار القاضي، القاضي أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد (ت **415**هـــ)– **المغني فـــي أبواب التوحيد والعدل**، أمين الخولي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، ط**1**، (**1380**هـــ/ **1960**م).
- ابـــن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت **328**هـــ) – **العقد الفريد**، تحقيق بركات يوســـف هـــبود، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1420**هـــ/ **1999**م).
- عبد الرحمن طه– **الدلاليات والتداوليات** "**أشكال الحدود**"، "**ضمن كتاب البحث اللساني والسيميائي**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (**1401**هـــ/ **1981**م).
- عبد السلام المسدي:

– **الأسلوبية والأسلوب**، دار سعاد الصباح، القاهرة، ط**4**، (**1993**م).

– **قاموس اللسانيات**، الدار العربية للكتاب، (**1984**م).

- عبد القادر الفاسي الفهري – **المصطلح اللساني**، "**ضمن أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات**"، تونس، (**1968**م).
- عـــبد الواحـــد الشـــيخ – **البلاغة وقضايا المشترك اللفظي**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (**1986**).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- أبـــو عبـــيد القاســـم بـــن سلام الهروي (ت **224**هـــ) – **غريب الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت.
- عـــثمان بـــن طالب – **البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية**، "**ضمن أشـــغال الملـــتقى الدولي الثالث في اللسانيات**"، الجامعة التونسية، (**1985**م)، سلسلة اللسانيات، المطبعة العصرية، تونس، ع**6**، (**1986**م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت **505**هـــ):
  – **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
  – **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق وتعليق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط**1**، (**1997**م).
  – **أيها الولد** ، عمر فروخ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، (**1951**م).
- الفخر الرازي، محمد بن عمر بن حسن (ت **606**هـــ):
  – **التفسير الكبير**، المطبعة البهية المصرية، ط**1**، (**1357**هـــ – **1937**م).
  – **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1985**م).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت **276**هـــ):
  – **أدب الكاتب**، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه محمد الدّالي، مؤسسة الرسالة، ط**1**،(**1402**هـــ/ **1982**م).
  – **عيون الأخبار**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- القزوينـــي، محمـــد بن عبد الرحمن الخطيب – **الإيضاح في علوم البلاغة**، مراجعة محمـــد الســـعدي فرهود، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (**1420**هـــ/ **1999**م).
- الكناني ، بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة (ت **732**هـــ) – **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العـــالم والمـــتعلم**، طبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية القائمة بعاصمة الدولة الآصفية ابن جماعة حيدر آباد الركن، (**1353**هـــ).

- لطفي عبد البديع – **عـبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب**، نادي جدة الأدبي، ط**2**، (**1406**هـ/ **1986**م).
- ماجد البنكاني – **آداب اللسان في ما يخص اللسان من خير أو شر "في ضوء الكتاب والسنة وأقوال السلف"**، دار النفائس، الأردن، ط**1**، (**1423**هـ– **2003**م).
- المتنبـي، أبـو الطيب أحمد بن الحسين (ت **354**هـ) – **ديوان أبي الطيب المتنبي**، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان.
- محمـد خطابـي – **لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط**1**، (**1991**م).
- محمد بن صالح عثيمين – **فتاوى العقيدة**، دار الجيل، بيروت، ط**2**، (**1993**م).
- محمـد صـلاح الديـن الشريف – **تقديم عام للاتجاه البراغماتي**، "**ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية**"، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس ط**2**، (**1990**م).
- محمد بن عبد الغفور الكلاعي– **إحكام صنعة الكلام**، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- محمد عبد المطلب – **البلاغة والأسلوبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (**1984**م).
- محمـد العمـري – **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط**1**، (**1406**هـ/ **1986**م).
- محمد مفتاح – **تحليل الخطاب الشعري**، دار التنوير، ط**1**، (**1985**م).
- محمود درويش – **الديوان**، دار العودة، بيروت، (**1994**م).
- محمود السعران – **علم اللغة مقدمة للقارئ**، دار الفكر العربي، مصر، (**1992**م).
- المرزوقـي، أبو علي أحمد بن محمد (ت **421**هـ) – **شرح ديوان الحماسة**، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط**1**، (**1371** هـ، **1951**م).
- مسـلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج (ت **261**هـ) – **صحيح مسلم**، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**1**، (**1415**هـ/ **1994**م).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

- مصطفى ناصف – **اللغة بين البلاغة والأسلوبية**، النادي الأدبي الثقافي بجدة، (**1409 هـ/ 1989م**).
- ابن مكي الصّقلّي، أبو حفص عمر بن خلف (ت **501هـ**)**7 – تثقيف اللسان وتلقيح الجـنان**، تحقـيق عبد العزيز مطر، الجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (**1386هـ/1966م**).
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت **518هـ**) – **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط**2**، (**1407هـ/ 1987م**).
- نهاد الموسى:
  - **الأساليب مناهج ونماذج في تعليم اللغة العربية**، الشروق، ط**1**، (**2003م**).
  - **اللغة العربية في سياقها الاجتماعي ضمن كتاب اللغة العربية وطرائق تدريسها**، ج**2**، منشورات جامعة القدس المفتوحة، دولة فلسطين، ط**1**، (**1993م**).
  - **منزلة السياق في نظرية النحو العربي ضمن كتاب الصورة والصيرورة "بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي"**، الشروق، ط**1**، (**2003م**).
  - **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط**1**، (**1400هـ/ 1980م**).
- الـنووي، محيـي الدين يحيى بن شرف (ت **676هـ**) – **الأذكار**، ترتيب محمد علي الصابوني، دار الصابوني، ط**1**، (**1423هـ/ 2002م**).
- الـنويري، شـهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت **732هـ**) – **نهاية الأرب في فـنون الأدب**، وزارة الـثقافة والإرشـاد القومـي، القاهرة، مطابع كوستا تسوماس وشركاه.
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد بن عبد الله (ت **761هـ**):
  - **شرح شذور الذهب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، (**1380هـ/ 1960م**).
- **مغنـي اللبيب عن كتب الأعاريب**، حققه مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط**6**، (**1985م**).

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (ت **395**هـ):
  - **الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط**1**، (**1371** هـ/ **1952**م).
  - **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل عبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط**2**، د.ت.
- ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم – **البرهان في وجوه البيان**، تحقيق أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، جامعة بغداد، ط**1**، (**1387**هـ/ **1967**م).
- يوسف بكار – **بناء القصيدة العربية**، مطبعة دار نشر الثقافة، (**1979**م).

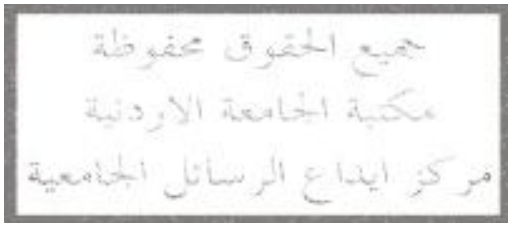
جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الكتب المترجمة:

- أولمان – **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، **(1978م)**.
- بالمـــر – **علـــم الدلالـــة إطار جديد**، ترجمة صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، **(1992م)**.
- د.ســـي ميومـــيك – **المفارقة**، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، **(1982م)**.
- رودلـــف زلهايم – **الأمثال العربية القديمة**، ترجمة رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط**1**، **(1391 هـــ / 1971م)**.
- رولان بارت – **مبادئ في علم الأدلة**، ترجمة محمد البكري، **(1986م)**.
- فرانســـواز أرميـــنكو – **المقاربـــة التداولية**، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت.
- هربـــيرت بركلـــي – **مقدمـــة إلـــى علـــم الدلالة الألسني**، ترجمة قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، **(1990م)**.
- هـــنري برجســـون – **الضحك، البحث في دلالة المضحك**، ترجمة سامي الدروبي وآخرون، الكاتب المصري، القاهرة، **(1947م)**.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الدوريات:

- أحمد المتوكل:
  - **التمثيل الدلالي التداولي في النحو الوظيفي من بنية خطية إلى بنية متعددة الطبقات**، مجلة المناظرة، س**3**، ع**5**، (**1992**م).
  - **مبدأ الوظيفية وصياغة الأنحاء**، مجلة المناظرة، س**2**،ع**3**، (**1990**م).
- أحمد مختار عمر – **المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية**، عالم الفكر، م**20**، ع**3**، (**1989**م).
- تمام حسان:
  - **تعليم النحو بين النظرية والتطبيق**، المناهل، ع**8**، س**4**، الرباط، المغرب، (**1397** هـ، **1977**م).
  - **المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة**، فصول، م**7**، ع**3**، **4**، إبريل، سبتمبر، (**1987**م).
- حمادي صمود – **النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم**، المجلة العربية للثقافة، ع**24**، (**1993**م).
- خليل عودة – **المستوى الدلالي للأداة في التشبيه**، مجلة جامعة النجاح للأبحاث م**3**، ع**10**، (**1996**م).
- رشيد الحاج صالح – **فلسفة المعنى في التحليل اللغوي المعاصر**، "فتجنشتين" نموذجا، المعرفة، س **39**، ع **442**، (**2000**م).
- سعد مصلوح:
  - **التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة**، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ع**45**، (**1987**م).
  - **الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة**، عالم الفكر، م**20** ، ع**3**، (**1989**م).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- **في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة، "تطبيق على أشعار البارودي وشوقي والشابي"**، عالم الفكر، ع**4**، س**3**، **(1985م)**.

- صلاح فضل، **من الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية**، فصول، م**7**، ع**3**، **4**، إبريل سبتمبر،**(1987م)**.
- فريد عوض حيدر – **توحيد ترجمة المصطلح في الوطن العربي**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية **22**، رسالة**180**، **(1423هـ/2002م)**.
- محمد رجب النجار – **الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك**، عالم الفكر، م**13**، ع**3**، **(1982م)**.
- محمد علي الكردي – **مفاهيم الفكاهة الفرنسية من خلال فنون الكوميديا**، عالم الفكر، م**13**، ع**3**، نوفمبر، ديسمبر، **(1982م)**.
- محمد مفتاح – **بعض خصائص الخطاب**، علامات، ج**35**، مج**9**، **(1420هـ/2000م)**.
- نهاد الموسى:
  - **الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية**، المجلة العربية للدراسات اللغوية، م**4**، ع**1**، **(1405هـ/1985م)**.
  - **مقدمـــة في علم تعليم اللغة العربية**، المجلة العربية للدراسات اللغوية، س**1**، ع**1**، (**1982م)**.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

المراجع الأجنبية:

- Abdullah Shunnaq - **Semanticity, Pragmaticity, And, Translatability of Jokes in North Jordan**, Damascus UNIV. Journal -VI6- Number (1) (2000) .

- Dorothea Franck, **Seven Sins of Pragmatics, Theses About Speech Act Theory, Conversational Analysis, Linguistics And Rhetoric in Possibilities And Limitations of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics**, Urbino , July 8/14/1979, by Herman Parret, Amsterdam Joh'n Benjamins B.V 1981.

- Domenico Parisi and Cristiano Castelfranchi, **AGoal Analysis of Some Pragmatic. Aspects of Language in Possibilities And Limitations of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics**, Urbino , July 8/14/1979, by Herman Parret, Amsterdam Joh'n Benjamins B.V 1981.

- Geoffrey N.Leech, **Principles of pragmatics**, Longman, London and New York , 1983.

- Götz Hindelang**, Pragmatical Grammar And the Pragmatics of Grammar in Possibilities And Limitations of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics**, Urbino , July 8/14/1979, by Herman Parret, Amsterdam Joh'n Benjamins B.V 1981.

- **Herman Parret, Possibilities and Limitation of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics**, Urbino, July 8/14/1979, Amsterdam John Benjamins B.V. 1981.

- Jocelyne M. Vincent And Cristiano Castelfranchi, **On The Art of Deception: How To Lie while Saying The Truth in Possibilities**

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

And Limitations of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics, Urbino , July 8/14/1979, by Herman Parret, Amsterdam Joh'n Benjamins B.V 1981.

- John Firth, **Papers in Linguistics**, Oxford University Press, London, 1964.
- Marcelo Dascal, **Contextualism, in Possibilities And Limitations of Pragmatics, Proceedings of the Conference on Pragmatics**, Urbino , July 8/14/1979, by Herman Parret, Amsterdam Joh'n Benjamins B.V 1981.
- Stephen C. Levinson, **Pragmatics**, Combridge University Press, London, New York, 1983.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المقام في العربية في ضوء البراغماتية: النظرية والتطبيق

إعداد

منال "محمد هشام" سعيد نجار

المشرف

الأستاذ الدكتور نهاد الموسى

ملخص

تــزايد اهــتمام العصــر بموضوع البراغماتية الذي أضحى ميداناً خصْباً للدراسات والأبحاث والمؤلفــات، والذي يؤكد حضوره يوماً بعد يوم في مجتمعنا اللغوي اللساني الحاضر. بالإضافة إلى آلاف المقــالات وعشــرات الكتــب التي صدرت بأكثر من لغة لاستجلاء معالم هذا العلم ولإبراز مجالاته التطبيقية العملية.

من هذا المنطلق انطلقت أطروحتنا التي نتوخى منها عرضاً لمفهوم البراغماتية وإيراد الشواهد مــن تراثــنا العربي. فعلماء العربية قديماً قد تنبهوا إلى جملة من الحقائق المتصلة بقوام هذا العلم تحت مُسمّى "المقام" و "مقتضى الحال".

فالعودة إلى التراث ساعدنا على إقامة بناء تصوري ومنهجي للمقام من خلال النقاشات والآراء والمقــولات التــي جلوناها خلال قراءتنا لكتب التراث وكشف المسكوت عنه في نصوصهم وملء الفراغات في مجالات البلاغة والنحو والنقد والمثل والنكتة وكتب التأديب.

فخرجت الدراسة بأنّ التراث العربي بتنوعاته، وبمستوى التناول المختلف له، مصدر جيد يتجه إلى إقامة التنويعات والتلوينات في أشكال التعبير وبناه ودلالاته.

وخرجــت بفــتْح آفاقٍ جديدة للبحث البلاغي والنحوي والنقدي من خلال بناء متكامل لنظرية جديــدة فــي تحليل هذه البحوث هي "النظرية المقامية"، واقترحت الدراسة تطوير نموذج في تعليم العربــية والتواصل بها، ينتقل بنا من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام ويعيد طرح مسألة الإيصال والتلقــي فــي ضوء جديد. كل هذا بعد قراءة التراث قراءة تنأى عن التكلف في تأويل كلامه وعن افتعال مشابهات توهم بسبقه.

فتنبهـــت الـــبلاغة العربية إلى أهمية المقام عند تشكيل الأسلوب البلاغي، فنهض علم المعاني إلى مراعاة المقام واتساق الكلام مع مقتضى الحال، فيفترض علم المعاني أنّ أي تغيير في الأسلوب اللغوي يؤدي تلقائياً إلى تغيير في معناه فالعلاقة بين الشكل والمضمون علاقة مقامية.

وتنبهـــت الـــبلاغة العربية إلى أنّ الأساليب البيانية والبديعية تنفرد بدلالات عميقة وجوهرية وشديدة الوقع على المتلقي، فمثل هذه الأساليب لا تنتمي لميدان الشكل بل لميدان

دلالـــة مـــن نوع خاص. وهي الطرائق التي يتفاوض بها المُلقي والمتلقي. فمن أجل المتلقي تتغير الأساليب والصيغ.

وضـــروب البيان والبديع شيء إنساني غايته تطوير التعبير وتحسينه وتوفير الجمال فيه زيادة فـــي الإيضاح ورغبة في حسن المقال وإسهاماً في صقل الذوق وإرهافه وسيراً في طريق الحضارة لتحقيق أقصى إمكانات التبليغ تحقيقاً يؤدي إلى انتهاض المخاطب بالعمل والتغيير.

ولـــم يقتصـــر الاهـــتمام بالمقـــام على البلاغيين بل التفت إليه النحويون، فعلى الرغم من معيارية اللغويين العرب في تقعيد اللغة إلا أنّهم لم يغفلوا المقام، فأومأ النحاة إلى المقام في الدرس النحوي، فكثـــير مـــن دروس النحو لا يمكن فهم خواصها التركيبية والتمييز بينها إلا بربطها بمقاماتها التي توظَّف فيها.

وأومض نقاد العرب القدامى إلى أهمية المقام في الفنون الأدبية من رسائل وخطب وشعر.

ولـــم تغفـــل كتب التأديب دور المقام في ضبط التهذيب وتكييف الخطاب على مقتضى أحوال المخاطبين، وعلاقتهما بالتلاؤم اللغوي الاجتماعي.

وخرجت الرسالة برسم مسار لتعليم العربية وفق المقام، مرماه إنتاج خطاب مؤثر ومقنع.

وهكـــذا سَـــعَت هـــذه الدراسة إلى تغطية الحقل البراغماتي/ المقامي بكل أبعاده النحوية والبلاغية والنقدية الأدبية وفي الخطاب والتعليم.

THE CONTEXT IN ARABIC IN THE LIGHT OF PRAGMATICS
THEORY AND APPLICATION

By

Manal "Mohammad Hisham" Said Najjar

Supervisor

Prof. Nihad AL- Musa

Abstract

The theory of pragmatics is increasingly gaining much concern, and has been enriched with a huge sum of studies which found it too fertile for review and analysis. Day after day it emphasizes its essential existence and importance in recent linguistic studies, not to mention the numerous papers and books in several languages trying to unveil and reveal its essence, leaving clear guidelines to where and how to implement such theory in actual occasion .

In this respect and from this point, I directed my thesis, seeking the best and most suitable means to present clear definitions and explanations of the theory of pragmatics according to knowledged men in Arabic language in the past, enriched with evidence and citing examples from our unlimited Arabic heritage. Before, knowledgable and insightful Arab linguists stated several facts regarding the basic principles of pragmatics and put it under the name "AL- MAQAM" (translated into English:, "THE CONTEXT").

Furthermore, this thesis tried to come up with detailed structures of the theory of pragmatics which paves the way for new researches in the fields of rhetoric, syntax and criticism, using a new analytical method. In this context, this study also proposes enhancing social communications thru the development of recent educational systems of the Arabic language, moving linguistics closer to theory in to practice.